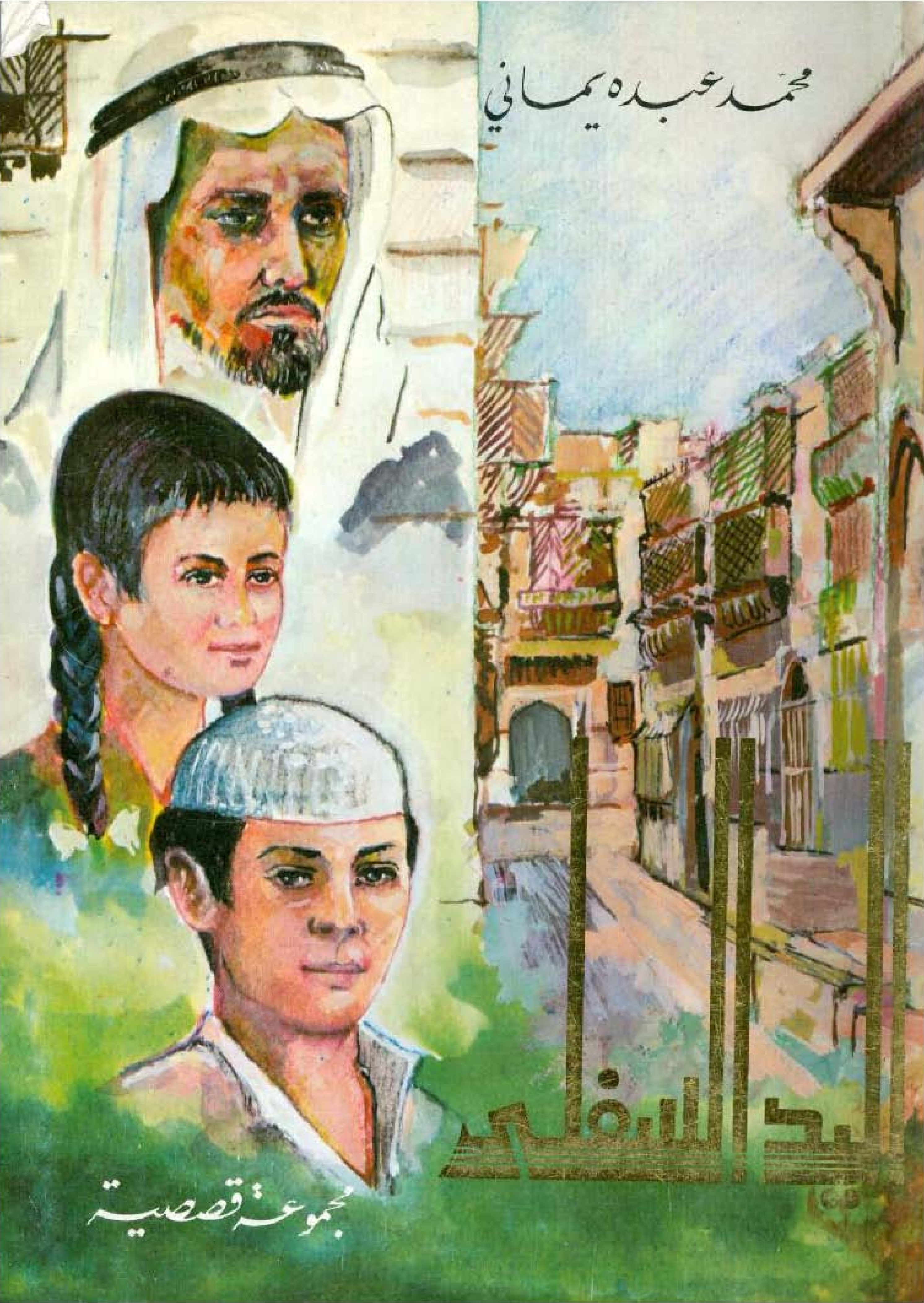

محمد عبده يماني
اليد السفلى
مجموعة قصصية

محمد عبده يماني

اليد السفلى

مشرد بلا خطيئة

مجموعة قصصية

بسم الله الرحمن الرحيم



العمل الفني «كلمة» يريد صاحبها أن يقولها بطريقته الخاصة..
فالشاعر يقولها في قصيدة..
والموسيقي يقولها في لحن..
والرسام يقولها في لوحة..
والكاتب يقولها في دراسة ، أو بحث ، أو قصة..

* * *

ووراء كل «كلمة» يقولها أحد هؤلاء ، قصيدة كانت أم لحناً ، أم جملة ، معاناة لا يعرف متعها وعذابها إلا الذي خاض هذه التجربة ، بصرف النظر عن مدى نجاحه في التعبير عما في نفسه..فالفكرة – فكرة «الكلمة» المراد قولها– تظل تلح على صاحبها ، وترافقه في يقظته وفي منامه ، وتشغله في واقعه وفي أحلامه ، وتطرق باب ذهنه بقوة وإلحاح ، لا يصدها تجاهل ، ولا يبعدها نسيان..

• اليد السفلى

• مشرد بلا خطيئة

مجموعة قصصية



بل إن الفكرة قد تعايش صاحبها سنوات ، تلح عليه ، وتطرق باب عقله ، وتقلق عليه منامه وراحته ، فتسعده بقدر ما تشقيه ، وتمتعه بقدر ما تعذبه ، فما يجد وسيلة –بعد ذلك كله– للخلاص من ذلك المزيج من المتعة والعذاب ، إلا أن يخرج بفكرته إلى النور : قصيدة كانت ، أو لوحة ، أو لحناً ، أو جملة..

* * *

وإذا نحن استثنينا «المحترفين» و«المتفرغين» في مجالات العمل الفني المختلفة ، فإن المعاناه –بالنسبة لغيرهم– تكون أشد وأقسى ، ذلك أن من اتخذ لنفسه ، تحت أية ظروف ، سمتا في الحياة يختلف ، أو يبعد ، عن مجال الإنتاج الفني على وجه التخصيص ، وشعر بأن لديه «كلمة» يريد أن يقولها ، فإن ذهنه يتوزع –تلقائياً– ما بين مشاغل يومه العادية ودواعي عمله الأساسي ، وبين تلك الكلمة التي تريد أن تخرج من تحت يديه : فلا تثنيها عن الإلحاح مشاغل ، ولا تصرفها عن الاصرار متاعب أو مشكلات.

وهنا –بالذات– تكمن متعة العمل الفني وعذابه في آن واحد...

فإننا لنعلم أن النتاج الفني الذي هو بين أيدي أبناء البشرية جمعاء ، ليس كله من قبل منتجين محترفين ، لأن الاحتراف –في الأساس– ظاهرة جديدة في دنيانا ، وما زالت مقتصرة –من حيث مردودها كمورد للحياة– على مجتمعات قليلة معينة في بعض البلاد..

هناك أطباء أنتجوا روائع من القصص..

وهناك مهندسون وعلماء أعطوا روائع من الإنتاج الفكري..

وهناك عسكريون وضعوا تحفاً من النتاج القصصي والشعري والموسيقي..

فالكلمة التي يريد صاحبها أن يقولها شيء ، وسَمْتُه المعاشي في الحياة شيء آخر تماماً..

ذلك أن الأصل هنا – وما آتي بجديد في هذا القول – هو وجود تلك « الكلمة » – أي الفكرة – المراد قولها ، والتي تنبثق في ذهن صاحبها ما يدري كيف ، ثم تروح تكبر وتكبر ، وتتشعب وتتشابك ، وتحتل – بسرعة أو ببطء – مساحات واسعة من تفكيره ، حتى يصل بها الأمر إلى أن تتدافع مع مشاغله اليومية ، فتطغى هذه على تلك مرة ، وتزيح إحداهما الأخرى عن مكانها مرة أخرى ، ويظل هذا الصراع – بمتعته وعذابه معاً – مستمراً إلى أن يهيىء الله لمن يعانيه أن يضع أفكاره على الورق ، وكلما قطع من الطريق شوطاً ، تزايدت المتعة وتناقص العذاب ، حتى إذا ما ألقى القلم بعد أن يصل إلى نهاية الطريق ، أحس براحة هي – في الواقع – جزاؤه الأكبر ، وجائزته العظيمة ، فالكلمة قد قيلت وانتهى أمرها ، وباتت من ثم ملكاً لقارئها ، يرى رأيه فيها ، ويصدر حكمه عليها بصرف النظر عن مضمون ذلك الرأي وهذا الحكم . . .

* * *

بعد هذا التمهيد ، الذي أعتقد أنه لا بد منه ، أقدم للقارىء الكريم مجموعتي القصصية هذه التي احتوت على قصتين طويلتين أولاهما هي « اليد السفلى » والأخرى هي « مشرد بلا خطيئة » . .

فلقد كانت « اليد السفلى » هي – تقريباً – تجربتي الأولى في كتابة القصة . .

ولدت فكرتها في ذهني منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، بعد أن استوحيتها من البيئة السعودية الخالصة ، فكتبتها – إذ ذاك – مختصرة ، ونشرتها في مجلة « الإذاعة » التي كانت تصدر في ذلك الحين .

كانت القصة ، إذ ذاك ، قصيرة لا تتجاوز بضع صفحات . .

ولكن إطارها الواسع الذي كنت أتمنى أن أكتبه ، ظل يلح علي المرة بعد المرة ، سنة بعد سنة ، وكانت مشاغلي الكثيرة تلتهم أيامي كلها ، فلا أكاد أجد فرصة للخلاص من إلحاح

الفكرة ، وارتيادها لذهني باستمرار ، بتسطيرها على الورق ، وكانت الفكرة تزداد إلحاحاً كلما زرت مكة المكرمة ، وطفت بالبيت العتيق ، وسرت في شوارع المدينة المباركة وحاراتها وأحيائها . .

ورحت أنتهز كل فرصة تسنح – وما أقلها – لأودع صفحة أو صفحتين من الورق بعضاً مما أردت أن أقوله في هذه القصة ، وما كان أشد ارتياحي وغبطتي حين وجدتني قد انتهيت من هذه الصفحات التي شغلتني سنوات طوالا ، وباتت القصة – الآن – ملكاً للقارىء العزيز يرى فيها رأيه كما يشاء . .

* * *

والمعاناة نفسها ، أخذت من أفكاري ووقتي الشيء الكثير ، وأنا أكتب القصة الأخرى « مشرد بلا خطيئة » . . فلقد استوحيتها من واقع الألم التاريخي الذي ليس له مثيل ، ذاك الذي عاناه – ويعانيه – اخواننا الفلسطينيون ، أصحاب فلسطين وأهلها ، ومن التطورات التي طرأت على القضية الفلسطينية ، منذ أن بدأت أقسى جريمة للتهجير – تناولت شعباً بأكمله – إلى أن وجد هذا الشعب نفسه مرغماً على أن يحمل البندقية ، ويدافع عن قضيته بنفسه ، على النحو الذي نعرفه ونعايشه . .

ولئن قيل قديماً بأن الحقيقة أغرب من الخيال ، فإنني أسجل – هنا – أن النماذج البشرية التي اخترتها لأعرض فيها جانباً من مأساة المشردين بلا خطيئة ، ليست بعيدة ، في الواقع ، عن الحقيقة ، وأنها موجودة فعلاً بخيارها وأشرارها على السواء . .

ان « ابراهيم » – مثلاً – هو كل شاب فلسطيني ، وجد نفسه بلا بيت ولا وطن من غير أدنى خطيئة ارتكبها ، فكان من حقه إذن ، بل من واجبه ، أن يحمل السلاح ، وأن يحاول استرداد أرضه بالقوة كما أخذت منه بالقوة . .

و« ام ابراهيم » هي كل أم فلسطينية ، عانت وتعذبت وكافحت وعاشت الأهوال كي

تقيم أود ولدها واودها ، وتؤمن له أسباب الحياة في ظروف بالغة الصعوبة والقسوة ، في المخيمات ، بينما الغاصب الدخيل يحتل بيتها ويعيش على أرضها ووطنها..

و «عمر» هو كل رجل فلسطيني ، وعى الأحداث منذ وقوعها ، وعرف أبعاد المؤامرة منذ بدايتها ، فكان عليه ان يقاتل في جبهتين : جبهة الحياة لكي يؤمن حياته ، وجبهة الجهاد ضد العدو الغاصب..

و «حاييم» هو ذاته النموذج الصهيوني الذي ينضح لؤماً وخبثاً وغدراً وخيانة ، فهو الضعيف المسكين ظاهرا ، وهو الغادر المنكر للجميل ، المسيء لمن أحسن إليه باطناً..

مهمتي ، إذن ، كانت –في هذه القصة– هي جمع تلك القطع المتناثرة من اللوحة الأصلية ، وإعادة تشكيلها في قالب جديد –من خلال رؤيتي الخاصة– فأخذت من الحقيقة وقائعها التاريخية الثابتة ، ومن الخيال آفاقه التي تشكل الإطار الذي أردته لهذه اللوحة..

* * *

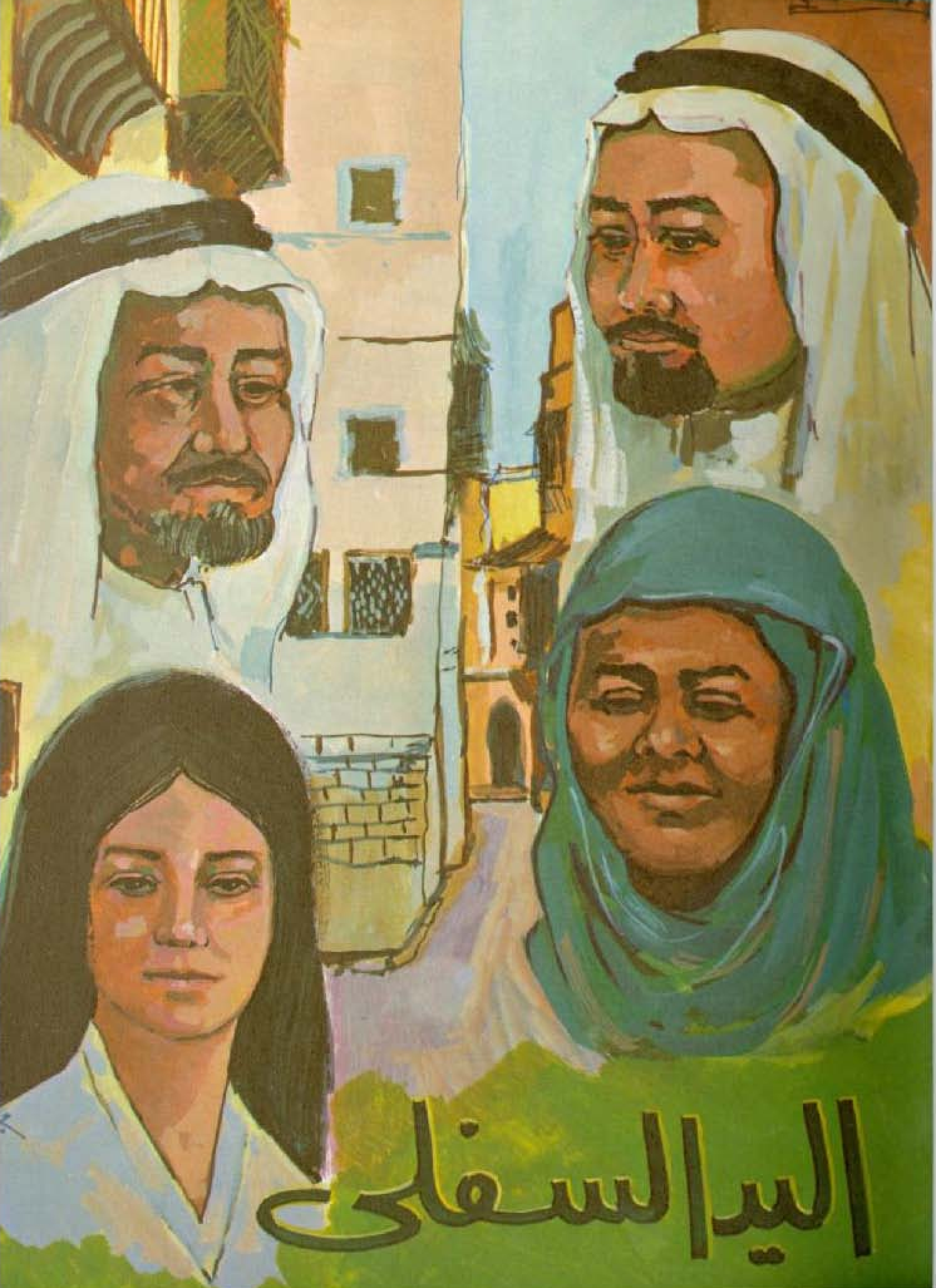
وبعد...

فإني آمل أن أكون قد وفقت ، في هذه المقدمة ، لأن أقول ما أردت أن أقوله..

فما أنا بالكاتب «المحترف» –بالمعنى المادي للكلمة– ولا أنا من أهل صنعة الكتابة المتفرغين ، وإنما هي كلمات أردت أن أقولها ، تخلصاً من إلحاحها على ذهني ، في هذه المجموعة ، وفيما سيصدر بإذن الله من كتب أخرى ، قد اختلست من وقتي المزدحم دوماً بالمشاغل ، دقائق أو ساعات ، خططت فيها على صفحات الورق هذه الكلمات.. فإن لقيت رضى القارىء العزيز ، فذاك كل ما آمل وأبغي ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد حاولت..

وما التوفيق ، أولاً وآخراً ، إلا من عند الله..

محمد عبده يماني


اليد السفلى

بسم الله الرحمن الرحيم

شاء الله أن تصدر هذه المجموعة .. في هذا العام
الذي اعتبر عاماً للطفل
وجعلت الصدفة نصيباً للطفولة في القصتين
وهي طفولة فرضت عليها الظروف أن تكافح
وهي بعد في سنواتها الأولى.

فالى الطفل العربي الطامح أهدي هذه القصة
وهي من وحي ما انطوت عليه روحه الطيبة
من تطلع الى غد أفضل .. وقدرة على مواجهة
الصعوبات

فاليك أيها العزيز .. على درب مستقبل نتطلع
اليه جميعاً بكل الآمال ..
اليك .. اهدي قصة "اليد السفلى"

محمد عبده يماني
١/٥/١٣٩٩هـ

الفصل الأول

– لقد أوشكنا على الوصول إلى مكة.. لم يبق أمامنا إلا القليل..

قال لي أبي ذلك وقد بدا عليه التعب والاعياء، وكأنه كان يشجعني على مواصلة السير، بعد أن قطعنا تلك المسافة الطويلة سائرين على أقدامنا، لم نركب خلالها سوى شطر من الطريق، بقدر النقود القليلة التي كان بوسع أبي أن يدفعها، فقد كان – يرحمه الله – فقيراً معدماً، غادرت معه قريتنا الصغيرة «بني فهم» ووجهتنا مكة المكرمة.

ولعلي كنت، أنا أيضاً، متعباً ولكن أعوامي التسعة قد ساعدتني على احتمال مشاق الطريق أكثر منه، كما أن بالي كان مشغولاً بتهاويل من أحلام اليقظة صرفتني عن الانتباه إلى مشاق الطريق، فأنا الآن – كنت أقول لنفسي – في طريقي إلى مكة المكرمة حيث يقوم بيت الله العتيق ومسجده المبارك، وكنت قد سمعت. وأنا في القرية. كثيراً عن المدينة المقدسة وعن الحرم المكي الشريف، وعن الكعبة المشرفة، وعن مباني مكة وأهلها وأسواقها.

كنت أتصور ، بكل ما في خيالي الطفل من خصوبة وامتداد آفاق ، أنني سوف أجد مكة ملأى بأصناف المآكل اللذيذة من الحلوى والبليلة والفول السوداني ، إذ قلما عاد أحد من أهالي قريتنا من مكة إلا ومعه شيء من تلك الأطايب التي كنت ألتهم نصيبي منها بنهم شديد ، وبخاصة تلك الحلوى التي يسمونها «طبطاب الجنة».

وواصلنا طريقنا ، وقد أسرعنا في السير بعد عبارة أبي تلك ، بينما كانت تمر بنا بين الحين والآخر سيارات من مختلف الأنواع : لواري.. وانيتات.. بكوس.. هكذا كنت أسمع الناس يسمونها في القرية ، وعرفت – فيما بعد – أن هذه الأسماء هي صيغ الجمع الشعبية التي تعارف الناس عليها.

وكنت ، في رحلتنا هذه ، قد جربت ركوب أحد «الوانيتات» الصغيرة ، حين حشرنا ، أبي وأنا ، حشراً في إحداها مع كثيرين غيرنا ، وقطعنا من الطريق مسافة تتناسب مع ما دفعه والدي من القليل الذي كان معه ، ثم نزلنا وواصلنا سيرنا على الأقدام إلى أن وصلنا إلى مشارف مكة.

ورحنا نرتقي هضبة من تلك الهضاب المحيطة بالمدينة الطاهرة ، وما إن بلغنا أعلى الهضبة حتى استوقفني والدي ، ووضع يده على كتفي ، وأشار بيده وهو يقول بصوت متهدج قد ظهر الخشوع ، مع التعب ، في كل كلمة من كلماته :

– هذا هو بيت الله..

ونسيت نفسي.. بل نسيت كل شيء..

نسيت الأهل الذين فارقتهم ، ونسيت إخوتي وأصدقائي الذين خلفتهم في «بني فهم»..

نسيت حياتي ، القصيرة ، كلها وترددي ما بين المزارع وبيتنا المتواضع هناك..

نسيت ذلك كله ، وما عاد في خاطري سوى مكة المكرمة التي كنت أراها أمامي ؛ والمسجد الحرام المبارك بمآذنه العالية ، وعمارته الشامخة ، وبيت الله العتيق – وسطه – في مهابته وروعته..

وشعرت بروحي تشف وتشف حتى لكأنها تحولت إلى طائر سبقني إلى ذلك المكان المقدس يرفرف حوله ، وسيطر عليّ خشوع عميق ترقرقت له الدموع في عيني ، وأحسست بأنني قد ألفت المكان وهو على مرمى النظر مني ، وأنا لما أخط إليه بعد..

وانتبهت من استغراقي على لمسة خفيفة على كتفي ، وإشارة من أبي كي نواصل السير ، ونهبط الجانب الآخر من الهضبة لنصبح – أخيراً – داخل المدينة المقدسة..

ولم أنتبه إلا فيما بعد ، إلى أنني قد نسيت كل ما كنت آمل أن أجده في مكة من حلوى ومآكل لذيذة ، إذ كان كل ما يشغلني إذ ذاك هو أن أسرع الخطى وراء أبي كي ألحق به وهو يتجه نحو المسجد الحرام.

ووقف أبي أمام مكان كان الناس يتوضأون فيه ، ووقفت أنا حائراً أمام الصنابير التي كان الآخرون يديرونها ، فيندفع الماء منها ليتوضأوا به ، وكانت تلك أول مرة أرى فيها صنبوراً ، لأن لنا في قريتنا طريقة أخرى في الوضوء والشرب ، وكأنما شعر أبي بحيرتي فابتسم لي في عطف ، وعلمني كيف يدار الصنبور ليسيل الماء منه بعد ذلك ، فأتوضأ ، واستعد لدخول الحرم المكي الشريف للصلاة فيه لأول مرة في حياتي.

وأمسكت يد أبي بشدة وهو يسير وسط الزحام ، ويدخل بي إلى صحن المسجد الفسيح ، وكانت عيناي معلقتين بالكعبة المشرفة بانبهار ، وفي داخلي شعور جارف يهيب بي أن أندفع إليها ، وأن أقبلها ، فهأنا ، ولأول مرة في حياتي ، على بعد خطوات ليس إلا من بيت الله العتيق.

وانتبهت من خواطري على صوت أبي وهو يقول لي :

– هيا بنا للطواف تحية للمسجد..

ودهشت لقول أبي هذا، فلقد تعلمت من قبل أن تحية المسجد – أيّ مسجد – هي أن نصلي ركعتين عند دخولنا إليه...

وقلت ذلك لأبي فابتسم في عطف وهو يجيبني:

– هذا صحيح يا أحمد.. إن تحية المسجد هي أن تصلي فيه ركعتين، أما تحية البيت الحرام فهي الطواف..

وطفنا بالبيت سبعاً، وكنت في كل شوط من أشواط الطواف أقبل الركن اليماني، وألثم الحجر الأسود، وكانت الفرحة تطل من وجه أبي وهو ينظر إلي، ويبتسم ابتسامته العطوف التي لا أنساها أبداً وهو يراني أفلت من يده مندفعاً نحو الركن لأقبله، ثم أعود إلى أبي مسرعاً لأمسك بيده من جديد..

وبعد أن انتهينا من الطواف، صلينا ركعتين في حجر اسماعيل، ثم صلينا ركعتين عند مقام ابراهيم، وشعرت بأنني أؤدي الصلاة في خشوع فأطيل الركوع والسجود، وأتلو الآيات من أعماق قلبي، فها هي الكعبة المشرفة أمامي على مرأى العين، بعد أن سمعت عنها الكثير من قبل منذ أن وعيت على الدنيا، وهأنا أملأ ناظري، وروحي، منها لأول مرة في حياتي، فلقد كانت الكعبة المشرفة، في خيالي، شيئاً مبهماً أحس به ولا أستطيع أن أتخيل شكله، بل إنني ما سبق لي أن رأيت، قبلاً، حتى صورتها.

وأخذني أبي، بعد ذلك، إلى حيث وقفت بالملتزم، وتعلق بالباب، ثم وقف ما بين الحجر الأسود والباب، يدعو ويبتهل إلى الله.

ومددت يدي وأنا أقف على أطراف أصابع قدمي، أريد أن أمسك بعتبة الباب فلاحظني أبي وحملني – بعد أن انتهى من دعائه – ورفعني بكلتا يديه حتى لامست يداي عتبة الباب، باب الكعبة المشرفة، فرحت أدعو وأدعو...

دعوت لأمي ، ودعوت لإخواني ، ودعوت لشيخ المسجد الذي كان يؤمنا ، هناك في «بني فهم» .

وكان دعائي يخرج من صميم قلبي ، إذ كنت أشعر بأنني اؤدي واجباً محتماً عليّ تجاه من أحب ومن أشعر بفضله عليّ . . .

وخرجنا من الحرم الشريف ، وقد امتلأ قلبي وروحي بنور ما شعرت بمثله من قبل قط ، وكنت قد نسيت تعبي بعد الطريق الطويل الذي سرناه ، ونسيت جوعي بعد أن مضت ساعات طويلة لم أتناول خلالها أي طعام ، منذ أن غادرنا «بني فهم» في طريقنا إلى مكة .

وعدت إلى نفسي بعد أن غادرت المسجد الحرام ممسكاً بيد أبي الذي اتجه بي إلى السوق الصغير حيث تصاعدت إلى أنفي روائح الطعام من الدكاكين الصغيرة التي يزدحم بها السوق ، فجذبت يد أبي وأنا أقول له ممازحاً :

– هل نصوم يا أبي بعد أن قمنا بالطواف؟ . . أم اننا سنتناول شيئاً من هذا الطعام الكثير الذي نراه أمامنا؟ . . .

وابتسم أبي ابتسامته التي أحبها ، فهو قد تعود مني هذه الطريقة في الحديث ، وهي طريقة أعرض فيها مطالبي بصورة أقرب إلى المزاح ، إذ كنت أكثر إخوتي جرأة على هذه الطريقة في الحديث .

وقهقه أبي في جذل وهو يدلف بي إلى شارع ضيق متفرع من السوق الصغير ، ودخلنا مقهى من تلك المقاهي التي تقدم لروادها الطعام و«الشيشة» والشاهي ، والتي كانت عامرة بأمثالنا ، أبي وأنا ، ممن لا يحملون من المال ما يتيح لهم تناول الطعام في أحد المطاعم .

وجاءنا صبي المقهى يسأل عن طلباتنا ، وما لبث أن أتانا بها خلال وقت قصير ، فأكلنا وشعرنا بالشبع لأول مرة منذ أن بدأنا سيرنا الطويل ، وزال عني كل الهم والغم اللذين شعرت بهما وأنا أترك قريتنا العزيزة .

بعد الطعام طلب أبي لنا الشاهي ، فهو يعرف حبي الشديد له ، ويعرف أيضاً أنني قد أفوّت وجبة دسمة من أجل أن أرشف الشاهي بطريقتي الخاصة ، ممزوجاً بالنعناع أو الليمون أو بعض أوراق شجر الليمون ، وبالورد أحياناً ، وكان أهلي يبتسمون – ولعلهم يسخرون – من طريقتي هذه ولكنني كنت متمسكاً بها ، حريصاً عليها.

واسترخيت في مقعدي بارتياح ، أرشف الشاهي بتلذذ ، وأحدث نفسي بأن كل شيء على ما يرام ، فقد زالت آلام فراق مرتع طفولتي في «بني فهم» ، والابتعاد عن والدتي وإخواني ، وأحسست بأنني ألفت مكة وأنست إليها ، وأنني سعيد كل السعادة ، مرتاح كل الراحة ، وأن النور الذي أضاء قلبي وروحي منذ أن دخلت المسجد الحرام ، ما زال يشع ويشع فيملؤني سعادة وراحة واطمئناناً ما كنت لأطمع ، وأنا في جلستي هذه ، بأكثر منها.

وبعد أن انتهينا من تناول الشاهي ، ذهبت مع أبي إلى منطقة «البيبان» ، حيث استأجرنا كرسيين من «الكراسي الشريط» في أحد المقاهي العديدة المنتشرة في كل ضواحي مكة. ومع الكرسيين استأجرنا لحافين وثيرين ، فافترش كل منا نصف لحافه وغطى جسمه بالنصف الآخر ، لنستغرق في النوم خلال لحظات ، فلقد كان يومنا حافلاً منذ أن غادرنا «بني فهم» وآن لنا أن نعوض تعبنا بالراحة ، ويقظتنا بالنوم ، وقلقنا بالإطمئنان ونحن في رحاب المدينة المقدسة.

واستيقظت على صوت المؤذن ، وقبل أن أفتح عيني كان أبي يهزني برفق وهو يقول :

– أحمد ... أحمد... هيا بنا يا بني... علينا أن نسرع لنلحق الصلاة في الحرم الشريف...

ورفعت رأسي وأنا أتذكر المسافة التي سرناها ليلة أمس إلى هذا المكان سيراً على الأقدام وقلت :

– لقد استيقظت يا أبي... ولكن المسافة بعيدة...و...

فقاطعني أبي وهو يتنهد وكأنه يستسلم لأمر لا مفر منه :

– لا بأس... نركب الأتوبيس إذن...

وكان ركوب الأتوبيس شيئاً جديداً عليّ.. صحيح أنني كنت أراه أحياناً وهو يمر بقريتنا ، ولكنني – قط – لم أركبه لأنني لم أكن قد غادرت قريتي قبل هذه السفرة...

وركبنا الأتوبيس ، ورحت أتحسس مقعدي الوثير الذي يختلف عن مقعد الوانيت الذي ركبناه خلال جزء من المسافة التي قطعناها في طريقنا إلى مكة ، وراح ذلك الشعور بالرضى والاطمئنان يعاودني ، لا سيما حين اجتلت عيناي بيت الله العتيق مرة أخرى ، وقد أخذت أستار الليل تنحسر عن المدينة المباركة لترسم مع إطلالة الفجر لوحة هزتني حتى الأعماق وحفرت تفاصيلها في ذاكرتي بصورة لم أنسها بعد ذلك أبداً. فلقد قدر لي فيما بعد أن أزور معظم بلاد العالم ، وأرى معالمها البارزة والشهيرة ، ولكنني لم أشعر – أبداً – بمثل تلك الهزة الروحانية التي ملأتني سعادة وطمأنينة وسكينة قلب وأنا في رحاب بيت الله ومسجده الحرام المبارك.

وبعد أن أدينا الصلاة ، قلت لأبي أنني أرغب في الطواف بالبيت العتيق مرة أخرى ، فاستجاب أبي لرغبتي ، وطفنا وأنا أحدث نفسي – على حداثة سني – بأنني سعيد إلى أقصى درجات السعادة ، وأن شيئاً في أعماق روحي ينبض بهذه السعادة لتنتشي بها جوارحي كلها بما لا يمكن وصفه من أحاسيس.

وخرجنا من المسجد الحرام ، وفي نفسي ما بها من مشاعر ، كنت – إذ ذاك – عاجزاً عن فهم مغزاها ومدلولاتها ، فكان يكفيني منها ذلك الشعور بالطمأنينة والسلام.

وفي المقهى الذي جئناه بالأمس تناولنا طعام الإفطار الذي لم يزد عن طبق من الفول ورغيف من الخبز ، وبعد أن انتهينا رفعت عيني إلى أبي متسائلاً عما يكون من أمرنا بعد ذلك ، فرأيت على وجهه من معالم الجدية والاهتمام ما يزيد عما أراه عليه عادة ، فشعرت بأن

هناك شيئاً غير عادي يريد أبي أن يزجي به إليّ ، لا سيما عندما مد يده يربت بها على كتفي برقة وهو يقول في حنان :

— اسمع يا ولدي ... هذا فجر يوم جديد ... لكنه يوم لا ككل الأيام بالنسبة لك أو لي ... إنه أول أيامك في مكة ولقد جئت بك إلى هنا لكي تعمل وتساعدني بالأجر الذي ستحصل عليه ، فأنت تعلم ، يا ولدي ، كم ترهقني تكاليف الحياة كي أنفق على أهلك وإخوانك هناك ..

ولم أجب بشيء ، أطرقت برأسي ورحت أتمعن فيما قاله أبي ، وانتقلت بأفكاري إلى هناك ... حيث الأهل والاخوة والعائلة ...

ورحت استعرض في خيالي أيامي السالفة في قريتي حيث قضيت السنوات القليلة التي عشتها في لعب ومرح دون أن يخطر لي ببال – ولا خطر لأحد من إخوتي – كيف كان والدنا يؤمن لنا أسباب الحياة وتكاليفها ومتطلباتها ...

كان ما يستخرجه والدي من أرضنا الصغيرة لا يكاد يكفينا إلا بصعوبة ، فكان يمارس أعمالاً أخرى ليؤمن لعائلته دخلاً إضافياً مهما كان تافهاً ، فأحياناً كان يساعد المزارعين الآخرين بعد فراغه من عمله في حقله ، وأحياناً كان ينقل المحاصيل إلى جدة أو إلى مكة ليبيعها لحساب المزارعين الآخرين لقاء نسبة بسيطة من الربح ، ولكن ذلك كله لم يجد فتيلاً أمام الأفواه الجائعة التي كانت تتكاثر وتنمو وتزداد مطاليبها ، الأمر الذي جعل أبي يلجأ إلى ما لجأ إليه باصطحابي إلى مكة ومحاولة إيجاد عمل لي بواسطة العديد من معارفه وأصدقائه فيها ...

ويبدو أن استغراقي في أفكاري قد طال أكثر مما كان أبي يقدر ، فحسبه تردداً أو رفضاً ، إذ قال لي بلهجة لم أسمعها منه قبلاً :

— إنك أكبر إخوانك يا أحمد ... وأكثرهم فهماً ووعياً ... وأحسب أن حالنا لا



تخفاك بصورة لا أجد معها داعياً لأن أشرحها لك أو أزيدك عنها إيضاحاً...

وآلمتني لهجة أبي التي كانت أقرب إلى رنة الإعتذار أو التبرير، فرفعت رأسي إليه وكان جوابي على كلامه ابتسامة عريضة تغني عن كل كلام...

وفهم أبي مغزى ابتسامتي فبادلني بمثلها، وضمني إليه يقبلني في حنان، وقال لي بتأثر:

– بارك الله فيك.. بارك الله فيك يا بني...

فقلت وابتسامتي تزداد اتساعاً:

– وهل يخطر لك، أبقاك الله يا أبي، أن أعصى لك أمراً أو أنكص عن تنفيذ رغبة؟...

– هذا هو أملي فيك يا ولدي...

– ولكن لي، يا أبي، إليك رجاء.. رجاء واحد..

– ما هو؟..

– أن يكون عملي معك.. في مكان واحد.. فما تعودت فراقك.. ولقد كان فراقي لأمي قاسياً.. وأنا أكره أن أفارقك أنت أيضاً..

ورأيت أثر كلامي يرتسم على وجه أبي في الحال، فقد ظللت جبينه سحابة من الألم، وبدا عليه وكأنه يجهد في حبس الدموع التي اغرورقت بها عيناه، ويحاول أن يكون صوته طبيعياً وهو يجيبني:

– واأسفاه يا ولدي.. لو كان ذلك ممكناً ما احتجت لأن تذكرني به.. ولكن لا عليك.. فستعمل في مكان أمين إن شاء الله.. لدى أناس يكونون كأهلك تماماً.. وعليك أن تخلص لهم وتتفانى في عملك كي تكتسب ثقتهم...

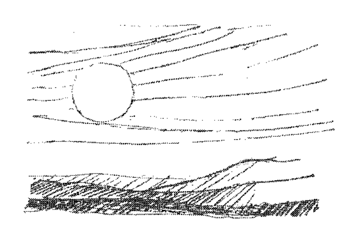
فقلت بسرعة :

– كأهلي؟ .. لا .. لا يا أبي .. لن يكون هناك أحد كأهلي .. فالأهل هم الأهل .. والناس هم الناس .. ولست أحسب أن هناك من يعتني بي مثل أمي .. أو يرعاني مثل أبي ..

وتوقفت عن الكلام فجأة ، إذ أدركت انني قد زدت أبي على همومه هماً ، وعلى آلامه ألماً ، وعادت ملامح الأسى تكسو وجهه لولا أنه تمالك نفسه بصعوبة ، وأخذ يدي بين يديه وهو يقول :

– إنني واثق من أنك سوف تكون سعيداً في حياتك الجديدة بإذن الله .. ولسوف أراك باستمرار .. فأنت تعلم بأنني أؤم مكة دائماً .. فهيا بنا إذن .. وكن رجلاً ..

ونهض أبي فنهضت معه ، وسرنا بين أسواق مكة الضيقة إلى أن توقفنا أمام دكان كان يتصدره رجل عجوز .



الفصل الثاني

– السلام عليكم يا شيخ باقيس...

ألقى أبي السلام على الرجل العجوز الذي كان يتصدر الدكان التي وقفنا أمامها، ورحت أتأمل الشيخ باقيس هذا، فوجدته بادي المرض والاعياء، وإن كان صوته قوياً وجهورياً عندما رد السلام على أبي قائلاً:

– وعليكم السلام يا عيضة.. أهلاً بك..

ووجه نظره نحوي ثم حدق بي في إمعان والتفت إلى والدي يسأله:

– من هذا الذي معك؟..

– إنه ولدي.. أحمد..

فأرخيت عيني في ارتباك وقلت لباقيس محيياً في خجل:

– السلام عليكم يا عمي الشيخ باقيس..

– يا مرحبا.. يا مرحبا...

وقال أبي :

– لقد جئت به إلى مكة وأملي أن نوفق ، بجهودك يا شيخ باقيس ، في العثور له على عمل..

ورفع الرجل نظره إلى أبي وقال باهتمام :

– جئت به في الوقت المناسب.. إن الشيخ صلاح يبحث عن صبي ليعمل في منزله.. إنه يريده صغيراً في مثل سن ولدك..

وتوقف الشيخ قليلاً عن الكلام ثم أردف بلهجة من يعلن نبأ خطيراً :

– إنه يدفع مبلغاً مغرياً.. وهم أناس طيبون كما تعلم...

وأومأ أبي برأسه موافقاً وهو يقول :

– مرحباً يا باقيس.. لا مانع عندي..

وتوقف الكلام بين الرجلين عند هذا الحد ، وكأنهما قد اعتبرا الأمر منتهياً ، بينما وقفت أنا أنقل بصري بينهما وفي ذهني أسئلة كثيرة كان بودي أن أطرحها عليهما.. فأنا لا أدري ، حتى الآن ، ما هي نوعية العمل الذي سأمارسه ، والبيت الذي سأعمل فيه ، ولا كيف ستكون حياتي بعد ذلك ، ولا كيف سألتقي بوالدي ، إلى آخر هذه الأسئلة التي تدافعت إلى خاطري وأنا أرى الرجلين قد اكتفيا بما دار بينهما من كلام ، ولم أكن في موقف يسمح لي بأن ألقي أسئلتي فاكتفيت بالصمت مثلهما وأنا على ثقة من أن ما سوف يجري بعد قليل سيجيب على أسئلتي تلقائياً..

وجلست على حجر من الصوان كان موضوعاً أمام دكان باقيس ، وقد عولت على الصبر لأرى إلام تتطور الأمور..

وانتهى باقيس من الأوراق التي كان منهمكاً في تدقيقها وإجراء حساباتها ، فرفع وجهه

عنها ونادى أحد المستخدمين الذين يعملون داخل دكانه وقال له بلهجة عادية ، وكأنه يأمره بإيصال «بضاعة» إلى أحد الزبائن :

- خذ هذا الغلام.. اسمه أحمد.. أحمد بن عيضة.. اذهب به إلى بيت الشيخ صلاح وقل له أنني قد وجدت له الصبي الذي طلبه..

وانحنى الشيخ باقيس على أوراقه فور انتهائه من مخاطبة مستخدمه ، وكأنه اعتبر أن المسألة قد انتهت ، وانه قد أوفى بما عليه ما دام قد وجد للشيخ صلاح الصبي الذي يطلبه..

ووقفت أنا حائراً لا أدري ما أفعل.. ونظرت إلى أبي فخيل إلي أنه كان يتحاشى أن تلتقي عيناه بعيني ، وجذبني المستخدم من يدي وقال لي بلهجة تقرب كثيراً من لهجة مخدومه بما فيها من عدم اكتراث :

- هيا بنا يا ولد...

ولم أتحرك... ظاهرياً على الأقل ، أما في داخلي فقد انفتحت هوة هائلة جعلتني أدرك بغريزة الغلام ذي الأعوام التسعة ، ما هو معنى افتراقي عن أبي ، وما هو معنى بعدي الدائم عن أهلي وقريتي ، وما هي ، من ثم ، طبيعة الحياة الجديدة التي يراد أن يزج بي وراء أبوابها..

وبدون أن أشعر بما أفعل ، تمسكت بأبي وكأنني أرجوه في توسل صامت ألا يتركني ، فوضع يديه على كتفي وأخذ يحدق بي وكأنه يتملى مني بقدر ما يستطيع قبل أن أفارقه ، وقال لي بصوت متهدج جهد ما وسعه أن يبدو طبيعياً :

- والآن.. استودعك الله يا أحمد...

وشعرت بقلبي يذوب ، وروحي تتداعى ، وأنني لم أتعلق بأبي يوماً كما أتعلق به في هذه اللحظة بالذات وأنه يصعب - إن لم أقل يستحيل - عليّ أن أفارقه أو أبتعد عنه..

ونظرت إليه صامتاً ، وشعرت بأنه يهم بأن يضمني إلى صدره ، ويداه ما زالتا على كتفي

تضغطان عليهما بقوة، ولكنه – على ما بدا لي – تمالك نفسه، وتركني وتحرك مبتعداً وهو يتمتم:

– استودعك الله.. يا ولدي...

ومع أن دافعاً قوياً أهاب بي أن أقفز وراءه، وأن أتمسك بثيابه، وأن أمنعه من الذهاب دون أن يأخذني معه، إلا أنني، ويا للغرابة، لم أتحرك، بقيت جامداً، مشلول الحركة، وخرج صوتي من حلقي ضعيفاً، متخاذلاً، مستعطفاً:

– متى سأراك يا أبي؟..

وتوقف أبي، واستدار نحوي وهو ينظر إلي باستغراب، وكأنه يدهش لعدم إدراكي لأبعاد الموقف وأجابني:

– متى ستراني؟.. ستراني دائماً إن شاء الله.. دائماً سأمر عليك.. وعندما تنتهي من عملك ستعود إلى ديرتنا.. لا عليك.. لا عليك الآن.. المهم أن تجعلهم مسرورين منك ومن عملك..

وابتعد مع كلماته الأخيرة، وغاب عن ناظري، وأنا ما زلت في مكاني جامداً بلا حراك، أحدث نفسي بأن هذا شيء مروع، شيء لا يمكن أن يحدث.. ولكن ماذا أفعل؟.. هأنا قد أصبحت الآن وحيداً، وأبي يبتعد عني مع كل خطوة من خطواته، والشيخ باقيس منهمك في حساباته وأوراقه، وأنا.. أنا ابن التسعة أعوام، واقف مكاني لم أتحرك منه قيد شعرة...

حدث ذلك كله في لحظات خاطفة من عمر الزمن...

ولعل المدة التي استغرقها حديث أبي إلى الشيخ باقيس، والتفاهم بينهما بشأني، وذهاب أبي.. كل هذا لم يستغرق أكثر من ربع ساعة، وربما خمس دقائق، ولكنها كانت

- بالنسبة لي في ذلك الموقف - أطول من دهر..

- هيا بنا يا ولد..

قال لي مستخدم الشيخ باقيس ذلك فوضع بجملته هذه حداً لخواطري اليائسة...

وسار المستخدم أمامي دون أن يدير وجهه إلي مرة واحدة، وكأنه واثق من أنني سوف أتبعه، وقد فعلت ذلك حقاً: سرت وراءه أحاول أن أجاري خطواته الواسعة السريعة بخطواتي القصيرة، وكأنني شاة تساق إلى الذبح..

إنني، الآن، وبعد السنوات الطوال التي مرت على ذلك الموقف، وبعد أن جرى ما جرى من أحداث حياتي التي لم تكن تخطر لي في حسبان، لا أتمالك نفسي من الشعور بالدهشة متسائلاً: كيف سرت وراء الرجل هكذا.. بكل بساطة.. بدون توقف.. بدون تردد.. لم لم أهرب؟.. لم لم أطلق ساقي للريح وأعود إلى قريتي، كما جئت، سيراً على الأقدام؟..

لقد مضت سنوات وسنوات على ذلك اليوم، ومع هذا فإن ذكراه ما تزال محفورة في ذهني بأدق تفاصيلها.. فأنا أذكر مشية المستخدم وهو يسير أمامي يهز يديه إلى الأمام والوراء وكأنه جندي يسير في استعراض عسكري.. لقد ذكرني منظري وأنا أتبعه دون تردد أو تلكوء بمنظر الشياه في قريتي وهي تتبع جزارها وتتواثب لكي تلحق خطاها بخطاه،.

وما زلت أذكر، إلى اليوم، الحواري الضيقة التي كان مستخدم الشيخ باقيس يجتازها واحدة بعد الأخرى في طريقه إلى بيت الشيخ صلاح..

وأذكر، أنني كنت أسير دون أن أفكر في شيء أبداً، فلم يخطر لي أن أسأل المستخدم عن نوعية العمل الذي سأقوم به في بيت الشيخ صلاح ما دمت قد امتنعت عن إلقاء هذا السؤال على أبي والشيخ باقيس، ولم يخطر لي أن أسأل عمن يكون الشيخ صلاح هذا..

وأين سأقيم.. أين سأنام.. كيف آكل.. مع من سوف أعيش... أبداً لم يخطر ببالي شيء من هذا، في ذلك اليوم الذي لا أنساه من أيام حياتي، وكل ما فعلته هو أنني سرت أحث الخطى وراء الرجل الذي كان يسير أمامي بخطاه الواسعة التي لا تتوقف...

وأخيراً وصلنا...

فقد وقف المستخدم أمام بيت ذي باب خشبي كبير، كثير النقوش والزخارف، تطل من وراء أسواره أشجار عالية، وفي وسط الباب حلقة معدنية صدئة، مد الرجل إليها وراح يقرع الباب بها بقوة...

والتفت الرجل إلي، وقال لي ببساطة:

- هذا هو بيت الشيخ صلاح..

وكدت أقول له، وقد اعتدت - كما قلت - على أن أتكلم دون تحفظ مازجاً الجد بالمزاح:

- يا للهول.. أحقاً هذا هو بيت الشيخ صلاح.. غير معقول..

لقد وصلت هذه الجملة الصبيانية الساخرة حتى طرف لساني وكدت أنطق بها، ولكنني لم أفعل، لأن ذهني كان يتجه بفضول شديد إلى ما وراء سور منزل الشيخ..

ومد الرجل يده إلى الحلقة المعدنية يريد أن يطرق بها الباب مرة أخرى، ولكن الباب فتح فجأة وظهر رجل متقدم في السن، شعرت في الحال بنفور غريب منه، بل وبكراهية قوية حدثت نفسي معها بأنني لا يمكن، قط، أن أحبه..

- السلام عليكم يا شيخ صلاح...

قالها مرافقي وهو يرفع يده بالتحية إلى رأسه...

- وعليكم السلام يا مبروك .. هه..

- عمي الشيخ باقيس يقرئك السلام ويقول لك أنه وجد لك الصبي.. هذا هو..

ودفعني مرافقي من كتفي برفق نحو الشيخ صلاح، ومرة أخرى كدت أقول له ساخراً: «هذا هو؟».. لا حاجة بك لتأكيد ذلك.. فأنا «الصبي» الوحيد الواقف أمامك والشيخ صلاح، فما الداعي لأن تقول هذا هو؟..».

ولكنني - مرة أخرى - ابتلعت جملتي الساخرة، وتمسكت بالصمت، وظللت واقفاً وكأن الأمر لا يعنيني وأن الكلام يدور حول «صبي» آخر غيري...

ونظر إلي الشيخ صلاح نظرة متفحصة، وكأنه يختبر مدى قدرتي على العمل، أو لعله اعتاد أن يلقي هذه النظرة عندما يتفحص خروفاً يريد أن يشتريه..

كانت نظرته... لا أدري ماذا أقول.. ولا كيف أصفها.. ولكنها - في جميع الأحوال - لم تعجبني ولم تقع في نفسي موقعاً حسناً لأنها كانت نظرة مشتر يتفحص البضاعة المعروضة عليه..

وازددت كراهية للرجل ولما يمض على لقائي به سوى دقائق..

- أبلغ الأخ الشيخ باقيس شكري وامتناني.. وقل له أنني سأزوره في المساء إن شاءالله..

- يوصل يا شيخ صلاح... السلام عليكم...

تبادل الإثنان هاتين العبارتين، ومضى مستخدم الشيخ باقيس بعدها عائداً إلى مخدومه، وبقيت أنا وحيداً.. وحيداً.. أنظر إلى الشيخ صلاح نظرة فارغة، إذ ما كانت صحبته لتشعرني بأنني أقف أمام «إنسان» آخر..

ومد الشيخ صلاح يده إلى ذراعي وضغط عليها بقوة وهو يجذبني إلى الداخل قائلاً باقتضاب:

- أدخل...

وشعرت بالألم الشديد في ذراعي، ولكنني تمالكت نفسي واستطعت أن أكتم الصرخة القوية التي كادت أن تنطلق مني رغماً عني، ودخلت إلى البيت وقد ترسخت في أعماقي تلك الكراهية الشديدة لهذا الرجل.

وما أحسب أنني في حاجة لأن أفسر شعور الكراهية هذا، فهو شعور طبيعي لا يستطيع المرء أن يجد له دوماً تفسيراً، فأنت قد تحب شخصاً من أول نظرة وتشعر وكأنك تعرفه منذ عشرات السنين، فتربط بينكما صداقة ومحبة، بصرف النظر عما إذا كان هناك تفاوت في العمر أو المركز الإجتماعي، وقد يحدث معك العكس، بمعنى أنك تشعر بكراهية شديدة لشخص لا تعرفه وجمعتك به صدفة أو ظروف، وقد يبادلك هو أيضاً كراهيتك بكراهية من غير أن يستطيع أحدكما أن يفسرها بشيء..

وهذا هو بالضبط ما كان بيني وبين الشيخ صلاح..

فلقد قضيت في بيته ثلاثة أيام.. ثلاثة أيام ليس غير.. كان يعاملني خلالها على أنني «صبي» لا أكثر ولا أقل، فما حاول أن يقوم بلفتة ما تشعرني بأنه ينظر إلي كإنسان قد دخل الحياة العملية من بابها التعس هذا، ومع أن العمل في بيته لم يكن مرهقاً، إلا إنني كنت أشعر بغيظ شديد كلما ناداني أحد أفراد عائلته بتلك الكلمة «.. يا صبي..» وقلما كانوا ينادونني باسمي، بل كانوا في أحيان أخرى ينادونني قائلين «أنت يا..»..

وسيطرت عليّ خلال تلك الأيام الثلاثة كآبة قاتلة، وشعور عميق ومؤلم بالوحدة، والوحشة، لدرجة هان معها عليّ أن أتجاهل نداءاتهم عندما ينادونني، وأن أقوم بما يطلب مني على غير الوجه المطلوب، وأن أتحرك بكثير من الإهمال واللامبالاة، وأن أتمهل في القدوم وفي الذهاب، وأن أسقط الأواني الزجاجية من يدي شبه متعمد، وأخيراً وجدت نفسي - في أواخر تلك الأيام الثلاثة - أرفض تنفيذ الأوامر والإستجابة لها رفضاً قاطعاً.. وصريحاً..

ودهش الشيخ صلاح بادىء الأمر، ولعله لم يكن يتوقع من «الصبي» أن يتمرد، وحاول أن يرغمني على العمل إرغاماً، ولكنني صارحته بكل ما في نفسي البائسة من يأس ووحشة وضياع، بأنني لا أريد البقاء عنده، وأنني لا أحب العمل في بيته، ووجدتني بعد أن صارحته بذلك في شجاعة وصراحة، أبكي كما يبكي أي طفل في مثل سني، ولم أحاول كتمان بكائي ودموعي، بل انزويت في ركن من المنزل انهنه وأنا أجد في البكاء راحة افتقدتها طوال إقامتي في بيت الشيخ صلاح..

ووقف الشيخ صلاح يحدق بي مستغرباً، وكأنه يحاول معرفة السر الكامن وراء موقفي هذا، ثم عدل عن ذلك فيما يبدو واقتنع بأنني لا أصلح للعمل عنده، وأنني مصمم على تركه، فهز كتفيه بلامبالاة وقال لي وهو يشير بيده نحو الباب:

- زين.. ما يخالف.. تقدر تنقلع... وما توريني وجهك..

ومع ما في هذه العبارة من إهانة جارحة، فقد بدت لي، إذ ذاك، وكأنها مفتاح باب السجن الذي كنت أعتبر نفسي فيه، فقفزت بخفة وأنا أمسح دموعي التي ملأت وجهي، وأسرعت نحو الباب ومرقت منه، ورحت أجري وأجري..

ولست أدري كيف استطعت الإستدلال على دكان الشيخ باقيس، بل لست أدري لم ذهبت إليه، ولم أتخذ وجهتي شطر قريتي، فلقد كان الخلاص من الشيخ صلاح هو الأهم، ومن بعد ذلك - قلت لنفسي - كل شيء يهون.



الفصل الثالث

لم يكد الشيخ باقيس يرى ظلي ينبسط أمامه وهو منحن على أوراقه وحساباته ، حتي رفع رأسه ببطء بصورة عادية ، ولكن ملامحه ما لبثت أن تغيرت حين رآني ، ورأى وجهي الذي ما زالت الدموع تلمع على صفحته ، وأنا ألهث بقوة تدل على السرعة التي قطعت بها تلك المسافة ما بين دكانه وبيت الشيخ صلاح جرياً بدون توقف.

– هه .. خير ان شاءالله .. ايش فيه؟ ..

بادرني الشيخ باقيس بذلك ، وقد بدا على وجهه من السأم أكثر من الإهتمام ، ففتحت فمي أريد أن أجيب ولكن الكلمات خانتني ، فظللت ألهث صامتاً ...

وكرر الشيخ سؤاله بضيق :

– ما تتكلم؟ .. ايش فيه؟ ..

– لقد .. لقد تركت بيت الشيخ صلاح ..

ولم يكد يسمع كلماتي حتى اكفهر وجهه ، ووضع القلم الذي كان يعبث به بين أصابعه ، وقال باهتمام واستنكار معاً :

– تركت بيت الشيخ صلاح؟.. لماذا؟.. لماذا؟..

فقلت ببساطة :

– هكذا...

وكأن كلمتي اللامبالية هذه قد أغضبته ، فزمجر في سخط وراح يهدر :

– هكذا؟.. هكذا؟.. تترك بيت الناس الطيبين؟.. هل تريد أن تتشرد؟.. هل هذه توصية أبيك؟.. يبدو لي أنك ولد يحب المتاعب والمشاكل.. ماذا أصنع بك الآن؟.. وماذا سيقول أبوك؟... كيف أجد لك عملاً ما دمت لا تحب أن تعمل؟.. هه؟.. أجبني.. تكلم...

ووقفت أمامه صامتاً أصغي بخضوع ، حتى إذا توقف قلت له :

– والله العظيم يا عمي أنا أحب أن أعمل... ولكنني لا أريد بيت الشيخ صلاح بالذات...

– ما شاء الله.. تريد أن تشترط وتختار مخدوميك على كيفك؟.. ايش كلام العيال هذا؟..

ولم أجب ، بل رحت أنظر إليه في رجاء صامت...

وفكر الرجل لحظة وهو يزم شفتيه غضباً واستنكاراً ، ثم نادى أحد مستخدميه وقال له :

– اذهب وابحث لنا عن أبيه.. لعله قد جاء من إحدى سفراته... أنت تعرف أين تجده...

فهز المستخدم رأسه بالإيجاب ، ثم انطلق يبحث عن أبي ، بينما أشار إليّ الشيخ باقيس أن أجلس ، وهو ينفخ ويزوم...

وجلست وقلبي يتوثب بين أضلعي.. هل أرى أبي مرة أخرى؟.. هل يعود إليّ الإطمئنان الذي فقدته منذ ثلاثة أيام؟.. هل يزايلني هذا الشعور بالخوف والضياع والوحشة الذي سيطر عليّ منذ أن تركت أبي قبل ثلاثة أيام؟...

وعاد الشيخ باقيس إلى عمله وكأنه قد نسيني تماماً ، ورحت أنا ألقي النظرة بعد النظرة على نهاية السوق متوقعاً أن أرى أبي وهو قادم إليّ ، ليضع حداً لما أنا فيه..

ولكن أبي لم يأت...

جاء المستخدم وحده ، ليخبر الشيخ باقيس بأنه لم يعثر عليه ، فزفر الشيخ في ضيق ، وراح ينظر إليّ وهو يقول :

- والآن؟.. ما العمل؟..

فقلت له بذلة وخضوع :

- اللي تشوفه .. يا عمي ...

- اللي اشوفه؟.. ليش انت راضي تسمع كلامي؟.. اللي اشوفه أنا هو انك ترجع لعمك الشيخ صلاح وبلاشي من المشاكل وشغل العيال.. الله يرضي عليك...

- إلا هذي يا عمي.. ابوس ايدك...

ومضيت ارقب معالم وجهه في لهفة لأرى أثر كلامي في نفسه ، وتركزت عيناي على شفتيه انتظر ما سوف ينطق به..

وهز الرجل رأسه في أسف وهو يقول :

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. والله ما ادري ايش أقول ولا ايش اسوي.. القصد.. تبات الليلة عندي في البيت.. وبكره يحلها الحلال ان شاءالله..

وشعرت بأن جبلاً قد انزاح عن كتفي وأنا أسمع كلماته ، فقد وافق أخيراً على انفكاكي عن الشيخ صلاح ، وبيت الشيخ صلاح ، وكان هذا هو أهم ما يشغلني..

ولم أتمالك نفسي.. فأقبلت على يده أقبلها وأنا أقول له :

– كتر خيرك يا عمي.. كتر خيرك يا عمي..

وسحب الرجل يده بسرعة وهو يقول :

– استغفر الله.. استغفر الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله...

وبدا لي أن الرجل قد تقبل ما حدث كأمر واقع ، ووافق على عدم عودتي الي بيت الشيخ صلاح ، وأنه يخفي وراء مظهره الصارم ، واسلوبه الجاد ، قلباً رقيقاً ، يحب الخير ، ويسعى في غوث المحتاج.

وهكذا اصطحبني معه إلى منزله ، حيث قضيت ليلتي الخامسة في مكة...

أقول قضيت ليلتي ، ولم أقل نمت ، لأنني ظللت ساهراً أفكر فيما أنا فيه ، وما مر بي خلال أيام قليلة جداً مضت على مغادرتي « بني فهم » ، وأنا الذي اعتاد حياة الدعة وعدم الشعور بالمسئولية هناك ، فإذا بي أجد نفسي ، منذ وصولي إلى مكة ، أعيش حياة متغيرة يوماً بعد يوم ، وأقابل أشخاصاً لم يكن يخطر لي ببال أن أقابلهم في يوم من الأيام...

وكما شعرت بكراهية ، لا أدري سببها ، للشيخ صلاح ، شعرت بنقيضها تجاه الشيخ باقيس ، رغم ما بدا عليه من معالم الضيق إذ رآني أترك مخدومي الأول ، وتمنيت لو أن الشيخ باقيس يقبل بي «صبياً» عنده ، أعمل في الدكان والبيت على السواء.

ولعل الشيخ قد تقبل وجودي كشيء لا بد من احتماله ، إكراماً لوالدي ، إلا أنه حقق لي أمنيتي من غير أن أطلبها ، إذ اصطحبني في اليوم التالي معه إلى الدكان ، وعاد بي مساء إلى المنزل ، وكنت – خلافاً لما فعلت في منزل «عمي» السابق – أبذل جهدي لإرضاء «عمي» الجديد ، وتلبية أوامره بحذافيرها ، والمسارعة إلى أداء كل ما يتوجب عليّ أداؤه

حتى ولو لم يطلبه مني.

وكان مما أدخل السرور على نفسي أن الشيخ باقيس لم يكن يعاملني في البيت كصبي، فهو يقتصر على تشغيلي في الدكان وحده، أما في البيت فقد كنت أشبه بابن له، فما كان يكلفني بأكثر مما يكلف به الأب ولده، وشعرت - لأول مرة منذ أن افترقت عن أبي - انني لم أعد أحس بالوحشة والوحدة، وان بوسعي أن أواصل حياتي في كنف الشيخ باقيس إذا ما أراد هو ذلك.. ولكن الأمور لم تسر كما كنت أتمنى وأشتهي.

فذات يوم، كنا فيه في الدكان - عمي الشيخ باقيس وأنا - مر رجل تبدو عليه معالم المهابة والوقار، يحمل في يده زنبيلاً، وعلى عينيه نظارة سميكة..

ورحب به الشيخ باقيس، وأفسح له مكاناً بجانبه، وأقبل عليه يباسطه في الحديث بصورة تدل على أنه يكن له مودة خاصة، وصاح بي طالباً أن أقدم الشاهي للشيخ، وراح الحديث بينهما يتشعب في مختلف المواضيع.. عن الصحة.. عن الأحوال.. عن الدنيا.. عن الأهل.. عن الأصدقاء والمعارف.. عن فلان من الناس.. وعن فلان آخر.. من أصدقائهما المشتركين..

وبينما كنت أقدم لهم الشاهي قال الرجل:

- على فكرة يا باقيس.. هل تعرف لنا صبياً؟.. في الحقيقة نحن في حاجة إلى صبي يعمل عندنا في المنزل...

ولشد ما كانت دهشتي عندما سمعت باقيس يقول للرجل ببساطة:

- هذا هو أمامك.. تستطيع أن تجربه..

ونظر إلي الرجل نظرة فاحصة من وراء زجاج نظارته السميكة ثم قال:

- يبدو لي أنه لا بأس به.. ما اسمه؟..

– اسمه أحمد... أحمد بن عيضة.. جاء به والده، وهو صديقي، وفيه الخير إن شاء الله..

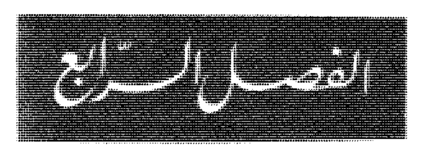
– أعتقد أنه يصلح..

– إذن على بركة الله.. تستطيع أن تأخذه منذ الآن...

وعجبت كيف يتم مثل هذه «الصفقات» بسرعة خاطفة، كما تأكدت من أن باقيس لم يكن شديد الحرص على وجودي عنده، وانه إنما آواني لطيبة في قلبه ليس غير..

ووجدتني أرتاح لذلك الرجل الطيب، وحدثت نفسي بأن من الممكن أن أعيش وأعمل عنده، خلافاً لشعوري تجاه مخدومي السابق الشيخ صلاح..





الفصل الرابع

نهض الرجل ، وتهيأت لمرافقته ، وودعت الشيخ باقيس شاكراً له ما سلف من فضله عليّ ، ثم تبعت «عمي» الجديد وأنا أتساءل ، واجف القلب ، هل ستعاد قصتي مع الشيخ صلاح مرة أخرى في بيت هذا الرجل؟..

والحق أن ذلك لم يحدث ولله الحمد...

فأنا – من جهة – قد بدأت أكيف نفسي ، ونفسيتي ، لوضعي كصبي يعمل في خدمة الآخرين..

ومن جهة أخرى ، كان عمي الجديد بادي الطيبة والبساطة ، وحين دخلت منزله لم أشعر بمثل ذلك النفور الذي شعرت به عندما دخلت بيت الشيخ صلاح ، بل بالعكس : وجدت الجو مريحاً ، إذ كان الرجل يعيش مع زوجته التي تقاربه في السن ، وحيدين ، وكانت الزوجة بادية المرض والإعتلال ، ولكن هذا لم يمنعها من أن تستقبلني أحسن استقبال ، فطلبت إليّ دخول الحمام ، ثم قدمت لي بعض الملابس ، وأوصت زوجها بأن يشتري لي حاجتي من الملابس المناسبة وراحت تعاملني وكأنني ولدها...

كانت عاطفة الأمومة عند هذه السيدة العجوز تفوق حدود الوصف والتصور ، وأشهد بأنها أغدقت علي من مشاعرها الطيبة مثلما أغدق علي زوجها ، بحيث أصبحت وكأنني أحد أفراد هذه العائلة الصغيرة.

وبذلت – من جهتي – كل ما استطعت من جهد لكي أكون في مستوى الرعاية والعطف اللذين أبدياهما نحوي ، وتفانيت في خدمتهما والقيام بواجبي على أتم وجه.

وكان كل يوم يمر يزيدني اطمئناناً إلى البيت وأهله ، حتى أمضيت ستة أشهر كاملة ، تعلمت فيها طريقة الخدمة في المنازل ، وإني لأذكر بكثير من الشكر والتقدير ما علمتنيه تلك المرأة الفاضلة في هذا المجال وما أحاطتني به من رعاية كاملة.

وكأنما كتب لي ألا أتمتع طويلاً بالاستقرار ، فبعد تلك الشهور الستة التي قضيتها في هذا البيت ، كانت حالة السيدة الصحية تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، إلى أن حم القضاء ، وصعدت روحها إلى بارئها ، الأمر الذي وجد الرجل نفسه معه غير قادر على العيش بمفرده في ذلك البيت الذي غابت عنه سيدته.

وناداني الرجل الطيب إليه ، فوجدته جالساً في ركنه المعتاد من المجلس ، ملتفاً بعباءته وأصابعه تعبث بحبات «السبحة» في اضطراب واضح...

ووقفت صامتاً أنتظر ما سوف يقوله ، ولكنه ظل واجماً ، مستغرقاً في التفكير ، فأحسست أنه يجد حرجاً فيما سيقوله لي ، وإن كان هذا القول لم يكن بعيداً عن توقعي ، فكان يصعد نظراته فيّ ثم يعود للإطراق من جديد...

وطال الصمت في الغرفة ، لا يقطعه سوى صوت حبات «السبحة» وهي تمر واحدة إثر الأخرى بين أصابعه..

وأخيراً تكلم الرجل بعد أن تنحنح عدة مرات بارتباك :

– اسمع يا ولدي.. أنت تعرف مكانتك عندي..

- أجل طول الله عمرك.. إنني لن أنسى أفضالك عليّ.. وكذلك الست المرحومة.. لقد كنتما لي كل شيء في حياتي هنا..

- أستغفر الله يا ولدي.. وشكراً لك.. فما كنا نفعل أكثر من الواجب...

وعاد الصمت يسيطر من جديد على جو الغرفة، وحدثتني نفسي أكثر من مرة أن أوفر عليه الحرج، وأن أقول له أنني أخمن ما في نفسه تجاهي، وأنه لا مانع عندي من ذلك ما دامت الظروف تقضي به و...

وتكلم الرجل..

قال في ألم بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه:

- لقد كانت يرحمها الله هي كل دنياي... عمر طويل قضيناه معاً.. نتقاسم السراء والضراء حامدين شاكرين.

- هذه إرادة الله تعالى يا عمي..

- لا إله إلا الله... ولا راد لقضاء الله...

وصمت الرجل مرة أخرى، وطال صمته بعض الوقت، ثم انطلق يتكلم بسرعة كأنما هو يريد أن يفضي إلي بما لديه بعد أن طال تردده عدة مرات:

- اسمع يا ولدي.. لم يعد بإمكاني أن أبقى وحدي هنا في مكة.. أنت تفهمني طبعاً..

- أجل طال عمرك..

- إن لي ابنة متزوجة في المدينة المنورة.. وقد طلبت مني، هي وزوجها، أن أعيش معها هناك.

وسكت الرجل وراح ينظر إلي بهدوء وكأنه قد قال كل ما عنده وأنه يترك لي، بالتالي، أن أستنتج المعنى الكامن وراء كلامه ذاك من غير أن يضطر للإفصاح ووضع النقاط على

الحروف..

ورددت بتأثر شديد:

- فهمت.. فهمت يا عمي.. كان الله معك.. أخذ الله بيدك.. وأسعدك..

- وأنت؟.. ماذا ستفعل؟..

- لنا رب يتولانا برعايته فلا تخش عليّ شيئاً يا عمي...

- شكراً لك يا ولدي...

وأغمض الرجل عينيه بارتياح واضح، وسره على ما يبدو أنني قد وفرت عليه الحرج وساعدته على إبلاغي ما أراد أن يقوله لي بأقصر طريق...

وهمس الرجل:

- الحمد لله.. لقد كنت لنا ولداً باراً يا بني..

- شكراً لك يا عمي.. إنك والمرحومة لم تقصرا في معاملتي أفضل معاملة...

وتمتم الرجل وهو ينهض:

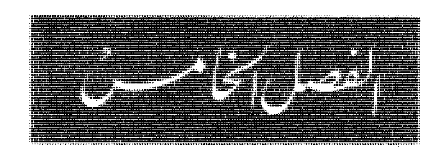
- الحمد لله...

وضمني إلى صدره في حنان وهو يقول:

- لا حاجة بي إلى التأكيد عليك بأنه يهمني أن أراك دائماً.. وأرجو ألا تقطع عني أخبارك.. سوف أعطيك عنواني في المدينة المنورة.. وأرجو أن تكون أخبارك دائماً طيبة بإذن الله..

وهكذا افترقت، مرغماً، عن البيت الذي لقيت فيه المحبة والرعاية والحنان، وعدت إلى التفكير في مصيري، وما يتوجب علي أن اقدم عليه كخطوة تالية...

وتبادر إلى ذهني على الفور الشيخ باقيس...



لم يكد الشيخ باقيس يرني حتى حياني بحرارة تختلف عن طريقته السابقة معي ، وعزوت هذه التحية إلى رضاه عني بعد أن كفيته أمري طوال المدة التي قضيتها في منزل ذلك الرجل الطيب ، وطلب لي الشيخ باقيس الشاهي ، وأجلسني قربه وأولاني كل اهتمامه وهو يقول :

– ما شاء الله.. لقد كبرت يا بني خلال هذه المدة...

وأطرقت في خجل ، فأسرع الشيخ إلى القول :

– أعرف لم جئت... حدثني الرجل عنك... لقد أثنى عليك ثناء عاطراً ليس بعده ثناء...

وهز باقيس رأسه بأسى وأردف :

– يرحم الله زوجته.. لقد كانت سيدة فاضلة بكل معنى الكلمة.. هذا أمر الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله...

وكنت ، من جهتي ، أشعر بالخجل الشديد من أن أعود إلى إزعاج الشيخ باقيس مرة أخرى في طلب العمل ، أو في العمل عنده ، ولكن الرجل وفر علي ذلك بقوله :

– لا تشغل بالك من ناحية العمل .. عندي لك «عم» ولا ككل «الأعمام» .. إنه الشيخ عبد الحميد .. هل تعرفه ؟ ..

– لا أعرف أحداً سواك في مكة ..

– لا عليك .. إنه رجل طيب .. طيب جداً .. وقد أوصاني منذ زمن على صبي .. ولولا أنني أعلم بأنك كنت مرتاحاً عند عمك السابق لقدمتك إليه من قبل ...

– إنني لا أعرف كيف أرد ولو بعض أفضالك عليّ يا عمي الشيخ باقيس ...

– ما هذا الكلام يا ولدي ؟ .. أنت أمانة عندي .. ولا أفعل إلا ما يرضي ضميري إن شاءالله ..

– شكراً لك يا عمي ...

ونهضت على الفور وأنا أحتسي آخر رشفة من الشاهي الذي قدم إليّ ، وقلت للشيخ باقيس ببساطة اكتسبتها بعد أن أصبحت خبيراً في مهنتي :

– ما هو عنوانه ؟ ..

– من ؟ .. الشيخ عبد الحميد ؟ ..

– نعم .. عمي الجديد ..

– يسرني أنك قد أصبحت جاداً ومهتماً بعملك على صغر سنك .. لقد كبرت كثيراً خلال الأشهر القليلة الماضية ...

واتخذت طريقي نحو بيت عمي الجديد بكل همة ونشاط ...

وأستطيع القول ، الآن ، أنني إنما كنت أتجه – بخطواتي نحو بيت الشيخ عبد الحميد – إلى طريق جديد في حياتي ، هو الذي جعل مني ما أنا عليه الآن ..

أجل .. لقد كان ذلك اليوم هو البداية الحقيقية للتحول العظيم الذي وقع في حياتي ، والذي حول مسارها – بعد ذلك – تحويلاً أساسياً ، كان بداية صفحة جديدة تختلف كل الإختلاف عن كل ما مر بي ، وعما كنت أتصوره أو يتصوره لي أبي والشيخ باقيس من العمل كصبي يخدم في المنازل ..

إنني أتذكر ذلك اليوم بتفاصيله كلها ، دقيقة بدقيقة .. بل لحظة بلحظة ..

لقد كانت البداية عادية جداً ولكنها – كما قلت – كانت منطلق حياتي التي أعيشها الآن ..

فعندما وقفت أمام بوابة منزل الشيخ عبد الحميد ، شعرت بنوع غريب من الإرتياح ، وأطربني صوت عشرات من العصافير التي كانت تزقزق في أعالي الأشجار الكثيفة التي امتلأت بها حديقة المنزل ..

كان بيتاً كبيراً ، أو هو قصر صغير ينم عن الرخاء واليسر ، قد بني على ذلك الطراز التقليدي المحبب الذي نراه بكثرة في مكة المكرمة وجدة ..

وعندما تقدمت إلى عمي الجديد الشيخ عبد الحميد ، خالجني نفس الإرتياح ، وأحسست بأن هذا المنزل هو مكاني الطبيعي ، وأنني أستطيع ، فيه ، أن أستقر ، وأن أطمئن ، وأن أنام مرتاح البال ...

كان داخل المنزل – كما تخيلته من خارجه – ينسجم مع مظهره الذي يستلفت الإنتباه ، فحجراته فسيحة وكثيرة ، ودهاليزه طويلة ومتشابكة ، لا سيما الدهليز الكبير الذي يؤدي إلى روشان يطل على حديقة داخلية ، في وسطها بركة ماء جميلة ..

وكان الأثاث جميلاً ، فاخراً من غير ترف ، وكل شيء في المنزل يوحي بالإرتياح والإطمئنان ...

وكان من أسباب ارتياحي ، أكثر فأكثر ، أنه كانت في البيت طفلة في مثل سني ، أو أصغر قليلاً ، الأمر الذي أستطيع معه أن أحادثها وتحادثني ، وألا أشعر بالوحدة والغربة كما حدث معي من قبل ، إذ لا ريب في أنه كانت لوحدتي آثارها الكبيرة فيما لاحظه عليّ الشيخ باقيس من جدية ورجولة مبكرة ، فقد كان من غير الممكن أن أطلق لصبيانيتي العنان ، أو أن ألعب وألهو كما يلعب ويلهو الصبيان الذين هم في مثل سني ، ما دمت لا أجد من ألعب معه وألهو..

أما هنا.. في منزل الشيخ عبد الحميد ، فقد لهوت ولعبت كثيراً..

ولقد تقبلني أهل المنزل ببساطة ، إذ بات لديهم صبي جديد ، يأتمر بأوامرهم ، ويلبي طلباتهم ، ويؤمن حاجاتهم..

أما بالنسبة لي فالأمر كان أهم من ذلك بكثير.

ذلك أن الشعور بالإرتياح والإطمئنان لمكان ، أو لشخص ، أو لأشخاص ، أمر لا يمكن أن يتم ببساطة ، بل لا بد له من خلفية معينة ، لا أدري كيف أحدد معالمها ولكنني أشعر بوجودها – أو ضرورة وجودها – تماماً كما كان الشأن معي في منزل الشيخ صلاح الذي نفرت منه بدون سبب ، والذي لم أطق أن أعيش فيه أكثر من ثلاثة أيام ليس غير..

أما هنا ، في منزل الشيخ عبد الحميد ، فقد حدثت نفسي بأنني على استعداد لأن أقضي فيه عمري كله دون أي ضيق أو تذمر.. وأن كل ما فيه قد وجد في نفسي صدى طيباً ، حمدت الله عليه ، وأعددت نفسي للاستمتاع به ومعايشته..

وفوق ذلك كله كانت تلك «الطفلة» التي أشرت إليها قبلاً إشارة عابرة ، وأزيد أمرها – الآن – أيضاحاً.

كانت تلك الطفلة تدعى «عزيزة» ، جميلة ، رشيقة ، لطيفة ، تبدو عليها معالم الحياة الهنيئة التي تعيشها سواء بملابسها الأنيقة البسيطة ، أو رأسها المرفوع ، أو شعرها.. آه على شعرها ذاك الطويل المسترسل الذي يجعلك تعرف لم استعار الأدباء والشعراء شعاع



الشمس ، وانحدار الشلال ، وخيوط نور القمر في وصف ما يشبهه..

ومنذ اليوم الأول لوصولي ، وبينما أنا أقدم نفسي للشيخ عبد الحميد الذي استقبلني بالترحاب ، اندفعت عزيزة نحوي وهي تحدث جلبة طفولية محببة وقالت لي بدون مقدمات وكأنها تعرفني من قبل :

– تعال نلعب...

ولم أرد بطبيعة الحال ، ولكن الشيخ عبد الحميد قال لابنته وهو يقهقه :

– هذا أحمد.. الصبي الجديد.. لقد جاء هنا ليعمل.. لا ليلعب..

وما كان لطفلة مثلها أن تعرف الفارق ما بين العمل واللعب ، ولهذا كان إصرارها على أن ألعب معها إصراراً حاسماً ، ومن يدري؟.. فلربما كانت تشكو «الوحدة» مثلي ، لا سيما وأنها الطفلة الوحيدة في المنزل ، وأن آثار الوحدة وانعكاساتها تستوي لدى البشر جميعاً ، سواء كانوا أسياداً يأمرون فيطاعون أو كانوا مسودين يؤمرون فيطيعون..

والتفت إلي الشيخ عبد الحميد قائلاً والضحكة لا تزال على شفتيه :

– هاذي عزيزة دائماً كده.. راسها ناشفة.. لما تبغى حاجة لازم تحصل عليها.. روح يا ابني.. العب معاها شوية وامرك إلى الله.. واعتبر انك استلمت شغلك من داحين...

وهل كنت أنا ، نفسي ، سوى طفل يحب اللعب؟.. وهل أنسى مراتع طفولتي في قريتي «بني فهم» التي رأتني أرضها أصل النهار بالليل في اللعب واللهو مع إخواني ورفاقي هناك؟.. وكان معظم تلك الألعاب من ابتكارنا ومن وحي بيئتنا ، إلى جانب ما نتعلمه من زملائنا في القرى الأخرى؟.. وكم من مرة خرج أهلنا للبحث عنا في عتمة الليل بعد أن استغرقنا في اللعب فما عدنا نفرق بين نهار وليل؟..

ولئن كانت ظروفي التي طرأت بعد أن أصبحت أعمل كالرجال قد حالت دوني واللعب ، فما أنا ، أولاً وآخراً ، سوى طفل لم يستوف نصيبه من لعب الطفولة فجاءته الفرصة تسعى على قدمين ، بل وبأمر من مخدومي ، فما كان علي إلا أن أطيع نوازعي الصبيانية من جهة ، وأطيع أمر مخدومي من جهة أخرى ، وألعب مع.. مع من؟.. مع

عزيزة.. وعزيزة بالذات...

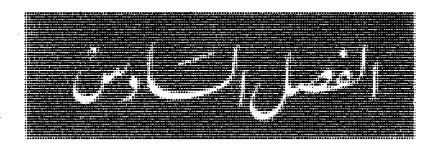
ومع انطلاقتنا الأولى في لعبنا تبينت أن عزيزة تختلف اختلافاً كبيراً عمن كنت ألعب معهم ومعهن من إخواني وأخواتي ورفاقي وبنات الجيران في القرية، فمع أنها كانت طفلة مثلي ومثلهم، إلا أنها كانت مختلفة عنا بنظافتها الفائقة، وجمالها المتألق، وتهذيبها الزائد، وتصرفاتها المتسمة بنوع من الكبرياء الطبيعية التي اكتسبتها من البيئة التي ولدت وعاشت فيها..

ثم إنني كنت ألعب في القرية مع زملائي كأنداد، لا تختلف ظروفهم عن بعض في شيء، أما مع عزيزة فالأمر مختلف فهي ابنة «عمي» سيد البيت الذي أعمل فيه.. وأنا.. أنا الصبي الجديد الذي جاء ليخدم عزيزة وأهلها ومن في بيتهم، والذي يعتبر لعبه، هذا، مع عزيزة نوعاً من العمل، لأنه إنما يتم بأمر من مخدومي.

على أن هذه الخواطر بوجهيها الإيجابي والسلبي معاً، لم تمنعني من اللعب مع عزيزة، ومحاولة انتزاع ضحكات السرور منها، وإدخال البهجة على نفسها بكل ما خطر لي من وسائل وألعاب..

وهكذا أصبحت، إلى جانب عملي، زميل اللعب المفضل لدى عزيزة، وأصبحت تخصني، على صغر سنها، بكثير من الرعاية والاهتمام.

كانت تأبى أن تأكل شيئاً من الحلوى التي كثيراً ما كان أبوها يأتيها بها، إلا إذا أعطتني شطراً منها، وكانت لها في إعطائي هذه الحلوى طريقة طريفة، فهي تقذفني بها قذفاً، وفي بادىء الأمر كنت أفاجأ بذلك، فتصيبني قطعة الحلوى في رأسي أو في وجهي، الأمر الذي يجعلها تغرق في الضحك ببراءة فطرية.. ومع الزمن أصبحت على شيء من المهارة في تحاشي هذه الإصابات، فاما أن أتلقف قطعة الحلوى وهي في طريقها إليّ، وأما أن أزيح رأسي عنها في حركة سريعة لتخطئني وتقع على الأرض، وكان هذا شيئاً مسلياً بالنسبة لعزيزة – سواء أصابتني الحلوى أو وفقت في تلقفها أو تحاشيها – فتضحك بل تستغرق في الضحك بصورة تجعل عينيها الجميلتين تشعان ببريق السعادة، وهو بريق كان يسعدني، إذ يزاملني طيفه، مدة طويلة..



الحق أنهم ، في بيت الشيخ عبد الحميد ، لم يعاملوني «كصبي» أبداً..

كانوا ، جميعاً : السيد ، والسيدة ، وابنتهما ، يعاملونني كأي فرد آخر في البيت ، الأمر الذي كان يدفعني لأن أبذل كل جهدي لإرضائهم ، ولا ثبت لهم أنهم قد وضعوا ثقتهم ومحبتهم في موضعها الصحيح.

وغاب عني شعور الوحشة والوحدة والضياع ، فوجدت نفسي كما أنا : طفلاً ينعم في بحبوحة من العيش ، ناعم البال ، مطمئن الخاطر. بل لعلي أعترف – مع شيء من الخجل – بأنني كدت أن أنسى أهلي وقريتي ، وكل ما ألفته في سابق أيامي مما كنت أعتبره دنياي التي لا أرضى سواها.

وكنت أدخر الأجر الذي أحصل عليه كاملاً ، فما كنت بحاجة لشيء ، لدرجة رجوت الشيخ عبد الحميد معها وهو يسلمني أجري ، مرة ، ألا يفعل ، لأن معاملته لي كانت تجعل

أخذي للأجر انتقاصاً من عرفاني بجميله، ولكن الشيخ عبد الحميد أصر، وقال وهو يسلمني ثلاثين ريالاً:

- خذ يا ولدي.. إنني أعرف الظروف القاسية التي دفعتك للعمل.. لقد حدثني الشيخ باقيس بكل شيء.. وأنا لا أعتبر هذا المبلغ أجراً وإنما هو مجرد هدية مني لولدي...

وبكيت، يومها، تأثراً وقلت له وأنا أتناول المال منه:

- أطال الله عمرك يا عمي.. ولا حرمنا منك أبداً...

هكذا سارت حياتي في هذا البيت ستة أشهر كاملة، لم يحدث فيها ما ينغص علي عيشي بشيء، وكثيراً ما كنت أفكر متسائلاً كيف يختلف الناس عن بعضهم في الأخلاق والطباع، وإن هم تشابهوا في الأشكال والتكوين.

كم كان الفارق جسيماً ما بين الشيخ عبد الحميد والشيخ صلاح مثلاً.. فالأول قد وهب نفسه وروحه للخير، ومد يد العون للناس، فطاب ذكره، وسارت سيرته بين عارفيه مقرونة بعبارات المحبة والثناء والاحترام، والثاني عاش لنفسه، دون أن يخطر بباله أن هذا «الصبي» الذي يؤذيه إنما هو إنسان يحس ويشعر، ويأمل ويحلم، ويسعد ويتألم...

لقد حيرتني هذه المسألة كثيراً، إذ ذاك، لأنها بدت لي عسيرة على فهم صبي صغير مثلي، ولم أكن معنياً، على أية حال، بالوصول إلى جواب أو تعليل، لأن السعادة التي عشتها في بيت الشيخ عبد الحميد قد جعلتني في شاغل عن أي شيء آخر...

وذات يوم جاء أبي...

وكان قد مضى زمن ليس بالقصير منذ أن افترقنا..

وعانقني عناقاً حاراً، ودموعه تسيل على خديه، وراح يضمني إلى صدره وهو يقول بصوت متهدج:

- ما شاء الله.. تبارك الله.. لقد أصبحت شاباً... أصبحت رجلاً...

وجلسنا نتحدث... نتحدث في كل شيء..

لقد أعادت لي رؤيتي لأبي كل ذكرياتي القديمة في قريتي، هذه الذكريات التي دفنت تحت ركام «الذكريات» الجديدة، وعدت أرى في وجهه وعينيه صوراً من الماضي الذي ما كنت أحسب أنني أستطيع الإنسلاخ عنه، وإذا بي أكاد أنساه، إلى أن عاد إليّ من جديد مع صوت أبي وهو يتحدث إلي بعد فراق زاد عن السنة...

وختم أبي حديثه متسائلاً:

- والآن حدثني عما جرى معك منذ أن تركتك آخر مرة..

ورويت له ما وقع لي منذ فراقنا، وحدثته عن السعادة الغامرة التي أعيش فيها هنا بمنزل الشيخ عبد الحميد، ووصفت له المعاملة الطيبة التي ألقاها من جميع من في المنزل..

وابتسم أبي وهو يسألني وكأنه يعرف جواب سؤاله سلفاً:

- لم لم تحاول زيارتنا طوال هذه المدة؟..

فقلت له وأنا أبادله ابتسامته بمثلها:

- كنت أخشى ألا أعود إلى هنا مرة أخرى لو ذهبت مرة واحدة إلى «ديرتنا».. فقد كنت شديد التعلق بكل شيء في القرية.. ولست أريد أن أخالف إرادتك بعد أن جئت بي إلى هنا لكي أعمل..

ومع جملتي الأخيرة تذكرت شيئاً، فنهضت في الحال إلى ركن من أركان غرفتي الصغيرة القائمة في جانب من الحديقة، وفتحت صندوقاً صغيراً، أخرجت منه صرة من القماش ملفوفة بعناية، ووضعت الصرة بين يدي والدي وأنا أقول له:

- خذ هذه يا أبي.. لقد حفظتها لك طوال هذه المدة.. ولم أنقص منها شيئاً..

وفتح أبي الصرة فإذا به يجد كمية من الريالات من مختلف الفئات.. مئات.. خمسينات.. عشرات.. خمسات.. وقطعاً معدنية نقدية أخرى..

ونظر إلى المال الذي بين يديه بدهشة وقال:

– ما هذا؟..

– هذا كل ما جنيته من مال منذ أن بدأت عملي إلى هذه اللحظة.. أعتقد أنه يزيد عن الألف وخمسمائة.. إن الشيخ عبد الحميد رجل كريم.. وزوجته لا تقل كرماً عنه.. إنهما لا يكتفيان بالأجر الشهري الذي يدفعانه لي.. بل هما ينتهزان كل فرصة لإكرامي بشيء..

– بارك الله فيهما.. ولكن هذا.. كثير..

– بل تأخذه كله يا أبي.. فأنا لست بحاجة إلى شيء هنا.. ولسوف أجني أكثر منه إن شاء الله..

– سآخذ قسماً وأدع لك قسماً.. فقد تحتاج إلى شيء..

– لا أظن أنني سأحتاج لشيء.. وليس لي مطالب.. فمأكلي ومشربي ومنامتي وملبسي كلها مؤمنة هنا..

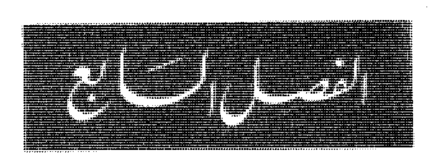
– بارك الله فيك يا ولدي.. بارك الله فيك.. إنك بهذه تنتشلني من مأزق صعب.. بارك الله فيك يا أحمد..

ودس أبي المال في جيبه، وأقبل يعانقني وقد أخذ منه التأثر كل مأخذ:

– لقد أصبحت، يا بني، رجلاً يكسب المال بعرق جبينه..

ومن بعد هذا اللقاء، صار أبي يتردد علي كل بضعة أشهر، فيلقى في بيت مخدومي مثلما ألقاه من عناية ورعاية وترحاب..

وذات يوم ناداني الشيخ عبد الحميد إلى مجلسه..



أشار إليّ الشيخ عبد الحميد أن أجلس قربه ففعلت ، وكانت معالم الجدية المرتسمة على وجهه قد أثارت فيّ نوعاً من القلق ، فأنا أذكر موقفاً مماثلاً سابقاً ، انتهت على أثره علاقتي بمخدومي السابق ، ولكن الظرف يختلف ، في نظري ، الآن .. فمنذ وفاة زوجة مخدومي السابق كنت أتوقع الإستغناء عن خدماتي في موعد وشيك ، أما في حالتي الراهنة فلا شيء ، ولله الحمد ، يجعلني أتوقع ذلك ، بل إن تكرار تلك التجربة لم يخطر لي من قبل على بال ، فماذا يريد الشيخ عبد الحميد مني يا ترى؟.. اللهم اجعله خيراً ..

وأحسست بيد الخوف الفولاذية الباردة تعتصر قلبي وأنا أجلس قرب الشيخ صامتاً ، واجف القلب ، وعيناي معلقتان على شفتيه اللتين لم تنطقا بحرف واحد منذ أن دخلت عليه بناء على طلبه ، فماذا هناك يا ترى؟

وظل الشيخ صامتاً مطرقاً ، الأمر الذي رجحت معه أن ما سوف اسمعه لن يسرني ..

وسمعته ، أخيراً ، يتحدث ..

قال :

- اسمع يا أحمد.. أنت تعلم أنني أعتبرك كأحد أبنائي..

- وإنني لفخور بذلك يا عمي..

- ولهذا استدعيتك الآن.. لأنني أريد منك أن توجه حياتك وجهة صحيحة..

- إنني لا أشكو من شيء.. وأعتقد أنني أسير في الطريق الصحيح.. بفضل الله تعالى ثم بفضل عطفك ورعايتك..

- استمع إلي يا بني ولا تقاطعني.. فأنا لم أنادك الآن كي نتبادل عبارات المجاملة..

فالتزمت الصمت وقد عجزت تماماً عن استكناه الغاية التي استدعاني الشيخ من أجلها.. وقلت في نفسي أنه لو أراد أن يطردني من العمل، أو أن يزجي إلي بأي نبأ سيء، لما خاطبني بهذه اللهجة الودية الحانية..

ثم.. ما تكون تلك الوجهة التي يريدني أن أوجه حياتي إليها؟.. إنني - هنا - على أفضل ما يرام..

وقطع الشيخ عبد الحميد عليّ أفكاري حين تناول من جانبه ورقة مطوية، دفع بها إليّ وهو يقول لي بهدوء تام:

- اقرأ لي هذه الورقة.. إذا سمحت..

فتناولت الورقة بيد مرتجفة، ورحت أجيل بصري الزائغ بين سطورها متسائلاً عن الغاية التي يرمي إليها الشيخ وهو يعلم تمام العلم أنني لا أعرف القراءة ولا الكتابة.. أفتراه كان يسخر مني حين أعطاني هذه الورقة وطلب إليّ أن أقرأها؟..

ورحت أحدق في الورقة وقد غمرني خجل شديد، إذ لم تكن بالنسبة لي أكثر من خطوط وأشكال ونقاط لا أكاد أعرف منها شيئاً..

ووضعت الورقة في حجري وأطرقت في خجل قائلاً:

– إنني .. إنني لا أعرف القراءة .. ولكنني أستطيع قراءة جانب من القرآن الكريم ..

– إنك تعرف أن تقرأ بعض آياته .. وأنا واثق من أنك تعتمد في ذلك على ذاكرتك أكثر مما تعتمد على ما تعرف من الحروف .. هل هذا صحيح أم لا ؟ ..

وهمست والخجل يكاد يقتلني :

– نعم .. صحيح ..

وبينما كان يتأملني صامتاً ، رحت أحدث نفسي ساخطاً : «كيف فاتني هذا الأمر؟ .. كيف لم أحاول تعلم القراءة والكتابة طوال هذه المدة ؟ .. لماذا لم أطلب من أحد ، من عزيزة مثلاً ، أن تعلمني ولو حرفاً واحداً في اليوم؟ .. بل في الأسبوع .. بل في الشهر ، . إذن لكنت قطعت شوطاً يقيني مذلة هذا الموقف المخجل ... » ..

وانتبهت من أفكاري الساخطة على صوت الشيخ وهو يقول لي باسماً :

– أرأيت ؟ .. إنني على حق ...

وهمست وأنا لا أزال على إطراقي :

– أجل يا عمي ...

– إذن .. فاعلم ، يا بني أنني استدعيتك كي أطلب إليك أن تبدأ مرحلة جديدة من حياتك .. فتتلقى العلم أسوة بمن هم في مثل سنك ...

– أتلقى العلم ؟ .. كيف السبيل إلى ذلك ؟ .. إنني كما تعلم يا عمي ..

وقاطعني الشيخ بسرعة قائلاً :

– أعرف .. أعرف .. إنك مشغول بعملك في النهار .. ولكن هناك مدارس ليلية تستطيع الإلتحاق بإحداها .. وهي إنما افتتحت من أجل أمثالك ممن لا يستطيعون الدراسة في النهار ..

وركض قلبي بين ضلوعي فرحاً ، فالشيخ – جزاه الله كل خير – قد درس مشكلتي ، ووجد لها حلاً .

ورحت أواصل الإصغاء إليه :

- سوف أساعدك على الإلتحاق بإحدى المدارس الليلية القريبة ، لأنني أريدك أن تتزود بسلاح العلم فليس معقولاً أن تظل طول حياتك خادماً في المنازل .. وإنني لأصارحك بأنني أعتبر أن من العار علي ، أنا شخصياً ، أن يوجد في داري إنسان جاهل وأنا رجل علم .. فكيف أقوم بالتدريس في المسجد الحرام وبجانبي إنسان يهمني أمره لم يدخل إلى قلبه ، بعد ، نور العلم؟ .. هذا لا يجوز ..

- صدقت يا سيدي ..

- إنني أريد أن أعلمك .. وأن أكسب بذلك عند الله أجراً ..

ومع أن كلام الشيخ قد صادف هوى في نفسي ، إلا أنني وجدتني أقول دون انتباه :

- ولكن .. ألا يجب أن استأذن أبي أولاً؟ ..

وابتسم الشيخ وهو يجيب :

- بلا شك : وهذا شيء طيب منك .. ولكنني واثق من أن والدك لن يمانع ..

ونهضت من جلستي ، واستأذنت الشيخ في الذهاب ، حيث انزويت في غرفتي أفكر ، كالمذهول ، فيما قاله لي ، وما أعده ، هذا الرجل الطيب ..

والحق أن كلام الشيخ عبد الحميد ، وتفكيره بشأني إلى هذا الحد ، والنصيحة التي وجهها إلي ، كل ذلك قد فتح عيني على حقائق كانت غائبة عن بالي ، وكان حرياً بي أن أتذكرها ...

فمن جهة ، خالجني شعور بالخجل ، إن لم أقل بالخزي ، عندما اكتشفت أنني لم أتطلع قط إلى المستقبل وأنني ، كما قال الشيخ ، كنت أتصرف كما لو كنت أنوي البقاء طول حياتي خادماً ..

ومن جهة أخرى ، تأثرت كثيراً للمدى الذي بلغه الشيخ عبد الحميد في الرغبة

بمساعدتي ، وتعبيد طريق الحياة لي ، فهو على مشاغله وأموره الخاصة ، قد فكر فيّ وفي أمري مع أنني لم أزد عن أن أكون «صبياً» في بيته ، وهيأ لي الأسباب لكي أتقدم في الحياة ، وأن أصبو إلى عريض الآمال..

والواقع أن الحياة قد علمتني ، بعد ذلك ، أن أقيس الرجال بهذا المقياس ، وهذا المقياس بالذات ، ذلك أنه كلما اهتم الإنسان الكبير بمن هو أصغر منه وانشغل بأمور هذا «الصغير» على بساطتها وتفاهتها بالنسبة له ، دل ذلك على سمو نفسه ، وعظمة روحه ، ولعل هذا هو السبب في أننا نتأثر للتصرفات الإنسانية البسيطة التي نراها ، أو نقرأ عنها ، لعظماء الرجال ، فالرجل الكبير يستطيع - إذا كان كبيراً حقاً - أن يجد من وقته وتفكيره وجهده متسعاً يعنى فيه بأمور من هم أدنى منه وأحوج إلى عونه ومساعدته..

وقطع عليّ استرسالي في تفكيري بهذا الإتجاه ، خيال عزيزة التي أحببتها بكل ما في سني الاحدى عشرة من براءة وبساطة ، والتي بادلتني هذه المحبة - ولا أقول الحب طبعاً - بمثلها ، ولقد تبينت فيما بعد أن هذا التعلق المتبادل بيني وبين عزيزة ، وإن بدا إذ ذاك ظاهرة صبيانية لا تستحق أدنى اهتمام من أحد ، فإنها كانت ، في الحقيقة ، تحفر في نفسينا آثارها العميقة لدرجة جعلتني أقول في نفسي ضاحكاً أن هذه الألفة والمحبة في الصغر هما كالنقش في الحجر...

عزيزة ؟..

وماذا عن عزيزة ؟..

وكيف غاب عن بالي أنه لا يمكنني أن أرفع نظري إليها ، عندما يجد الجد ، لأنني لست سوى صبي في بيت أبيها ، بل وصبي جاهل لا يعرف القراءة والكتابة ولم يتعلم سوى نزر يسير جداً على يد شيخ المسجد في القرية ، وهو تعليم لم يتعد قراءة سور القرآن الكريم القصيرة ، اعتماداً على الذاكرة أكثر مما هو معرفة فعلية بأشكال الحروف وأسمائها ؟..

ومع أنه لم يكن في ذهني شيء معين بالنسبة لمستقبل علاقتي بعزيزة ، إلا أنني أدركت ما

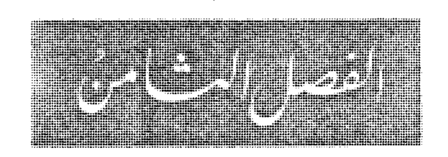
يمكن أن يغير العلم والتعليم من وضعي ، وما يمكن أن يفتحا لي من آفاق ، وان ذلك هو أقل ما يجب أن أعنى به إذا أردت – حقاً – أن أكون جديراً بأن أنظر إليها ، وأن أحلم ، ولو مجرد حلم ، بطيفها وذكراها . . .

ولا أطيل . .

فقد وافق أبي بحماسة على فكرة الشيخ عبد الحميد ، وقام الشيخ بكل الإجراءات اللازمة لالتحاقي بالمدرسة الليلية . .

ولم يكن لأهل البيت من حديث ، إذ ذاك ، سوى عن هذا الحدث الهام بالنسبة لي ولهم . . .





كنت أصغر طالب في الفصل الذي التحقت به في المدرسة الليلية..

وبدا لي المشهد غريباً وأنا أدخل إلى الفصل خائفاً..

كان هناك حوالي خمسة عشر رجلاً، تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعشرين والخامسة والستين، وقد وضعوا على مقاعد الفصل حسب أعمارهم.

كان فيهم الفتى الذي في مطلع العمر، والعجوز ذو اللحية البيضاء الذي يدلف إلى الشيخوخة وقد جمعتهم، كلهم، الرغبة في طلب العلم، بعد أن أتيحت لهم الفرصة..

ورحت أتأمل زملائي في الفصل، ولفت انتباهي رجل متقدم في السن، كان يبدي همة ونشاطاً في التجاوب مع المدرس، والرد على أسئلته، أو الكتابة على اللوح الأسود بصعوبة – ولكن بإصرار وعزيمة – بصورة جعلتني أكبر هذا الرجل – واسمه عم محمود – إكباراً عظيماً واتخذ منه قدوة ومثالاً ألهبا إرادتي للعمل والجهد والمثابرة.، فإذا كان هذا الرجل الذي تبدو المسافة بينه وبين آخر العمر ليست طويلة، مع التسليم بأن الأعمار بيد الله

بطبيعة الحال ، فماذا يكون من شأني أنا الغلام الذي لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر؟..

وتذكرت جملة كثيراً ما كان الشيخ عبد الحميد يرددها وهو يهز رأسه : «إن الشباب هو شباب الروح لا شباب الجسد».

وهكذا أقدمت بعزيمة قوية على مواجهة الحياة ، عبر المدرسة والعمل معاً ، وكان الشيخ عبد الحميد يتابع تقدمي في الدراسة متابعة جادة وكأنني أحد أبنائه..

وكانت عزيزة لا تقل اهتماماً بذلك عن أبيها ، فكانت تحرص على أن تعلم مني عما تعلمت كل يوم وتضحك من أخطائي ، وتصححها لي ، وتحثني على مواصلة الجهد والدأب...

ومرت الأيام...

ورحت أقطع المراحل الدراسية بسرعة عظيمة ، بحيث تمكنت من تعويض ما فاتني بالنسبة لمن هم في مثل سني ، فحصلت على الشهادة الإبتدائية في ثلاث سنوات ، وبذلك لحقت بمن سبقوني ، وكانت الفرحة في البيت – بيت الشيخ عبد الحميد – تفوق الوصف يوم أعلنت النتائج وتبين أنني ، ولله الحمد ، قد نلت الشهادة الأولى..

وقبل أن أفكر في المرحلة التالية كان الشيخ عبد الحميد – كالعادة – أسبق مني إلى التفكير..

فقد استدعاني بعد أيام من إعلان النتيجة وقال لي :

– اسمع يا أحمد.. لقد اختلف وضعك الآن كثيراً عما كان عليه قبلاً.. وأظنك تدرك ذلك..

فقلت بسذاجة وأنا لا أعلم ما كان يعني بكلامه :

– طبعاً يا عمي.. فأنا الآن صرت قادراً على القراءة والكتابة والحساب..

وابتسم الشيخ في عطف وهو يقول :

– ليس هذا ما عنيته يا بني ... وإنما أتكلم عن المرحلة التالية..

– المرحلة التالية؟..

– أجل.. المرحلة الثانوية..

– المرحلة الثانوية؟.. تساءلت بدهشة..

– أجل .. أم لعلك لا تنوي مواصلة الدراسة؟..

– كيف يا عمي؟.. طبعاً أنا أتمنى أن أواصل الدراسة.. أتمنى ذلك من صميم قلبي.. ولكن المشكلة أن الدراسة الثانوية تحتاج إلى..

– تحتاج إلى تفرغ أكثر.. أليس هذا ما تريد أن تقوله؟..

– نعم..

– وهذا ما أردت أن أحادثك فيه..

– أطال الله عمرك يا سيدي.. فلقد غمرتني بفضلك وعطفك..

– استغفر الله.. هذا واجب آمل له الجزاء عند الله..

وصمت الشيخ هنيهة ثم استطرد بنفس اللهجة الحانية:

– منذ الآن سوف تدرس في النهار وتعمل في الليل..

فقلت بدهشة:

– وكيف أستطيع ذلك يا عمي؟.. إن عمتي تحتاج إلي في النهار.. فأنت تذهب إلى عملك.. وعمتي عزيزة إلى مدرستها.. و..

فقاطعني باسماً:

– لا عليك من عمتك.. لقد تدبرت الأمر.. منذ الآن سوف تأتي «دادة جمعة» لتعمل عندنا في النهار وتبقى في البيت صباحاً بينما تذهب أنت إلى مدرستك...

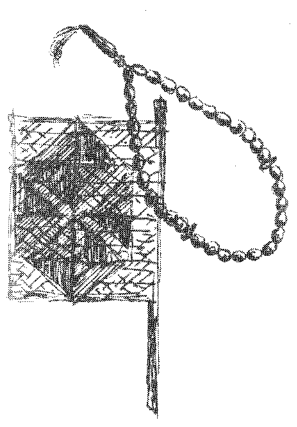
– دادة جمعة؟.. ومن هي دادة جمعة هذه؟..

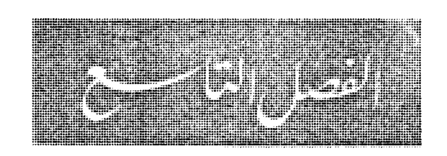
– إنها سيدة كانت من قبل مملوكة ثم أكرمها الله فأعتقت.. ولكنها ما تزال تعمل.. وهي تعرفنا جيداً وتحب عمتك كثيراً.. هل رأيت كيف تدبرت الأمر وهيأته على أفضل وجه؟...

ولم يكن بوسعي أن أجيب بشيء، فلقد وجدتني عاجزاً عن التعبير لهذا الرجل الطيب عما أشعر به تجاه ما غمرني به من أفضال.. ولقد رأيته يكبر في عيني أكثر فأكثر، وأعجبني أسلوبه الحاسم في تدبير الأمور، فما تكاد تخطر بباله فكرة حتى تراه يحيط بها من كل جوانبها، ويتخذ لها ما يلزم من إجراءات، حتى إذا عرضها بعد ذلك، جاءت محكمة وشاملة.

وهكذا جاءت دادة جمعة، فكانت موضع محبة الجميع في البيت، وتعلقت بها أنا أكثر من سواي، إذ كان وجودها يعني إيجاد المجال لي كي أتفرغ للدراسة أكثر من ذى قبل، فضلاً عن أنها كانت تحنو عليّ، وتهتم بشئوني بصورة لا يجدها الإنسان إلا في كنف أمه.

وشرعت أنا – بكل ما آتاني الله به من قوة – في دراستي الثانوية وأنا أضع نصب عيني أن أكون عند حسن الظن بي، إذ كنت حريصاً، أيضاً، على أن أرتفع بمستواي، وأرضي الطموح الذي بثه الشيخ عبد الحميد في نفسي، كما أن عزيزة لم تكن كذلك بعيدة عن هذا الطموح...





عزيزة؟ . . .

ومن أكون أنا حتى أتطلع إلى عزيزة؟.. عمتي الصغيرة.. وابنة سيدي؟..

الحق أن العزيمة التي بثتها فيّ عاطفتي الغامضة نحو عزيزة ، لم تكن تصل إلى حد أن أتخيل – أو أجرؤ على التخيل – بأن من الممكن أن تكون من نصيبي يوماً من الأيام..

كنت أشعر بأن عليّ أن أكون شيئاً ما ، ولكن ليس إلى درجة أن أصبح زوجاً لعزيزة ، وأن تصبح عزيزة زوجة لي ، فما أنا – أولاً وآخراً – إلا صبي... خادم...

إنني اليد السفلى في هذا المنزل..

اليد التي تتلقى العطاء من اليد العليا التي هي يد عمي الشيخ عبد الحميد ، وعمتي الكبيرة ، وعمتي الصغيرة...

أجل.. إنني اليد السفلى ، مهما فعلت ، ومهما تقدمت في مضمار الحياة ، وعليّ ألا أتطلع بأية حال من الأحوال إلى أعلى من مستوى هذه اليد...

ومع أن عاطفتي نحو عزيزة ، كانت عاطفة بريئة وطاهرة ، فإنني حدثت نفسي بأن مجرد تفكيري بها يعتبر خطأ كبيراً في حق الناس الذين آووني ، وعلموني ، وأكرموني ، وأن علي أن أحرص على كرامة هذه العائلة فلا أمسها ، ولا أجعل أحداً منهم يشعر ، أو يكتشف . بأنني أفكر في عزيزة بصورة تختلف عن تفكير ذي اليد السفلى أمام « عمته » ذات اليد العليا .

صحيح ، قلت لنفسي وأنا أسترسل في أفكاري ، أن القوم جميعاً في هذا المنزل قد حرصوا على معاملتي معاملة الند للند ، وإشعاري بأنني واحد منهم ، فالناس لم تعتد على تناول الطعام مع خدمها ، أما عمي وعمتي فما كانا يبدآن في تناول الطعام إذا لم أحضر وأتناوله معهم ، ولقد كان هذا شأنهم معي منذ أول يوم حضرت فيه إلى المنزل . .

صحيح أن الشيخ عبد الحميد وزوجته كانا ينظران إليّ كما ينظران إلى عزيزة تماماً ، وأنهما لم يفرقا في المعاملة بيني وبينها . .

كل هذا ، قلت لنفسي ، صحيح . . ولكنه لا يعني أن أتجاوز حدود يدي السفلى ، وأن أرقى بمشاعري إلى حد يرتفع عن تلك الحدود ليصل إلى مستوى الأمل في الزواج من عزيزة . .

وبنفس الإرادة الماضية التي كنت أواصل بها دراستي الثانوية ، عملت على قهر مشاعري ، وكبت أحاسيسي والحرص على مكانة عزيزة من أن تنالها مني نظرة واحدة غير لائقة ، أو أن يشعر أحد بما يعتلج في صدري من عواطف نحوها . . .

وهكذا باتت محاولة كبت مشاعري جزءاً من صراعي اليومي مع الحياة ، عبر الدراسة والعمل ، لدرجة صرت أشعر معها بالإرتباك عندما تنظر إليّ ، إذ كنت أحول بصري عنها في الحال ، وكانت ، هي ، تلاحظ ذلك فتبتسم ابتسامة بريئة ، فهي ، بطهارتها وعفتها ، لم تكن تفهم معنى ارتباكي ، وتفسره تفسيراً عادياً فتعزوه إلى إرهاقي في الدراسة والمراجعة .

وأقول الحق ، أن نظراتها مع ما كانت تحدثه بي من ارتباك ، كانت نظرات عادية ، ولم

أشعر قط بأن في قلبها نحوي ولو بعض ما في قلبي نحوها ، وإن كنت ألاحظ اهتمامها الزائد بأمر دراستي وحرصها على تشجيعي ، واستنهاض همتي ، بل لقد كانت تعيرني بعض الكتب التي لديها والتي سبق أن درست بها .

وهكذا سارت حياتي بين الدراسة والعمل من جهة ، والصراع المستمر لكبت عواطفي نحو تلك الفتاة التي استولت ، برغمي ، على قلبي . . .

* * *

وانتهيت من المرحلة الثانوية . .

ويومها جئت فرحاً إلى المنزل ، أزف البشرى إلى عمي الشيخ عبد الحميد وأبلغه بأنني قد انتهيت من الإمتحانات وأنني آمل في النجاح بإذن الله .

وكعادتنا كل صيف كنا ، في نفس الفترة ، نستعد للإنتقال إلى الطائف لقضاء هذا الفصل فيها . .

وبعد أن استكملنا استعداداتنا ، وضعت الحقائب في السيارة ، وتولى الشيخ عبد الحميد القيادة ، بينما جلست السيدة وسط المقعد الخلفي وجلست أنا على يسارها ، وجلست عزيزة إلى يمينها . .
وراحت السيارة تقطع الطريق بنا من مكة إلى الطائف ، وقد ساد الصمت وخلا كل منا إلى أفكاره الخاصة ، بينما كان راديو السيارة مفتوحاً دون أن يلقي أحد إليه بالاً . .

وفجأة أعلن المذيع بأن نتائج الثانوية العامة سوف تعلن بعد قليل ، فانتبهنا جميعاً على الفور ، وتصلب جسمي في اهتمام زائد بدا على وجهي الذي اكتسى شحوباً مفاجئاً ، وتبادلنا جميعاً نظرات تدل على ما أحدثت كلمات المذيع في نفوسنا من توتر وقلق . .

وقال الشيخ عبد الحميد دون أن يدير وجهه وهو يركز انتباهه على الطريق مستديراً عند



أحد المنعطفات :

– هه يا عم أحمد.. سنرى الآن النتيجة..

وتمتمت السيدة بحرارة مؤثرة :

– ناجح بإذن الله،. ناجح..

أما عزيزة فقد ألقت عليّ نظرة باسمة، فلاحظت شحوبي وقلقي وقالت في هدوء :

– اطمئن يا خواف.. ما دمت قد درست جيداً كما رأيناك، وأديت الامتحان بشكل مناسب فلماذا يبدو عليك القلق؟..

ولم أجب، بل بلعت ريقي بصوت مسموع دل على ما كنت أشعر به من جزع وقلق..

وراح المذيع يقرأ الأسماء وكلنا آذان صاغية..

وكلما ذكر المذيع اسم «أحمد» تنبهنا جميعاً، وقفز قلبي إلى حلقي، ثم نسترخي عندما يتبين أنه ليس اسمي..

وصمت المذيع.. وطال صمته كما خيل إلي، فشعرت بيأس قاتل يجتاحني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وعدنا نتبادل النظرات، وبدت عزيزة وكأنها تشاركني يأسي، إذ بات مؤكداً أنني لم أنجح، وأن الآمال العراض التي كانت تملأ عليّ نفسي قد ضاعت وتلاشت..

ولم يتكلم أحد منا، ولكن صمتنا الآسف كان أبلغ من كل كلام..

وقبل أن أسترسل، كعادتي، في أفكاري سمعنا صوت مذيع آخر يتكلم :

– «نستأنف الآن إذاعة بقية نتائج امتحانات الثانوية العامة»..

فتنهد عمي بارتياح وقال ضاحكاً وهو يوجه كلامه إلى المذيع :

– روح يا شيخ.. الله يسامحك.. نشفت دمنا..

وهزت السيدة رأسها وقالت :

– إي والله.. نشّف دمنا.. حسبت أن تلك الأسماء هي كل ما لديهم من الناجحين..

وقالت عزيزة ضاحكة :

– هل نسيتم أن المذيعين يتعاقبون على قراءة المواد الطويلة؟..

وقال الشيخ ولهجته كلها أمل ورجاء :

– على الله.. على الله يا ابنتي...

ولم أعلق ، أنا ، بحرف واحد.. فقد كانت الهزة التي انتابتني بسبب عدم إذاعة اسمي قد جعلتني في حالة من اليأس لم أعد أهتم معها بمتابعة الاستماع إلى بقية الأسماء..

وراح المذيع يقرأ الأسماء.. عشرات الأسماء وليس بينها جميعاً ، اسم «أحمد بن عيضة» الذي هو أنا..

وتمنيت أن أصرخ ، وأن ارجو الشيخ عبد الحميد أن يقفل الراديو ، فما عادت لدي أعصاب تحتمل أن أسمع اسم «أحمد» متبوعاً باسم غير اسم أبي ، فلقد بت على يقين من أنني قد خسرت الجولة وخيبت الآمال..

– أحمد بن عيضة..

هكذا قال المذيع ببساطة وهو يتابع قراءة الأسماء ، غير عالم بالدوي الذي أحدثته كلماته في سيارتنا التي كانت تواصل سيرها في طريقها إلى الطائف...

– هيه..

صرخت أنا دون وعي وأردفت بحماسة وفرح شديدين :

– الله أكبر.. هذا اسمي.. هذا اسمي..

وضحك الجميع ، وحلت السعادة الشاملة محل اليأس القاتل الذي خيم عليّ ، والوجوم الشامل الذي ساد السيارة..

وتطايرت عبارات التهنئة داخل السيارة:

- مبروك يا احمد..

- مبروك يا ولدي..

- مبروك يا أحمد.. ألف مبروك..

كانت عزيزة هي التي نطقت بالجملة الأخيرة. وفرحة صادقة تطل من عينيها الجميلتين، وبدون شعور أمسكت رأس الشيخ عبد الحميد وهو يقود السيارة ورحت أقبله، وضمتني عمي إلى صدرها تقبل رأسي بحنان الأم الرؤوم، ثم تناولت يدي عزيزة بيدي وضغطت عليهما في حرارة، ثم انتبهت لموقفي فسحبت يديّ في الحال وأنا أشعر بالحجل الشديد، وأؤنب نفسي على المدى الذي ذهبت إليه في التعبير عن فرحي، وحمدت الله على أن المسألة وقفت عند هذا الحد..

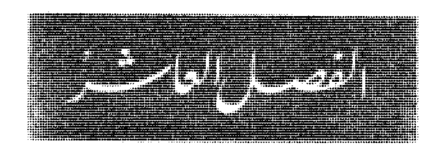
وكان وجه عزيزة قد تضرج بحمرة شديدة، فأطرقت في خجل، إذ لم يحدث قبلاً أن أمسكتها من يديها بتلك الطريقة، وشعرت بالخور يدب في جسمي كله، والحجل يلفني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.. أما السيدة، التي رأت ما حدث، فلم تعلق بشيء، ورحت أحاول استشفاف رأيها أو موقفها من ذلك، ولكنها، على ما بدا لي، قد أخذت الأمر مأخذاً عادياً..

ولاحظت عزيزة ما اعتراني من ارتباك شديد فمدت يدها، عبر والدتها، وتناولت يدي الباردة بيدها وضغطت عليها بعطف وهي تهمس:

- مبروك يا أحمد .. مرة أخرى.. ألف مبروك..

وحاولت أن أرد، ولكن الكلمات اختنقت في حلقي، وبقيت صامتاً طوال ما تبقى من الطريق ..

ولم أفهم كلمة واحدة من الحديث الذي كان يدور بينهم تعليقاً على نجاحي، إلى أن وصلنا إلى منزلنا في الطائف، فحططنا رحالنا وبدأنا موسمنا الصيفي...



الفصل العاشر

تلك الليلة لم يغمض لي جفن...

بقيت مفتوح العينين، مستلقياً، وواضعاً ذراعيّ تحت رأسي، أحدق في القمر الذي كان نوره يضيء سواد الليل بلونه الفضي على سطح المنزل..

ومع أنه كان مفروضاً فيّ ألا أنام في ليلة كهذه الليلة التي كلل الله تعالى فيها جهودي بالنجاح، ووضعني على عتبة مرحلة جديدة من حياتي، إلا أن النجاح، والثانوية العامة، وصورة المستقبل، وتهاويل أحلام الطموح والارتقاء.. كل ذلك لم يخطر ببالي على الإطلاق وأنا في استلقاءتي الجامدة تلك على سطح المنزل وعيناي لا تحيدان عن القمر الذي اكتمل - تلك الليلة - بدراً...

كان تفكيري كله يدور حول عزيزة، وحول ما حدث اليوم في السيارة، وكيف جرؤت على أن أمسك يديها بكلتا يديّ وأن أضغط عليهما، وأن أنسى الفوارق الجسيمة التي بيننا..

هل جننت حتى فعلت ذلك؟..

هل فقدت عقلي حتى تصرفت بتلك الطريقة في غمرة تبادل التهاني؟..

كيف تجاسرت على ذلك؟.. كيف؟..

كيف تطاولت ومددت يدي السفلى إلى يدها العليا في حركة لا تتم إلا بين الأنداد؟..

أنا يد سفلى.. أنا يد سفلى.. أنا يد سفلى..

هكذا ضجت العبارة في داخلي عندما وصلت بأفكاري إلى هذا الحد، وبلغ من قوة الضجيج أن خشيت أن تسمع المدينة الهاجعة كلها صداه.. فرفعت رأسي بحذر، وتلفت يميناً ويساراً، ثم عدت أعقد ذراعيّ تحت رأسي وألقيه عليهما بشيء من الإرتياح، فالصمت يسود المكان كله، ولا يقطعه سوى صرير صرصار هنا.. أو نقيق ضفدعة هناك.. وغير ذلك من الأصوات التي تشكل، عادة، سيمفونية الصيف في المناطق الصيفية، وترتبط بعد ذلك بهذه الأصوات في ذاكرتنا طوال حياتنا...

وعدت إلى أفكاري..

لقد بذلت جهدي بعد أن دخلنا المنزل لكي أنفرد بعزيزة وأعتذر لها، وأوضح لها بأن ما جرى قد كان سهواً، كان «غلطة» أملتها الفرحة المفاجئة، وأنني لا أفكر أبداً في أن أتجاوز حدي أمام فتاة مثلها، ذات يد عليا.

وتمكنت من الإنفراد بها، وأنا أحمل حقائبها لأضعها في غرفتها، وكانت هي تسير ورائي، وبعد أن وضعت الحقائب حيث أشارت اتجهت نحو الباب ثم توقفت، فنظرت عزيزة إليّ بدهشة وكأنها تتعجب لهذا التوقف، ولكن نظرتها كانت عادية، بريئة، لا تحمل أي غضب أو نفور:

– هه.. خيراً؟.. ايش فيه؟..

وأطرقت بلا جواب...

- أحمد.. بك شيء؟.. حاسس بحاجة؟.. تكلم..

قالت ذلك في قلق واضح، وكأنها حسبت أنني مريض أو أن بي شيئاً يستدعي القلق..

- لا .. ما في شيء يا عمتي.. الحمد لله.. ولكن..

- هه.. لكن ايش؟..

واقتربت قليلاً وأنا أشعر بأن أذني قد التهبتا بدماء الخجل التي تصاعدت إلى وجهي بقوة، وقلت وأنا أنظر إلى الأرض:

- فقط.. أردت.. أردت.. أن أعتذر..

- تعتذر؟.. عن ايش؟..

- عن.. عن الذي حدث اليوم..

- وماذا حدث اليوم؟..

ونظرت إليها بدهشة شديدة، وقلت بارتباك:

- إنني أعني.. ما حدث.. في السيارة.. لقد أمسكت يديك.. و..

- آه.. فهمت.. يا شيخ فجعتني.. الله يلعن الشيطان.. افتكرت حاجة ثانية..

ومضت تقهقه في جذل طفولي رائع، أزاح عني الأثقال التي كنت أرزح، في خاطري، تحتها..

وأردفت أقول بحرارة وكأنني أدافع عن نفسي:

- والله العظيم يا عمتي لم أكن أقصد شيئاً.. والله العظيم.. كل ما في الأمر أنني شعرت...

فابتسمت عزيزة وقاطعتني قائلة:

- وايش صار؟.. ايش صار يعني؟.. لا عليك يا أحمد.. إنما الأعمال بالنيات كما

تعلم ، . وإن لكل امرىء ما نوى . . كده والا لأ ؟ . . إنني أحس بمشاعرك الأخوية نحوي يا أحمد . . فلا يهم لشيء . .

مشاعري الأخوية ؟ . .

كان هذا هو مدار خواطري وأفكاري ، وأنا أستعيد ما حدث ، ثم ذلك الحديث الذي دار بيني وبين عزيزة . .

لقد كانت كريمة ، كعادتها ، بريئة كشأنها ، فهي قد أخذت حركتي العفوية تلك مأخذاً عادياً ولم تفسرها بأكثر من أنها صادرة عن مشاعر أخوية . .

وكان حرياً بي أن أشعر بالارتياح ، لأن سري الكبير – وهو حبي العميق لعزيزة – ما زال في أعماق صدري لم يطلع عليه أحد ، ولكنني شعرت – على العكس – بالإنزعاج والقلق . .

إذن ، قلت لنفسي ، إن مشاعرها نحوي هي مجرد مشاعر أخوية . . وأنا . . أنا الذي أحبها بكل جارحة من كيانه ، لست عندها في أحسن الأحوال أكثر من أخ ، بيما ينطوي صدري على حب عظيم أكتمه بقوة حتى إنني أخشى على هذا الصدر من أن ينفجر ويفضح هذا الحب . . .

إذن . . فأنا اليد السفلى ، واليد العليا التي أحبها ذلك الحب ، لا تعتبر عاطفتي نحوها ، ولا عاطفتها نحوي ، أكثر من جزء من مظاهر الرعاية والعطف التي تجود بها على يدي السفلى . .

هل هذا هو كل شيء ؟ . .

يا لتعاستي ، إذن ، ويا لشقائي ، فإن عليّ أن أتوقف . . أن أتراجع . . أن أعرف حدودي كيد سفلى وأتصرف ضمنها ، خوفاً من أن يبدر مني شيء آخر يفضح ما يلتهب في قلبي من مشاعر . .

وتقلبت على جنبي ، أحاول النوم ، بعد أن وصلت في خواطري إلى هذا الحد ، لولا أن انطلقت في تلك اللحظة أصوات المؤذنين في مساجد الطائف ، تدعو الناس إلى صلاة الفجر بأصوات شجية ، فجرت الدموع في عيني ، فتركتها تسيل على صفحة وجهي من غير أن أمنعها . .

لقد كان قلبي يبكي تأثراً ، وألماً ، وعجزاً ، وكانت الدموع الصامتة هي الدليل الوحيد على ذلك البكاء ، وأنا أواصل تحديقي في القمر ، وقد باتت تحجبه عن ناظري سحابة من الدموع . . .

* * *

كان من بين واجباتي ، بعد أن استقر بنا المقام في الطائف ، أن أعد في ركن من الحديقة ما يلزم لكي يستقبل الشيخ عبد الحميد ضيوفه ، وكانوا من كبار الموظفين والأعيان ، بعضهم ممن يقيم في المدينة على مدار العام ، وبعضهم كانوا من المصطافين مثله . .

وكان عليّ أن أسهر على راحة الضيوف ، فأعد لهم الشيشة والشاهي ، وأقدم لهم الفواكه والحلويات وألبي طلباتهم ، حتى بات أكثرهم يعرفني معرفة جيدة ، ويعاملني بمثل اللطف الذي يعاملني به الشيخ عبد الحميد.

وكنت موضوع أحاديثهم أكثر من مرة . .

فقد حدثهم الشيخ عني ، وعما سماه روحي العالية ، وهمتي العظيمة ، وروى لهم كيف نجحت في دراستي وحصلت على ثلاث شهادات خلال مدة قصيرة ، مما يدل – كما قال – على نبوغي واستعدادي الفطري لتلقي العلم.

وما يكاد الشيخ عبد الحميد يصل إلى هذا الجزء من حديثه عني ، حتى يلتفت إليّ الضيوف مهنئين ، متمنين لي مزيداً من التوفيق والنجاح ، فأرد عليهم بحمدالله الذي وفقني ، وجعلني في كنف الشيخ عبد الحميد ، الذي يعود إليه ، من بعد الله تعالى ، الفضل فيما حققت من نجاح.

وذات يوم تحدث الأستاذ عبد الرزاق ، وهو من كبار رجال التعليم ، فخاطب عمي قائلاً :

– أعتقد ، يا أخ عبد الحميد ، أنك توافقني على أن من بدأ شيئاً يجب أن يكمله..

وتساءل عمي مستغرباً :

– ماذا تعني يا أستاذ عبد الرزاق؟..

– أعني هذا الشاب.. فالله تعالى قد وفقك إلى الوصول به إلى هذه المرحلة من التعليم ، وأعتقد أن من الضروري أن تكمل به المشوار..

– أكمل به المشوار؟..

– أجل.. لماذا لا تدفع به إلى الجامعة؟..

الجامعة؟..

رنت الكلمة في أذني بدوي هائل كاد أن يدور له رأسي..

أنا.. أحمد بن عيضة.. الصبي.. اليد السفلى.. أدخل الجامعة؟..

وكيف أصل إلى الجامعة وأنا لا أملك من حطام الدنيا شيئاً؟.. ولم تكن توجد في بلادي ، إذ ذاك ، هذه النهضة الجامعية العظيمة التي يتفيأ ظلالها أبناء الأجيال التي تلت جيلي..

لم تكن هناك جامعات – كما هو الحال اليوم – تنتشر في طول البلاد وعرضها بصورة تهيىء أرفع مستويات التعليم لمن شاء من المواطنين ودون أن يكلفه ذلك « هللة » واحدة..

في أيامي أنا ، هذه التي أروي قصتها ، كان التعليم الجامعي الذي يستطيع الشباب السعوديون الحصول عليه إنما يتم في الخارج.. مصر غالباً.. وكان هذا يتكلف مصاريف باهظة لمن يريد التعلم على نفقته أما البعثات الحكومية ، فكانت محدودة ، إذ ذاك ، بحكم ضآلة موارد البلاد وكثرة التزاماتها..

الجامعة؟..

وكيف أدخل الجامعة وأنا الذي يرسل راتبه بأكمله إلى أهله في القرية ، يستعينون به على تكاليف الحياة؟..

لا.. لا.. الأستاذ عبد الرزاق يحلم بلا شك.. أو لعله يمزح.. لأن ما بيني وبين أبواب الجامعة من المسافة لهو – في نظري – مثل ما بين السماء والأرض..

ولشد ما دهشت حين جاءني صوت الشيخ عبد الحميد مجيباً الأستاذ على اقتراحه :

– صدقني يا عبد الرزاق إنني أفكر في نفس ما تفكر فيه.. وما تفضلت به.. ولكن فيك البركة.. فإذا تكرمت بمساعدة أحمد في الحصول على بعثة ، فإنني من جهتي أساهم بما يوفقني الله به من ناحية تجهيزه وإعداده للإبتعاث ، ولكن الدراسة – كما تعرف – لا تتم إلا عن طريقكم..

ودق قلبي دقاً عنيفاً ، وأنا أسمع القوم يتحدثون عن موضوع ابتعاثي للدراسة الجامعية وكأنه قضيتهم الخاصة ، فإذا بهم – جميعاً – يؤيدون الفكرة ، ويتفقون في الرأي مع الشيخ عبد الحميد على أن تأمين الإبتعاث لي هو من مسئولية الأستاذ عبد الرزاق الذي طرح الفكرة..

وقال أحد الحاضرين مخاطباً الأستاذ عبد الرزاق :

– صحيح يا أستاذ عبد الرزاق.. على يدك إن شاء الله..

وضحك الأستاذ عبد الرزاق وهو يقول :

– بإذن الله.. بإذن الله.. اسمع يا أحمد.. عليك أن تأتيني بأوراقك كاملة إلى مكتبي في جدة وسوف أرى ما يمكنني عمله..

وقلت له وقلبي يتوثب بين أضلعي فرحاً وحماسة :

– ألف شكر لك يا سيدي الأستاذ.. ألف شكر..

ومرة أخرى وجدتني ساهراً وحدي ، لا يؤنسني سوى القمر الذي كان يطل عليّ من عل ، ولا يجالسني سوى أفكاري المحمومة..

كانت كلمة « الجامعة » تلح على خاطري بعنف ، وأنا أستعيد ما جرى اليوم ، وما دار من حديث بين الشيخ عبد الحميد والأستاذ عبد الرزاق ، والتأييد الكلي للفكرة من قبل الجميع مع أنها لم تخطر ببالي ووجدها الآخرون ممكنة التحقيق..

الجامعة..

أهذا ممكن؟..

أحمد بن عيضة ، الصبي الذي يعمل عند الشيخ عبد الحميد ، وقبله عند سواه ، يصبح جامعياً مع ما تعنيه الجامعة من آفاق غير محدودة؟..

تباركت يا رب ، كيف تهيىء الأسباب ، حين تشاء ، لكي تتحول حياة إنسان من اتجاه إلى اتجاه آخر من حيث لا يفكر ولا يتوقع..

ورحت أتساءل.. لو أن الله تعالى لم يضعني بين يدي الشيخ عبد الحميد بالذات ، أتراني كنت ، كما أنا اليوم ، أحمل الثانوية العامة وأتطلع إلى الجامعة وأنا من أنا؟..

لم أحاول أن أجد جواباً على هذا التساؤل ، لأن الله تعالى هو الذي هيأ الأسباب وهو ، جلت قدرته ، الذي شاء لي هذا الطريق.

ولم يكن ممكناً أن أفصل تفكيري في « الجامعة » عن تفكيري في « عزيزة » ، فلقد كانا في خيالي شيئاً واحداً ، أفهل - يا ترى - تشفع لي الشهادة الجامعية التي سأحصل عليها ، بإذن الله ، كي أتطلع إلى عزيزة بأمل كبير؟..

وقطعت أفكاري عند هذا الحد في الحال ، فلقد سبق لي أن قررت أن أكتم عواطفي ،

وأكبت مشاعري ، وألزم حدي .. فهذا شيء .. وذاك شيء آخر .. وما يجوز لي أن أسمح للعاطفة بأن تجعل الأمور تختلط عليّ ..

وإذ توصلت في تفكيري إلى هذه النتيجة ، أغمضت عيني وأرغمت نفسي على النوم والكلمتان ، كلاهما ، تلحان عليّ بقوة : عزيزة .. والجامعة ..

* * *

وقال لي الشيخ عبد الحميد بلهجته التي تقطر عطفاً واهتماماً :

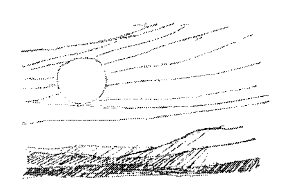
– أحسب يا أحمد أن عليك أن تتدبر أمورك بسرعة .. وأن تلاحق معاملتك بنفسك .. ولذا فليس عليك أن تهتم بغير ذلك .. دع العمل عنك واهتم بموضوع بعثتك ..

وقلت له في تأثر :

– ولكن .. يا عمي ..

فقاطعني بلهجة حاسمة :

– كما أقول لك .. المسألة ليست هينة .. إنها بعثة جامعية .. ولن يضير البيت أن يحرم من جهودك ريثما تتابع الموضوع ..





وهكذا لم يعد لديّ من شاغل سوى البعثة ، والتنقل ما بين الطائف ومكة وجدة ، لاستخراج الوثائق ، وملء الإسمارات ، فلقد كان الأستاذ عبد الرزاق عند وعده ، وبذل أقصى ما في وسعه من جهود لمساعدتي وكان ارتفاع معدل تقديراتي ، ونتائجي الدراسية الممتازة قد أعطتني دافعاً قوياً في ترجيح ترشيحي للبعثة إلى أن كلل الله جهودي بالنجاح ، وأدرج اسمي بين المبتعثين إلى مصر ، وبات عليّ أن أستكمل العدة للسفر..

وكعادته في الدقة والعناية بكل التفاصيل ، كان الشيخ عبد الحميد يتابع جهودي خطوة خطوة ، ويستخدم ماله من دالة ونفوذ على أصدقائه في مختلف الدوائر ، حتى إذا ما بات موضوع البعثة منتهياً ، وجه اهتمامه لترتيب أموري استعداداً للسفر..

ولو شئت الدقة في التعبير لقلت أن كل من في البيت قد اهتم بمسألة سفري ، وكأنهم هم الذين سيسافرون لا أنا.. أو كأن الذي سيسافر هو الشيخ عبد الحميد نفسه لا صبيه ، ولكنهم أهل مروءة وشهامة وفضل ، فعاملوني كما يعاملون ولدهم ، وانهمكوا جميعاً في الاستعدادات اللازمة لسفري..

وكان مما لفت انتباهي ، وأنعش الآمال في قلبي ، أن عزيزة كانت أكثرهم اهتماماً بأمر سفري ، وكثيراً ما كانت تحدثني ضاحكة عن اليوم الذي سأعود فيه ، بإذن الله ، حاملاً الشهادة الجامعية ، لأجد أبواب المستقبل مشرعة كلها أمامي ، أختار منها كيفما أشاء. وكانت عزيزة وهي تقول كلامها هذا إنما تفعل ذلك بعفويتها الطبيعية الصادقة التي عرفتها منها دائماً ، بينما كان قلبي يتفطر ألماً إذ ما كان بوسعي أن أقول لها أن المستقبل الذي تتحدث عنه لن يكون له طعم أو معنى بغيرها ، وأنني سأظل أشعر بأن حياتي ينقصها شيء عظيم ، في نظري ، ما دمت أنا يداً سفلى ، وما دامت هي يداً عليا..

لم يكن اهتمام عزيزة بأمري جديداً عليّ ، فهي كانت هكذا دائماً ، ومع أنني كنت شديد اللهفة على السفر لأخوض معركة جديدة من معارك الحياة ، إلا أن اقتراب الموعد كان يجعل قلبي ينقبض لفراق هؤلاء الأحباء الذين كانوا عوناً لي وأهلاً.

وكان عسيراً عليّ أن أتخيل نفسي وأنا أستقبل صباح يوم لا أرى فيه عزيزة ، ولا أسمع صوتها ، وأنا الذي عاش تلك السنوات الطوال ناعماً بجميل عطفها وعذب صوتها..

وإني لأعترف بأن ما بدا منها من عناية واهتمام خلال مرحلة الاستعداد للسفر ، كان سبباً في أن أفكر بالإقدام على خطوة ما.. خطوة أصارحها فيها بمشاعري وأحاسيسي نحوها ، وأضع بين يديها قلبي الهائم ، تملكه وتغلق عليه باب قلبها..

وكنت أستمد من الألم لقرب الفراق شجاعة يائسة كادت أن تجعلني أصارحها بحبي ، لولا أنني كنت أتمالك نفسي ، كل مرة ، وأبذل جهداً خارقاً كي أتعقل وألتزم حدودي...

أنا اليد السفلى ، مهما كنت ، ومهما أصبحت..

أنا اليد السفلى.. سمعت في داخلي صوتاً يصرخ..

أنا اليد السفلى.. وأسير فضل هؤلاء القوم ، وهم يقدّرون فيّ أخلاقي وعفتي واستقامتي ، فهل أهدم ذلك كله في محاولة حمقاء للقفز إلى أعلى؟..

لا .. لا .. من الخير لي أن أتعقل ، وأن ألتزم بقراري الذي اتخذته ، بالسيطرة على مشاعري وإبقائها دفينة في قلبي .. بل في أعماق قلبي ..

لقد كان من اهتمام العائلة بأمر سفري أنها قطعت فترة اصطيافها المعتادة في الطائف وعدنا إلى مكة ..

وكانت الليلة التي ودعتهم فيها ليلة لا تنسى ..

السيدة كانت تواصل الدعوات ، جهراً وتمتمة ، وتلمع الدموع في عينيها ، كلما رأتني أحزم حقيبة أو أطوي ثوباً ، فتحدثني عن الفراغ الذي سوف يشعرون به بعد رحيلي ، وبعد ما قضيت عندهم من السنوات الطوال ..

والشيخ عبد الحميد كان يعيد عليّ المرة تلو المرة ما يجب أن أفعله ، وما يجب أن آخذه معي ، وأين أسكن ، وكيف أنظم ميزانيي ، وكيف أتابع دراسي ، ويوجه إليّ النصائح الأخلاقية ، ويدعو لي بالتوفيق والنجاح ..

وعزيزة ، ابنة العفة والعزة والأخلاق ، كانت تزجي إليّ بتمنياتها بعبارات مؤثرة ، دون أن تخرج ولو قيد أنملة عن حدود تربيتها الرفيعة ، وخلقها القويم ..

ودادة جمعة ترفع يديها إلى السماء ، وتتجه شطر المسجد الحرام ، تدعو لي بالسلامة والتوفيق بعبارات ساذجة ومؤثرة ..

وعبثاً حاولت أن أعبر عما كنت أشعر به نحو هذه العواطف الكريمة الدافقة من شكر وامتنان ، ووعد بأن أكون عند حسن الظن ، وأن أحقق الآمال المعقودة عليّ ..

وكان الوداع .. وكان الفراق ..

وركبت إحدى سيارات « البوكس » المتجهة إلى قريتي « بني فهم » لأودع أبي وأمي وإخوتي ..

وعبر الطريق الذي كانت تقطعه السيارة ، كنت غارقاً في أفكاري تماماً ، فهأنا الآن في طريقي إلى قريتي أعود بسيارة مريحة وسريعة ، بعد أن غادرتها منذ حوالي عشر سنوات سيرا على الأقدام مع أبي ، وكنت ، إذ ذاك ، خالي الذهن مما ينتظرني في مكة .. حتى العمل كصبي لم يذكره لي أبي إلا بعد الليلة الأولى التي قضيتها معه في مكة ..

وراح شريط الذكريات يمر سريعاً في خاطري ..

الشيخ باقيس .. الشيخ صلاح .. الشيخ الطيب .. الشيخ عبد الحميد .. الأستاذ عبد الرزاق .. عمتي .. عزيزة ..

وتوقفت خواطري عند عزيزة ..

لقد صرت الآن بعيداً عنها ، وبوسعي أن أفكر فيها كما أريد ، دون أن أخشى زلة لسان ، أو خطأ تصرف ..

إن وجهها الحبيب هو الوجه الوحيد الذي ظل يتراءى لي طوال الطريق ، بعينيها الدامعتين وبكائها المكتوم ، ودعائها الصادر من أعماق قلبها ، وانا اصافحها مودعا ...

لقد كانت آخر جملة قالتها لي وانا اسحب يدي من يدها :

– انتبه لنفسك يا أحمد ...

ثم صمتت .. وغلبها البكاء ..

ورحت أحلل كل ما كان منها منذ ان جئت إلى بيتهم وقالت لي بإصرار « تعال نلعب » ، وإلى ان ودعتها لتقول لي برجاء صادق « انتبه لنفسك » ..

لقد حرت ، وحرت كثيرا ، في معرفة حقيقة ما في قلبها تحوي ، ولطالما تساءلت : ترى .. ما هو نوع عاطفتها تحوي ؟.. يقينا أنني اشغل من اهتمامها جانبا ملحوظاً . ، وهل أنسى هذا الإهتمام منذ أن عدت اول يوم من المدرسة الليلية ، وكيف ضحكت – بل قهقهت – في سرور عندما قرأت لها جملة كاملة مما تعلمته ذلك اليوم ، وراحت تصحح لي

اخطائي ، بل وتمسك بيدي لتعلمي كيفية إمساك القلم والكتابة به على صفحة الورق؟..
ثم حماسها لي بعد ان حصلت على الشهادة الإبتدائية ، وفرحها الطاغية يوم حصلت على الثانوية ، ثم سرورها العظيم ، المشوب بالحزن ، يوم وفقت إلى البعثة؟..

لندع الآن مسالة اليد السفلى واليد العليا – قلت لنفسي – ولاحاول استشفاف ما في داخل تللك الفتاة تحوي بعيدا عن تلك المقاييس..

وخرجت من التحليل والمحاكمة كما بدات.. جهل بما في داخلها ، إذ لم يبدر منها ، قط ، ما يشير إلى انها تكن لي غير تلك العاطفة الاخوية التي اشارت إليها مرة..

وتنهدت.. تنهدت بقوة ،. وشعرت بحيرتي تزداذ ، ولكنني كنت اشعر بالإرتياح لانني حافظت على كرامة البيت الذي آواني ، فما بدرت مني كلمة واحدة تخدش تلك الكرامة ، ولا بادرة واحدة تسيء إلى مشاعر العائلة التي كنت اعيش معها..

ووصلت إلى قريتي.. فنزلت من السيارة ، وتنفست الهواء بقوة وعمق ، وقد ارتدت إلى ذاكرتي صور من أيامي التي قضيتها فيها.. فهنا ولدت.. وهنا نشات.. وهنا قضيت من عمري تسع سنوات تقريبا فخرجت طفلا.. وعدت شابا في خضم معركة الحياة.. خرجت اميا.. وعدت وفي يميني بعثة جامعية أوشك ان اسافر من اجلها..

لشد ما تغيرت الأمور خلال تلك السنوات.. ولشد ما ادهش لأن ذلك التغيير لم يكن في خاطري يوم خرجت ، لا من قريب ولا من بعيد.. وإنما هو التدبير الإلهي ، فما كان في ذهني أن افعل ما فعلت ، ولا ان احقق ما حققت ، لولا ان الله تعالى هو الذي هيا لي الأسباب برحمته..

وكان لقائي مع أهلي ، إذ دفعت الباب الخشبي ذا الصرير ، مثل وداعي لأهلي الآخرين الذين تركتهم في مكة.. بكاء وضحكات.. دموع وبسمات.. عناق ودعوات.. فما كادت أمي تعانقني حتى ألقت رأسها على صدري وراحت تنشج من غير أن تند عنها كلمة واحدة.. فلقد كانت هذه أول مرة ألتقي بها فيها بعد غياب حوالي عشر سنوات..

أما أبي ، فقد ضمني إلى صدره وقبلني ، ثم صافحني مصافحة الند للند ، وأقبل إخوتي الذين تركتهم صغاراً ، يدورون حولي ، ويتعلقون بي ، ويعانقونني ويقبلونني ، فامتزجت الدموع بالضحكات ، واختلطت الأصوات في لوحة إنسانية مؤثرة ، تدل على ما حباني الله به من نعمة المحبة آخذها وأعطيها لمن أحب ومن يحبني ، من أهلي الذين هم من لحمي ودمي.. أو أهلي الآخرين الذين هم من روحي وقلبي..

ولم ينم أحد في بيتنا تلك الليلة..

فلقد قضيناها في الحديث والثرثرة ، فرويت لهم ما وقع لي منذ ان غادرت القرية إلى ان عدت إليها ، وحدثتهم عما لقيت من توفيق الله وفضله إذ وضعني في كنف الشيخ عبد الحميد.. واستعرضت لهم كفاحي منذ ان بدأت الدراسة في المدرسة الليلية إلى ان حصلت على البعثة الجامعية.. وكانوا يصغون إليّ بكل جوارحهم وكأنني اروي لهم مغامرات «الشاطر حسن» أو «السندباد البحري» ، وبعد أن انهيت ، اطرقت امي هنيهة ثم قالت بصوت متهدج :

– إذن فسوف تتركنا مرة أخرى..

– ارجوك يا أماه.. لقد لقيت من آلام الوداع في مكة وما اتوقعه هنا ما يجعلني افكر في إلغاء البعثة أكثر من مرة ، فما عادت لدي أعصاب تحتمل هذه الآلام.. ولئن لم تساعدوني على اجتياز هذه المحنة فإنني اقسم بالله العظيم أنني لن أسافر..

فأشرق وجه أمي المخضل بالدموع ، وقالت لي ، وهي الفلاحة الأمية :

– بل تسافر يا ولدي.. تسافر بسلامة الله.. إننا لفخورون بك.. وإن ما ترى من دموعنا وبكائنا ليس سوى دموع الفخر وبكاء الإعتزاز..

وفجأة سألني أبي :

– بالمناسبة.. ما هو العلم الذي سوف تتخصص به؟..

فأجبته بهدوء :

- الطب ..

ولم تكد أمي تسمع هذه الكلمة حتى زغردت بسعادة ثم قالت :

- الله أكبر.. الله أكبر.. ولدي سيصبح « دختور ».. وفقك الله يا بني.. وأخذ بيدك..

وفي صباح اليوم التالي ودعت الأهل والأصدقاء والأقارب ، وركبت السيارة متوجها إلى جدة..

* * *

ولم أشأ أن أكون قريباً من مكة دون أن أزور أهلي الآخرين فيها.. فتوجهت إليها وطفت أولاً بالبيت العتيق ثم توجهت إلى المنزل وطرقت الباب فإذا به يفتح وتظهر وراءه دادة جمعة التي بدا عليها الذهول حين رأتني ، فجمدت في مكانها تحدق بي وكأنها لا تصدق ما تراه عيناها ، ثم صاحت بصوت يمتزج فيه الفرح مع الدهشة :

- عمي.. عمي.. جاء سيدي أحمد.. جاء سيدي أحمد..

ورنت كلمتا «سيدي احمد» في اذني رنينا غريباً ، فهذه أول مرة أسمع فيها هذا التعبير ، بعد ان كنت « الصبي » و« الولد » الذي ينادي الجميع بلقب « عمي »..

وهاج البيت وماج ، وتراكض الشيخ عبد الحميد وزوجته وابنته يرحبون بي ، ويبدون دهشتهم لقدومي فقلت لهم مازحاً :

- خلاص.. خدت البكالوريوس ورجعت..

وضحك الشيخ عبد الحميد وقال :

- إن شاء الله.. يا ولدي.. إن شاء الله..

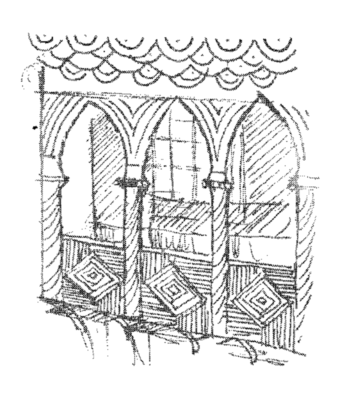
وشرحت لهم سبب قدومي ، وهو أني جئت لزيارة المسجد الحرام والطواف ببيت الله

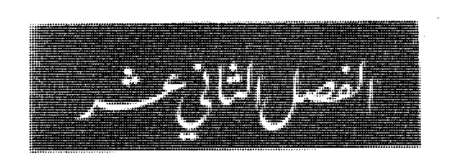
العتيق ولزيارتهم بعد أن عدت من قريبي إلى جدة ، وأصبحت قريباً من المدينة المقدسة . .

قلت هذا وأنا أدير بصري فيهم ، ليستقر على عزيزة التي أرخت عينيها في خجل وقد تضرج وجهها بحمرة شديدة . .

وودعتهم أخيراً ، بعد أن أمضيت ليلتي عندهم . .

واتخذت وجهتي إلى البعثة ، وبين جنبي عزم هائل على أن أنجح ، وأن أحقق ظن كل من ساعدني ، وأخذ بيدي إلى هذا الطريق ، فالنجاح قد بات - بالنسبة لي - هاجساً يؤرقني ، ويعذبني ، فلا أشعر بالراحة النفسية إلا وأنا في خضم معركة الحياة . .





الفصل الثاني عشر

سرعان ما تآلفت مع محيطي الجديد ، إذ وجدت عدداً قليلاً من زملائي السعوديين المبتعثين لمختلف الكليات ، فسكنت في عمارة هم أغلب سكانها ، مما تغير علينا – داخل السكن – شيء عن جو الوطن ، سواء في نوعية مأكلنا ، أو في طراز حياتنا ، أو في أوقات تسليتنا وترفيهنا . .

وكنت قد عزمت على أن أنصرف بكليتي إلى الدراسة ، وألا أعود إلى بلادي إلا بعد أن أحصل على الشهادة ، فدراسة الطب بالغة الصعوبة ، والمستوى الذي أنشده من النجاح لا يتحقق إلا بالجهد المتواصل والعمل الدائب ، والإنصراف كلياً لهذا الهدف . . وهذا ما فعلته . .

وكانت الرسائل تصلني بصورة منتظمة ، سواء من أهلي في قريتي ، أو أهلي في مكة ، وكانت عزيزة تحرص على أن تصف لي أدق تفاصيل حياتهم اليومية كأنني أعيش معهم ، وكنت أقرأ رسائل عزيزة مرات ومرات علي أستشف منها شيئاً يطمئن قلبي ويبعث في أعماقه

شيئا من الأمل ولكن عبثاً . . فهي ، كعادتها ، كانت تكتب رسائلها بنفس الأسلوب الذي كانت تخاطبني به ، عبارات ذات معنى مباشر وواضح لا يحتمل تأويلا أو تفسيرا ، وما أدري إن كانت تتعمد ذلك عن قصد ، أو أن طبيعتها العفيفة قد فرضت نفسها على كلمات رسائلها . .

ومضى زمن ، كنت أحقق فيه النجاح تلو النجاح ، وأسير نحو هدفي بخطوات ثابتة وقوية . . .

وكما هي العادة في سنوات الفراق الطويلة ، بدأت الرسائل المتبادلة بيني وبين الأهل - جميعاً - في الوطن تتناقص شيئا فشيئاً ، وحتى أنا لم أعد أجد الوقت الكافي لأكتب رسالة من رسائلي التي كانت في العادة طويلة ومفصلة ، إلى أن مضى وقت طويل لم أتبادل فيه أية رسالة ، فلا أنا كتبت لهم ولا هم كتبوا لي . .

وكنت أطمئن نفسي بأن كل شيء على ما يرام في بيت الأهل في مكة وبي فهم ، ولو كان هناك شيء ما - لا سمح الله - لبادروا لإبلاغي به اما في رسالة أو برقية ، وكنت أقاوم كل رغبة تجعلني أفكر في قضاء الإجازة الصيفية في بلادي ، لأنني - وقد عزمت على أن أهب نفسي كلياً للدراسة والتحصيل - كنت في حاجة إلى كل ساعة من الوقت . .

وهكذا مضت سبع سنوات منذ أن غادرت بلادي ولم أعد إليها خلال تلك المدة أبداً . .

وقبيل بداية السنة الثامنة ، جاء من يخبرني بأن الشيخ عبد الحميد قد انتقل إلى رحمة الله تعالى ، فنزل عليَّ النبأ نزول الصاعقة ، وصممت على التوجه إلى مكة في الحال ، ولكن زملائي جميعاً قالوا لي أنه لا يجوز أن أفعل ذلك ، فبيني وبين سنة الإمتياز سنة واحدة ، أتم فيها دراستي وأعود بعدها إلى وطني بصورة نهائية ، فكيف أضحي بهذه الفرصة لمجرد الرغبة في الذهاب إلى مكة ، لا سيما وأن الرجل ، يرحمه الله ، قد مضى إلى جوار ربه وليس بوسعي أن أصنع شيئاً ؟ . .

وقال لي زملائي أيضاً أن سفري إلى مكة لن يقدم أو يؤخر شيئاً ، سوى تجديد الأحزان ، وإثارة الآلام ، مما قد يمنعني من مواصلة دراسي بنفس الحماسة التي أبديها الآن..

وقالوا لي أنني ، الآن ، أجتاز مرحلة حرجة ، وهي المرحلة التي تسبق التخرج ، فلا يجوز لي والحالة هذه أن أضحي بكل هذا من أجل زيارة خاطفة..

ورضخت ، بادىء الأمر ، لمنطق زملائي وقررت البقاء والعدول عن السفر ، ولكن ضميري أخذ يؤنبني بشدة..

كيف نسيت أهلي هكذا سنوات طوالاً دون أن أجد طريقة أطمئن بها عليهم ؟.. ومن قال لي أن انقطاع الأخبار هو دليل خير وليس دليل شر مستطير.. وها هي وفاة الشيخ عبد الحميد أبلغ دليل..

أتراني قد نسيت الشيخ عبد الحميد ، والسيدة زوجته ، وابنته عزيزة ، ودادة جمعة ، وكل ذكرياتي السعيدة في ذلك البيت الحبيب ؟..

هل كنت ، إذ اندفعت في الدراسة هذا الإندفاع ، أنانياً بحيث نسيت كل شيء غيرها ؟..

هل هكذا أكافىء الذين أحسنوا إليّ وأكرموني وأحلوني من نفوسهم منزلة الأبن ؟..

لا.. لا.. يجب أن أعود وليكن بعد ذلك ما يكون ، لأن ضميري لم يستطع الإقتناع بمنطق زملائي ، فهم لا يعرفون ما أعرف ، ولا يحسون بما أحس ، ولا يدركون ماذا تعني تلك العائلة بالنسبة لي..

وهكذا توجهت إلى إدارة البعثات ، وأبديت رغبتي لمديرها في العودة إلى الوطن..

وفوجىء الرجل بطلبي ، وهو الذي يعرف أنني لم أطلب مثل هذا الطلب طوال مدة ابتعاثي ، وقال دون أن يحاول إخفاء رنة الاستغراب التي بدت في صوته :

– إن زيارة الوطن حق من حقوقك ولا ريب.. ولقد مضت سنوات عديدة لم تستعمل فيها هذا الحق.. فإذا أردت العودة فلا مانع لديّ.. فأنت مثال الطالب الناجح والشاب المثالي عندنا..

فشكرته على حسن ظنه، وألمحت إلى الأسباب التي تدعوني للعودة إلى بلدي، فاتخذ الإجراءات اللازمة، ومضيت أنا أستعد للرحلة، فاشتريت بعض الهدايا، وراح ذهني يسبق جسمي إلى حيث تركت قلبي طوال هذه السنوات، وركبت الباخرة المتوجهة إلى جدة...

ولم أتوقف في جدة، إذ وصلتها، أكثر من نصف ساعة ركبت بعدها سيارة اتجهت بي في الحال إلى مكة..

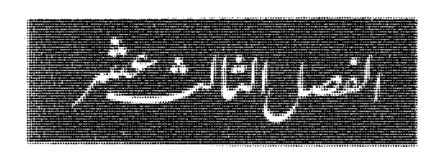
وكانت خواطري، والسيارة تنهب بي الطريق، في مثل لهيب النار حرارة وضراما.. فرحت أتمثل الشيخ الطيب الذي مضى، ورحت أدعو الله من أعماق قلبي أن ينزل عليه شآبيب رحمته ورضوانه، فلقد كان رجل خير وفضل، وكان إنساناً طيباً ما سعى إلا للمساعدة والعون والمواساة..

وكم كان يمكن أن أكون سعيداً لو أنني كنت، الآن، في طريقي للقائه في بيته، لكي أقبل يده، وأقدم له شكري وامتناني وتقديري، وأريه أن الغرسة التي غرسها بيديه الخيرتين قد نمت وترعرعت، وأوشكت على أن تؤتي أكلها..

ولكن الشيخ عبد الحميد ليس هناك.. إنه الآن في رحاب الخالق العظيم، بعد أن غادر دار الفناء إلى دار البقاء..

ورحت أدعو من صميم قلبي، وبكل جوارحي: يا رب ارحمه رحمة واسعة.. يا رب أكرم مثواه وأحسن ثوابه.. يا رب اجز الشيخ عبد الحميد عني خير الجزاء.. واجز عني أبي أيضاً خير الجزاء..

وعاد ضميري يؤنبني بقسوة، والسيارة تغيب داخل شوارع مكة وحواريها في طريقها إلى منزل الشيخ عبد الحميد...



الفصل الثالث عشر

أخيراً وصلت إلى المنزل ، لأفاجأ به مغلق الابواب ، ساكن الحركة ، وكانه خال من السكان . .

ودهشت لذلك ، فباب المنزل الكبير ما كان يغلق طوال النهار لكثرة الداخلين والخارجين الذين ما كانوا ينقطعون عن المنزل قط . .

أما الآن ، فكل شيء هادىء ساكن . . لا حركة . . لا صوت . . لا دليل على ان في المنزل أحداً يسكنه ، ولم آبه كثيراً للأمر ، وقلت لنفسي : لعل الباب الكبير قد بات يغلق بعد رحيل سيد المنزل ، وطرقت الباب برفق ، فلم أسمع جوابا ، فكررت الطرق بقوة ولم أسمع ، كذلك ، جواباً فبدأ القلق يتسلل إلى قلبي حتى أنني أخذت أواصل الطرق بكل ما استطعت من قوة ، ولكن كل شيء ظل هادئاً ساكناً . .

ووقفت حائراً واجماً أتساءل : ماذا جرى؟ . . وأين بقية العائلة؟ . . أين السيدة الكبيرة؟ . . أين عزيزة؟ . . أين دادة جمعة؟ . . أين ذهبن جميعاً وماذا أصنع أنا الآن وكيف أعثر عليهن؟ . .

لقد كنت ، وأنا في طريقي إلى المنزل ، خالي الذهن تماماً من احتمال ألا أجد أحداً في المنزل ، فلما كانت هذه المفاجأة غير المتوقعة فقد وقفت حائراً لا أدري ما أفعل..

وعدت أطرق الباب من جديد في قوة وإلحاح ، فمن غير المعقول أن يخلو البيت من سكانه مرة واحدة على هذه الصورة ، ولكن أحداً ما لم يجب على طرقي وظل الباب الكبير مغلقاً..

وفجأة فتحت نافذة في البيت المقابل ، وأطل منها رأس رجل قال بصوت مرتفع :

– لا تتعب نفسك يا أخي.. فلا أحد في المنزل..

وعرفت صاحب الصوت ، إنه العم محسين ، جار الشيخ عبد الحميد وصديقه ، فشعرت بمثل شعور الغريق وهو يرى إلى طوق النجاة يلقى إليه على غير توقع :

– عم محسين؟.. السلام عليكم.. أرجوك.. هل يمكن أن تتكرم بالنزول إليّ لأخاطبك؟.. أنا أحمد.. أحمد بن عيضة.. هل تذكرني؟..

وحدق الرجل فيّ من مكانه ببصره الضعيف وقال :

– أحمد؟.. مرحباً بك يا ولدي.. الحمدلله على السلامة.. آسف.. لم أعرفك.. لحظة واحدة وآتي إليك..

واختفى رأس الرجل من النافذة الواقعة في الدور الثاني من منزله ، فوقفت خافق القلب ، متوجساً ، أنتظر نزول الرجل إليّ وأتحسب مما سيقوله لي..

وبعد ثوان فتح الباب ، وظهر العم محسين من ورائه ليستقبلني بالأحضان يعانقني ويقبلني وهو يقول :

– ما شاء الله.. ما شاء الله.. تبارك الله.. لقد أصبحت رجلاً يا أحمد.. تفضل.. تفضل..

وأفسح الرجل لي لأدخل إلى منزله وأجلس معه ، وألف سؤال وسؤال تتزاحم على شفتي..

وقال الرجل ونحن نستقر في المجلس :

- الحمد لله على السلامة.. متى كان الوصول؟..

- هذا الصباح يا عم تحسين.. جئت بالباخرة.. ووصلت جدة هذا الصباح.. ومنها توجهت إلى هنا من غير توقف..

- يا مرحباً بك.. والله زمان يا أخ أحمد..

- إني.. إنني لم أكد أسمع بخبر وفاة الشيخ عبد الحميد حتى سارعت إلى المجيء.. لم أستطع البقاء في مصر.. قلت إن العائلة قد تحتاج إليّ في شيء..

- العائلة؟..

تساءل الرجل بمرارة وهو يهز رأسه في أسف، الأمر الذي دب الذعر في قلبي فقلت له :

- بالله عليك يا عم تحسين قل لي.. ماذا جرى؟.. وأين هم؟.. وأين الست الكبيرة؟..

- الست الكبيرة؟.. تعيش أنت..

- ماذا؟.. متى؟.. وكيف..

- منذ حوالي سنة ونصف.. بل منذ حوالي السنتين..

- منذ سنتين؟.. أي أن المرحوم الشيخ عبد الحميد كان حياً آنذاك؟..

- أجل..

- لم لم يخبروني بذلك؟.. لقد كانت يرحمها الله بمثابة الأم الرؤوم لي..

- لقد رفض الشيخ عبد الحميد.. يرحمه الله.. ذلك.. ومنع الجميع من إبلاغك بالنبأ.. فهو يعلم مقدار حبك لها فخشي أن يؤثر ذلك على دراستك.. إلى أن مضى هو إلى رحمة الله..

وكنت أتوجس خيفة من أن أسأل عن عزيزة فأسمع ما لا يسرني ، فلعلها قد تزوجت ، أو لعل مكروهاً قد أصابها هي الأخرى..

ولكن العم محسين استطرد ، من غير أن أسأله ، يجيب على السؤال الذي كان يضج في خاطري ويكاد ينطق به لساني :

– لقد بقيت عزيزة..

وشعرت كأن حملاً قد انزاح عن كاهلي ، وتمتمت بصوت خافت «الحمدلله» ، ورحت أصغي إلى بقية كلامه :

– منذ وفاة والدها وهي تعاني من مرض شديد أنهك قواها.. وقد حار الأطباء كثيراً في أسبابه.. فبعضهم يعزوه إلى الصدمة الشديدة التي أصيبت بها عند وفاة أبيها.. والبعض يعتقد أنها تعاني من هذا المرض منذ مدة طويلة دون أن تظهر أعراضه عليها إلى أن استفحل أمره فسقطت طريحة الفراش..

وطارت نفسي شعاعاً للنبأ فسألت العم محسين في لهفة :

– وأين هي الآن؟..

– إنها في المستشفى بالزاهر.. ولعلها ستسعد برؤيتك...

لقد نزلت كلمات العم محسين عليّ كالصاعقة.. فما أعجب هذه الدنيا.. لقد جئت أسأل عن أم عزيزة وعزيزة ودادة جمعة ، فإذا بي أفاجأ بأن أم عزيزة قد سبقت زوجها إلى دار البقاء ، وأن عزيزة – ويا لهول النبأ – غير بعيدة عن مصير أبويها..

وهمست في تفجع :

– لا حول ولا قوة إلا بالله..

هأنذا أجد نفسي يداً سفلى ، كما كنت دائماً ، عاجزاً عن مد يد العون للعائلة التي طالما أعانتني وساعدتني واحتضنتني ولم تبخل عليّ بشيء ، في حين كنت أظن أنني قد جئت لأقف إلى جانب العائلة ، وهي في محنتها بغياب عائلها ، فأرد بذلك بعض أفضالها عليّ ،

إذا بي أتبين أنه لم يبق من العائلة سوى عزيزة وهي في أسوأ حالات المرض ، اي أنني أقف – من جديد – في موقع غير القادر على العطاء...

وطال سهومي وشرودي وأنا غارق في خواطري هذه ، إلى ان انتبهت منها على العم محسين وهو ينهض ويجذبني من يدي في رفق وهو يقول :

– تعال بنا إلى الداخل.. نستريح قليلاً.. ونشرب الشاهي.. ثم نذهب معاً ، انا وانت ، لزيارة عزيزة..

ورفعت رأسي فجأة وكأنني قد تذكرت شيئا خطر لي على التو :

– ودادة جمعة.. أين هي يا عم محسين؟..

– انها تلازم عزيزة في المستشفى..

فتنهدت بارتياح.. فدادة جمعة ما تزال بخير ، وعزيزة غير محرومة ممن يعنى بها ويتعهد أمرها وهي في مرضها..

وسرت مع عم محسين إلى داخل المنزل الذي لم أكن غريبا عليه ، فلطالما دخلته وتجولت في أرجائه حتى عرفت انحاءه شبراً شبراً..

ها هو الدهليز المفروش على الطريقة العربية ، وها هي السلالم المؤدية إلى الأدوار العليا . وها هي رائحة اللبان والمستكي تنتشر في جو البيت ، فالعم محسين يحب هذه الرائحة ، ومكتبته الصغيرة ما زالت قائمة في ركنها المعتاد ، وشيشة الجراك مرتكزة في الركن الآخر بجوار مقعده الخاص...

وأجلسني العم محسين في غرفة المجلس الداخلية وهو يقول :

– أرجو أن تنتظر قليلاً لأنبىء أم عمر بوجودك..

وام عمر ، هي زوجته ، وهي إنسانة كريمة فاضلة ، كانت كثيراً ما تزور بيت الشيخ عبد الحميد ، وهي تحمل سبحتها الطويلة ، وتلتف بشرشفها الأبيض ، وقد اكتسى وجهها

إشراقاً يبعث على الارتياح إليها ، ويوحي بما تتمتع به من طمأنينة النفس ، فهي لا تفتر عن ذكر الله تعالى ، ولا تني عن الصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، آمرة بذلك كل من تراه . .

إنني لأذكر لأم عمر كثيراً من المواقف التي أحاطتني فيها بحنانها وعطفها ومحبتها ، ولذا لم أعجب حين تناهى إليّ صوت خطواتها المتعجلة وهي تهبط الدرج ، وقد بدت لي بهيبتها التي عرفتها بها دائماً وإن كانت السنوات قد أحدثت بعض التغيير في ملامحها التي ما زالت ، على أية حال ، على جمالها ووقارها .

وأسرعت إليها ، فقبلت يدها ، وربتت على كتفي وهي تدعو لي ، ثم جلست على مقربة منها بينما جلس العم تحسين على مقعده المعتاد . .

وراحت السيدة تسترجع الذكريات بكثير من الأسى والحسرة وحكت لي عما جرى بعد سفري ، وأخذت تصف لي وفاة أم عزيزة بتفاصيلها المؤلمة . .

روت لي كيف أن العلة قد اشتدت على أم عزيزة حتى أصيبت بشلل نصفي جعلها عاجزة عن الحركة والكلام ، وكيف كان الجميع يتأثرون لحالها وهي تصارع المرض فيغلبها ، حتى باتت ميئوساً منها ، وأصبح الجميع يعتقدون ، والألم يعتصر قلوبهم ، أن في الموت راحة لها مما هي فيه من مرض وآلام . .

ولفت انتباهي أن السيدة أم عمر قد أسهبت في وصف حالة عزيزة وما كان من أمرها ، وكررت خلال حديثها كيف كانت الفتاة ترفض الخطاب الذين تقدموا إليها ، ولم أنتبه – إذ ذاك – إلى أن السيدة إنما كانت تريد أن تقول لي شيئاً معيناً بطريقة غير مباشرة ، فحسبت أن تركيزها على الحديث عن هذه الناحية مبعثه استغرابها لموقف عزيزة ذاك . .

وسكتت السيدة . . وكففت أنا عن الأسئلة . . وساد الصمت في الغرفة ، فقد أطرقت أفكر ، متألماً ، فيما آل إليه حال البيت الذي عشت فيه أحلى سنوات عمري ، والذي كنت أجهد من خلال ما حققت من تقدم في مضمار الحياة لأن أرتفع إلى مستواه ، فإذا بي أجده قد خلا ، أو كاد ، من ساكنيه الأعزاء ما بين راحل إلى الحياة الآخرة ، ومريض في

مستشفى.. وبدا لي هذه الساعة فقط، كم كنت مخطئاً في انقطاعي طوال تلك السنين عن القدوم إلى مكة في الإجازات، وكم كنت أنانياً إذ انصرفت إلى دراستي ذلك الإنصراف المحموم رغم ثقتي بأنني ما كنت لأحقق ما حققت فيها من نجاح لولا هذا الإنصراف، ذلك أنني رأيت كل ذلك شيئاً تافهاً لا قيمة له إزاء ما يترتب عليّ من واجب إزاء هذه العائلة التي ارتبطت حياتي بها منذ نعومة أظفاري..

وتنهدت في ألم وعدت أردد وأنا لا أصدق ما سمعت:

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

ونهض العم تحسين وهو يقول:

– لعلك تريد الذهاب إلى المستشفى..

فأجبت بسرعة ولهفة:

– أجل.. بكل تأكيد..

فقال وهو يتجه نحو باب الغرفة:

– انتظرني قليلاً إذا سمحت..

وغاب العم تحسين وراء الباب، وعدت إلى إطراقي ووجومي، فإذا بالسيدة تقول وهي تضرب كفاً بكف:

– عيني عليكي يا بنتي يا عزيزة.. لقد كنت زهرة يانعة فاح أريجها في الحي كله..

ها قد عادت السيدة تتحدث عن عزيزة، فماذا تريد أن تقول لي على وجه التحديد؟.. أتراها تريد أن توصل إليّ رسالة معينة، أم هي تتكلم بحكم ما تشعر به نحو الشابة المريضة؟.. لم أتوصل، إذ ذاك، لجواب على هذا التساؤل ولكنني عرفت السبب فيما بعد..

وعاد العم تحسين بعد أن ارتدى ملابس الخروج وقال لي:

– هيا بنا يا ولدي.. سنذهب إلى المستشفى لزيارة عزيزة ودادة جمعة...

كنت أشعر، وأنا في طريقي إلى المستشفى، أنني أحمل هموم الدنيا كلها فوق كاهلي، فكيف سأرى عزيزة تلك الزهرة الفواحة كما قالت أم عمر، زوجة العم تحسين، وهي مسجاة على فراش المرض، تعاني آلامه ولا تستطيع حراكاً؟..

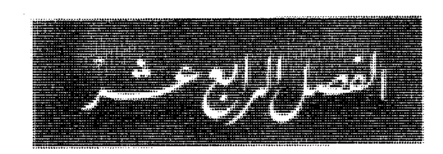
ماذا فعلت .. وماذا جنيت عندما أقدمت على ما أقدمت عليه من الرغبة في نجاح أملته أنانية مفرطة جعلتني أغفل عن واجبي تجاه الآخرين؟..

لقد كانت عزيزة، والرغبة في أن أكون لائقاً بها، هي الدافع الخفي الذي جعلني أنهمك في دراستي ذلك الإنهماك الذي صرفني عن كل شيء آخر.. ولكن ما فائدة الشهادة التي سأحصل عليها إذا لم تكن من أجل عزيزة؟.. وإذا كنت أحبها من صميم فؤادي، كما أزعم، فكيف أطقت فراقها كل تلك السنين؟..

ووجدتني أحدث نفسي بحرارة مجيباً على سؤالي: أجل والله.. إنني أحبها.. ولا أحب سواها.. ووالله ما كان لي من غاية إلا أن أرتفع في نظرها عن مستوى اليد السفلى الذي كنت فيه، ولقد آثرت أن أصبر على الفراق على أمل، أمل بماذا؟.. هنا توقفت أفكاري لأنني لم أكن لأجرؤ حتى بيني وبين نفسي على أن أفكر بذلك الأمل...

وانتبهت من أفكاري على لمسة من يد العم تحسين وهو يشير إلى المستشفى الذي وصلناه سيراً على الأقدام وأنا غارق في خواطري المحمومة تلك..





كان المستشفى يمور بالحركة والنشاط..

أشخاص يدخلون، وآخرون يخرجون..

بعضهم يحمل مريضاً عاجزاً عن السير ويدخل به إلى المستشفى، وبعضهم يرافق مريضاً قد منّ الله عليه بالشفاء فخرج سليماً معافى يشرق وجهه ووجوه من حوله بسعادة العافية..

وأدرت بصري فيما حولي داخل أحد دهاليز المستشفى، أبحث عن الطريق إلى العنبر الذي توجد فيه عزيزة، فقال لي العم تحسين وهو يقودني:

– من هنا.. إنني أعرف مكان الغرفة...

وتبعته عبر ممرات المستشفى إلى أن وقفنا أمام باب عزيزة، فشعرت وكأنني أقف على شفا هاوية عميقة توشك أن تبتلعني في جوفها..

وتمنيت ، في غمرة اليأس ، أن لو كان بمقدوري أن أجري مبتعداً ، فلست أطيق المشهد الذي أتخيله وهو مشهد الفتاة الوحيدة التي أحببتها في حياتي وهي على فراش ما يدري إلا الله ما سيكون من أمرها معه..

وحدق العم تحسين في وجهي ، وكأنه قرأ خواطري فابتسم ابتسامة مغتصبة وقال بصوت خافت :

– ما يصير كده يا أحمد.. لازم ما تشوفك عزيزة زعلان..

فتمالكت نفسي ، وهززت رأسي موافقاً ، وقد عجزت عن الكلام ، وفتحنا الباب.. ودخلنا..

كانت عزيزة مسجاة على السرير ، شاحبة الوجه ، نحيلة الجسم ، وشعرها الطويل الناعم الذي طالما استهواني قد تناثر على الوسادة ، ولم يفلح المرض في النيل من جمال عينيها رغم أنهما قد بدتا لي غائرتين..

ولم أصدق ما تراه عيناي ، ووقفت أحدق بذهول رغماً عني ، وأنا أتساءل في ألم : أهذه هي عزيزة؟.. وهذا الجسد النحيل هو جسدها؟.. أين عزيزة التي أعرفها.. عزيزة التي كان وجهها يتفجر بدماء الصحة ، وأين تلك الحمرة المحببة التي كانت تصبغ وجنتيها بصورة طبيعية؟..

وكانت دادة جمعة جالسة بجوار السرير تغالب النوم ، وقد ألقت يديها في حجرها ، وبين أصابعها سبحتها التي لم تكن تفارقها.. وكان واضحاً أن دادة جمعة قد سهرت كثيراً إلى جانب المريضة العزيزة حتى بات ليلها نهاراً ، ونهارها ليلاً ، فلا تكاد تغفو إلا للحظات..

ولم تشعر الإثنتان بنا ونحن نقف عند مدخل الغرفة ، فعزيزة كانت مغمضة العينين ، ودادة جمعة تغمض عينيها وتفتحها وهي تغالب النوم..

ويبدو أن دادة قد رأتنا أخيراً ، إذ فتحت عينيها عن آخرهما وهبت واقفة وهي تصرخ :

- مين.. مين.. سيدي أحمد؟.. الحمد لله.. الحمد لله..

وأقبلت عليّ تشد على يدي وهي تبكي بصوت مكتوم، ولم أجد ما أقوله لها، وتقدمت إلى سرير عزيزة فوضعت يدي على مسنده أطيل النظر في المريضة..

وعادت دادة جمعة تقول بصوت يرن بالفرح الشديد:

- الحمد لله على السلامة يا سيدي أحمد..

ويبدو أن صوت دادة جمعة المرتفع قد أيقظ المريضة، فقد فتحت عينيها ببطء شديد، وراحت تنظر نحوي نظرة فارغة وكأنها لا تعرفني، ولكن هذه النظرة كانت تتغير شيئاً فشيئاً، فقد افترت شفتاها عن ابتسامة مغتصبة ومدت لي يداً مرتجفة وهي تقول بضعف:

- أحمد.. الحمد لله على السلامة...

واحتويت يدها بيدي، وضغطت عليها في مودة، ثم جلست، والعم تحسين، إلى جانب السرير، وكنت أحاول أن أجد كلمات أعبر بها عن شعوري، أو أرد التحية على الأقل، ولكن الكلمات احتبست في حلقي، فرحت أنظر إلى عزيزة صامتاً، وعيناي تنطقان بألف مقال ومقال..

ولم يتكلم أحد بدوره، واكتفت عزيزة بأن رفعت يدها إلى عينيها تريد أن تحبس الدموع التي انثالت على خديها لتستقر على الوسادة.. وحاولت، مرة أخرى، أن أتكلم.. وأن أهيب بها أن تحبس دموعها الغالية التي كانت تتساقط على قلبي كالجمر المتقد..

حاولت أن أواسيها.. أن أعزيها.. أن أبدي لها تمنياتي لها بالشفاء.. ولكن كلمة واحدة لم تخرج من بين شفتي،. فقد كنت مرتبكاً، خائفاً، متألماً، تعساً، وفي نفس الوقت كنت سعيداً.. فها هي عزيزة أمامي، وهأنا أراها وليس بيني وبينها من مسافة سوى أقل من ذراع أو بعض ذراع..

وتمالكت نفسي أخيراً ، واستطعت أن أجد كلمات أقولها . .

همست لها وأنا أمسك يدها الهزيلة بين يدي :

- أسأل الله لك الشفاء . . لقد جئت فور سماعي بنبأ وفاة المرحوم . . جئت لأقف إلى جانبك ولأفعل كل ما بوسعي لخدمتك . .

وجاءني الرد من دادة جمعة التي قالت وهي تنشج نشيجاً مكتوماً :

- فيك الخير يا سيدي أحمد . . فيك الخير والبركة يا ولدي . . جئت في الوقت المناسب . . .

وتنحنح العم تحسين بارتباك ، كأنما هو يريد أن يلفت انتباهنا لوجوده ، ثم قال متضاحكاً :

- أعتقد أنه ليس لي مكان هنا الآن . . اسمحوا لي . . فلعل لديكم أموراً خاصة ترغبون في الحديث فيها . . السلام عليكم . .

وخرج العم تحسين دون أن ينتظر جواباً ، وبقيت وحدي مع عزيزة ودادة جمعة التي كانت قد تمالكت نفسها فاكتفت بأن راحت تتمتم بين الحين والآخر :

- الحمد لك يا رب . . الحمد لك يا رب . .

وكانت يدي لا تزال تمسك بيد عزيزة التي اكتسى وجهها إشراقة غريبة ، لفتت انتباه دادة جمعة فقالت لي بلهجة كلها أمل وتفاؤل :

- شايف يا سيدي أحمد ؟ . . هذي أول مرة أشوف فيها وشها كده . . كانت ، يا حبة عيني ، عمّال تذبل زي الوردة المحرومة من الموية . .

ووجهت إليها عزيزة نظرة عاتبة دون أن تتكلم ، وضغطت بيدها على يدي في مودة وكأنها تريد أن تقول لي شيئاً . .

ترى ماذا كانت تريد أن تقول ؟ . .

هل كانت تريد أن تقول أنها تبادلني عاطفتي بمثلها؟.. وأن بها مثل ما بي من المحبة والشوق؟..

وأضاء قلبي، فجأة، بنور باهر من الأمل.. أجل.. لعلها تريد أن تقول ذلك، وإلا فما معنى هذه الإشراقة التي بدت في وجهها مذ رأتني، ويدها التي تركتها في يدي والتي كانت تضغط بها عليها بين الحين والآخر؟..

رباه.. هل هذا ممكن؟..

هل يمكن لليد العليا أن تستقر بمحبة ومودة في اليد السفلى دون حرج؟..

وعدت إلى نفسي في الحال، وتذكرت ما كنت قد قررته منذ زمن بعيد، وهو أن أكبت مشاعري، وأكتم عاطفتي، وأضع نفسي في موضعها الطبيعي لدى هذه العائلة التي أقف دون مستواها ولو حزت على شهادات الدنيا كلها...

ومن هذا المنطلق بالذات، شعرت بأن فرصتي قد حانت، وأن الأوان قد آن لكي أرد الجميل لهذه العائلة الكريمة التي أدين لها، من بعد الله تعالى، بكل شيء، ولكنني قلت في نفسي، من جهة أخرى، أن رد الجميل يجب أن يكون من موقعي الذي أنا فيه، كيد سفلى، وأنه لا يحق لي بالتالي أن أحلق على أجنحة الخيال، عندما خطر لي - منذ أن دخلت الغرفة - أنني قد أتمكن من تحقيق أملي بالزواج من عزيزة..

كان الصمت يسود الغرفة، إلا من صوت حبات سبحة الدادة جمعة وتمتماتها، وكنت أنظر إلى عزيزة التي اكتست ملامحها نوعاً غريباً من الراحة والاطمئنان لم يكونا مرتسمين عليها لحظة أن جئت..

لقد بدا لي أن محاولتي، أو مجرد تفكيري، أن أحقق أملي الدفين بالزواج من عزيزة، يعتبر نوعاً من الاستغلال الذي أربأ أن أنحدر إليه، بصرف النظر عما إذا كانت، هي، تبادلني مشاعري أم لا.. لقد كان حرياً بي أن أتقدم إليها، وأنا يد سفلى، أيام كانت يداً عليا، تنعم بأفياء العز الذي نشأت وعاشت فيه..

كان حرياً بي ، وأنا الصبي في بيت أبيها ، أن أتقدم إلى هذا الأب في حياته ، وأخطبها منه ، فإن وافق على ذلك فهذا شأنه ، وإن رفض فهذا حقه ، لأن موقفه إذ ذاك يكون - في الحالتين - نابعاً عن إرادة طبيعية وظروف طبيعية ، أما أن آتي اليوم ، وقد مضى أبواها إلى رحمة الله وسقطت هي فريسة المرض ، لأعرض عليها الزواج فهذا ما لا يمكن وصفه إلا بأنه استغلال .. واستغلال رخيص أيضاً .. فهي إذا قبلت فلربما كان قبولها بسبب ما هي فيه من ضعف ، ولسوف يظل مثل هذا الخاطر يؤرقني بعد ذلك طويلاً .. وهي إن رفضت ، كان الرفض صفعة لي ، تقتل كل ما يعتلج في قلبي من مشاعر المحبة التي ألهبت إرادتي ، وقوت عزيمتي ، وجعلتني أقطع المراحل الدراسية بتلك الكفاءة التي أدهشت الجميع ...

ونظرت إليها ..

كانت قد أخلدت إلى إغفاءة بدت لي عميقة ، فنظرت إلى دادة جمعة ورأيت على وجهها من معالم الراحة والاطمئنان ما لم يكن مرتسماً عليه عندما دخلت .. لقد أحدث قدومي شيئاً ما لدى هاتين المرأتين الضعيفتين ، فكان ذلك سبباً في أن أشعر بالإرتياح لقدومي ، ولو ضحيت بدراستي ومستقبلي كليهما ..

وابتسمت للدادة جمعة ، وسحبت يدي من يد عزيزة برفق وهمست :

- أنا ذاهب الآن يا دادة .. أعود غداً إن شاء الله .. وأرجو أن يكون كل شيء كما نتمنى ..

ولم تزد الدادة جمعة على أن رددت جملتها السابقة :

- فيك الخير يا سيدي أحمد .. فيك الخير يا ولدي .. جئت في الوقت المناسب ..

وخرجت من الغرفة أبحث عن الطبيب الذي يتولى علاج عزيزة .. وفي مكتبه رحب الرجل بي أجمل ترحيب ثم قال :

- هل لي أن أعرف صلتك بالمريضة ؟ .. آسف لهذا التطفل .. ولكنني أريد أن أعرف المدى الذي أستطيع أن أبلغه في الحديث ..

وترددت برهة قصيرة.. ماذا أقول له؟.. هل أقول له أنني كنت صبياً عند أبيها؟.. وعلى أي أساس، في هذه الحالة، يستطيع الرجل أن يحادثني ويصارحني؟..

وبدون انتباه مني، وجدتني أجيب الطبيب ببساطة:

– إنني.. إنني.. خطيبها.. أجل.. أنا خطيب الآنسة عزيزة..

ولدهشتي قال الرجل بشيء من الحدة التي حاول، على ما يبدو، التخفيف منها قدر استطاعته:

– خطيبها؟.. أين كنت يا أخي طوال هذه المدة؟.. لطالما سألت عن رجل ذي صلة قوية بها لكي أبحث معه أمرها.. هناك أشياء أريد أن أعرفها.. وما دمت خطيبها فربما أمكنك أن تجيبني على بعض الأسئلة..

وأجبت الطبيب بلهجة اعتذار:

– أنا آسف يا دكتور.. إن الظروف وحدها هي التي منعتني من القدوم قبل الآن.. هذه قصة طويلة لا أريد أن أزعجك بها.. يكفي أن أقول لك أنني لم أدر بمرضها إلا اليوم.. واليوم فقط..

فهتف الطبيب بدهشة شديدة:

– اليوم فقط؟..

– أجل.. كنت في الخارج.. إنني أدرس الطب في القاهرة.. لم يبق عليّ سوى سنة الإمتياز.. وقد حرصت العائلة على أن تخفي عني أنباءها السيئة إلى أن علمت بها بطريق الصدفة..

– آه.. فهمت..

– والآن يا دكتور.. هل تتكرم بإعطائي فكرة عن نوعية مرض الآنسة عزيزة؟..

– ليس بها شيء..

رد الطبيب بهدوء تام، فقلت أنا بذهول:

- ما هذا الذي تقوله يا دكتور؟.. وكيف؟.. إنها تبدو في أسوأ حالات المرض والإعياء.. بل إنني وجدتها في حالة أسوأ من تلك التي وصفوها لي قبل قدومي..

- اسمع يا أخ أحمد.. أنت، تقريباً، طبيب.. وسوف تفهم ما أقول جيداً.. المريضة ليس بها شيء.. أعني.. ليس بها أي مرض عضوي.. كل التحاليل والفحوص التي أجريناها كانت سلبية.. ومع هذا.. ومع هذا فهي.. مريضة جداً..

- عفواً يا دكتور.. لقد فهمت ما تقصده.. ولكن.. هل يمكن أن تتكرم بالإيضاح أكثر؟..

- أنت تعلم أن الطبيب لا يستطيع أن يفعل لمريضه شيئاً إذا لم يتعاون المريض معه.. لا سيما في الحالات التي يكون فيها للعوامل النفسية دورها في المرض..

- وهل تعتقد، يا دكتور، أن هذه الحالة تنطبق على الآنسة عزيزة؟..

- كل الإنطباق.. فهي لا تتعاون معي مطلقاً.. بل إنها تبدو لي عديمة الإكتراث بمصيرها بصورة مخيفة.. رغم أنني رجوتها مراراً أن تصارحني، على الأقل، بأسباب ذلك.. ولكنها لم تفعل..

وأطرقت مفكراً، أتساءل عن السبب في هذه الحالة، وفيم تتصرف عزيزة هكذا وهي ما تزال في مقتبل العمر وفجر الحياة..

وتذكرت كيف استقبلتني لدى رؤيتها إياي في غرفتها قبل لحظات، ثم كيف راحت تضغط على يدي بالقوة التي أسعفتها بها صحتها العليلة، فهذه ظواهر تحدث لأول مرة مذ عرفتها، ومذ عايشتها ذلك الزمن الطويل الذي مضى..

أتراها..

لم أجرؤ على مواصلة التفكير في احتمالات أخرى، وقطعت أفكاري عند هذا الحد، إذ لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية لكي أتساءل «أتراها تحبني؟..» وإذا كان الأمر كذلك فمتى كانت بداية هذا «الحب»؟

أهو قديم مثل حبي لها؟.. رحت أتساءل..

أم لأنها فرحت برؤيتي بصفتي الشخص الوحيد الذي بقي لها ممن كانوا يعيشون في منزل الشيخ عبد الحميد باستثناء دادة جمعة بالطبع؟..

أهي حاجتها للحماية والرعاية، تلك التي دفعتها لأن تخرج عن تحفظها التقليدي معي، وتبدي تلك الفرحة الصادقة بلقائي؟..

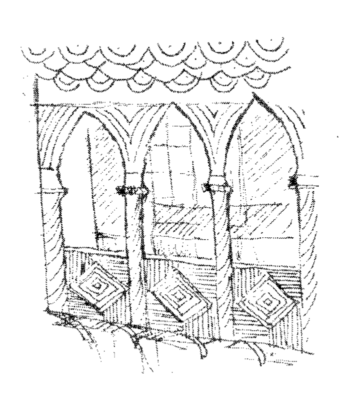
وانتبهت من أفكاري على صوت الطبيب وهو يقول لي:

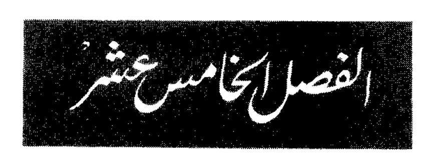
– إنك لم تبد لي رأيك يا سيد أحمد...

وأجبت حائراً:

– الواقع.. الواقع أنني فوجئت بما تقول يا دكتور.. فلو تركت لي فرصة للتفكير فلعلي أستطيع المساعدة في شيء ما..

– هذا ما آمله.. وإلا.. فإنني أخشى أن تضيع الفتاة من بين أيدينا..





الفصل الخامس عشر

وفي بيت العم تحسين، كانت لي جلسة طويلة معه ومع زوجته السيدة أم عمر...

لقد أصر العم تحسين على أن أنزل بضيافتهم طوال مدة وجودي في مكة، قائلاً أنه لا يرضى لي أن أنزل في أي مكان آخر ما دام بيته موجوداً..

ولقد أنست لمضيفي، لأنه كان المصدر الوحيد الذي أستطيع أن أستقي منه بعض المعلومات التي أتعطش إليها عما جرى خلال غيابي في البعثة..

ولم يكن لديه شيء كثير يضيفه إلى ما سبق أن رواه لي، ولكن أم عمر كانت تثير انتباهي باللهجة الخاصة التي تأتي بها على ذكر عزيزة أمامي، وكأنها تريد أن تقول لي شيئاً..

ولكن ما هو هذا الشيء؟..

هذا ما عولت على كشفه بالصبر والدأب والسؤال غير المباشر، خلال أحاديثي مع العم تحسين والسيدة أم عمر..

وبات برنامجي اليومي ، هو أن أذهب إلى المستشفى فأبقى إلى جانب عزيزة طوال النهار تقريباً ، ثم أعود إلى بيت العم تحسين حيث لا حديث لنا إلا عن عزيزة ووالديها الراحلين...

وكنت أحرص ، بطبيعة الحال ، على الإلتقاء بالطبيب الذي يتولى علاج عزيزة ، رغبة مني في متابعة حالتها الصحية..

وقال لي الطبيب مرة :

– يبدو لي يا أخ أحمد أننا ما نزال ندور في حلقة مفرغة.. إن حالة المريضة لم تتقدم.. وكنت آمل أن يحدث وجودك أثراً ما عليها ، يجعلها تتخلى عن لا مبالاتها فتحاول التجاوب معنا.. ومساعدتنا.. ولذا أرجو معذرتك عن تطفلي لو سألتك : هل بينك وبينها شيء؟..

فسألت باستغراب ودهشة :

– ماذا تعني يا دكتور؟.. وما هو «الشيء» الذي تتوقع وجوده؟..

– أنا آسف.. لا أريد التدخل في خصوصياتك أو خصوصياتها.. ولكنني مضطر لأن أسألك.. هل وقع بينك وبينها خلاف؟.. أو جفاء.. أو شيء من هذا القبيل؟..

فأجبته بسرعة :

– أبداً.. أبداً يا دكتور.. أؤكد لك..

فضرب الطبيب على مكتبه بقبضة يده في يأس وقال :

– هناك حلقة مفقودة.. هناك حلقة مفقودة.. ما هي؟.. لست أدري.. وهذا ما أتمنى أن أعرفه..

والواقع أن الطبيب بكلامه هذا ، قد أثقل عقلي بأفكار مشوشة لم أستطع التوصل معها إلى شيء..

لقد حاولت كثيراً أن أرتب أفكاري، وأن أسلسل الأمور وفق وقائعها ومدلولاتها..

قلت في نفسي: إن ما رأيته من عزيزة لدى أول لقاء كان يدل، ولا ريب، على نوع من العاطفة، هو أكثر من العاطفة العادية.. ولكن ما هي هذه العاطفة؟.. هذه هي «الحلقة المفقودة» التي تحدث عنها الطبيب والتي لا أستطيع - ولا أجسر - على أن أبحثها معها..

قد تكون تلك الحلقة المفقودة، أن عزيزة تشعر بحاجتها إلى رجل يحميها بعد أن باتت وحيدة أو شبه وحيدة.. ورأت فيّ هذا الرجل...

ولكن.. بأية صفة يمكن أن تستمر علاقتي معها، لأحميها، بعد أن انتهى عهدي بالخدمة وصرت على أعتاب الشهادة الجامعية في الطب مع ما تحمله هذه الشهادة من تباشير مستقبل أفضل؟..

أتكون هذه الصفة هي الزواج؟.. ولكن.. هل ترضى بأن تتزوجني وأنا الذي كان صبياً عند أبيها..

هل ترضى اليد العليا أن تمتد إلى اليد السفلى لتعاهدها على المشاركة في الحياة.. وفي المستقبل؟..

ولم أشأ أن أخدع نفسي بأن تعليلي هذا هو التحليل الصحيح، إذ لو كان صحيحاً لكان يجب أن تتحسن حالتها الصحية، ما دام الطبيب يؤكد بأنه لم يتحقق تقدم يذكر في حالتها..

ووجدتني أقرّ، ولأكن صريحاً، أن تحليلي هذا خاطىء من أساسه، وينبغي لي أن أستبعده، لأحاول البحث عن الحلقة المفقودة التي تحدث الطبيب عنها عبر مسلك آخر من مسالك التفكير...

وخطر لي رأي آخر..

أتراها تكنّ لي عاطفة مثل عاطفتي ، والانسان لا سيطرة له على مثل هذه العاطفة ، ولكن نظرتها إلي كصبي كان يعمل في بيت أبيها ، تجعلها تكبت مشاعرها لأنها ذات يد عليا كانت تعطي يدي السفلى ما أعانني على أن أحقق ما حققت في مجال الدراسة والتقدم في الحياة ؟ . .

لقد شعرت بالدماء تتجمد في عروقي باردة ، بل مثلجة ، وأنا أفكر في هذا الإحتمال ، لا خرج منه بنتيجة مؤكدة هي أنني أكون – في هذه الحالة – قد خسرت عزيزة نهائياً ، وأنه لا أمل لي قط في حياة زوجية معها ، حتى لو تمت ، وهي تنظر إليّ من موقع فكرة اليد العليا واليد السفلى . .

ودارت بي الأرض في هذه الدوامة من التفكير ، وشعرت بإعياء شديد ينتابني لدرجة وجدت نفسي معها عاجزاً عن تقليب الأمر على وجوهه المختلفة ، وأنني جدير بأن أصاب . إذا أنا استرسلت ، إما بجنون أو بانهيار عصبي نتيجة لهذه السلسلة المتلاحقة من الأفكار التي لا أعرف لها بداية من نهاية . .

وصحوت على نفسي ، وقلت بأن كل هذا البحث سابق لأوانه ، وأن ما عليّ الآن هو أن أكرس نفسي وجهدي واهتمامي للخروج بعزيزة مما هي فيه الآن ، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر ، فهذا واجبي ، وإزاء الواجب لا يجوز – كما قرأت – أن يتردد الإنسان أو يتهيب . . .

وشعرت بشيء من الراحة عندما توصلت إلى هذه النتيجة ، كما شعرت بأن لله تعالى ، وحده ، أن يصرف الأمور كما قدرها ، وهو المستعان ، وهو الذي كتب لنا أقدارنا ومصائرنا . .

وقلت للسيدة أم عمر في إحدى الليالي :

– لي طلب خاص أرجوه منك يا خالتي أم عمر . .

وردت السيدة على الفور:

- مرحبا يا بني.. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟..

- أريدك أن تذهبي معي والعم تحسين الآن..

فسألتني بدهشة:

- إلى أين نذهب في هذه الساعة وقد تجاوزنا منتصف الليل؟..

- نذهب إلى الحرم الشريف..

- مرحبا يا بني.. ولكن لماذا؟..

- أريد أن نلجأ إلى الله تعالى في هذا الثلث الأخير من الليل.. أريد أن نلجأ إليه في هزيع الليل يا أم عمر.. ونسأله سؤال المضطر.. فهو مجيب المضطر إذا دعاه.. وهو يكشف السوء..

وتدخل العم تحسين في الحديث قائلاً:

- مرحبا يا بني.. إن ثقتنا بالله عظيمة.. والله يا بني يسمعنا حيثما كنا.. وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.. هو يسمعنا ويقول ادعوني استجب لكم.. إننا نستطيع أن ندعوه في كل مكان.. وفي أي مكان..

وقالت أم عمر وكأنها تكمل حديث زوجها:

- صدقني يا بني أنني أدعو لها دائماً من كل قلبي...

- شكراً لك يا خالة.. ولكنني أريد أن تلبوا طلبي..

- لا بأس.. ولنجعلها إذن ليلة جمعة.. فهي ليلة مباركة بإذن الله..

وفعلاً.. ذهبنا جميعاً، العم تحسين وزوجته وأنا، إلى الحرم الشريف، فطفنا بالبيت، وصلينا في الحجر، وعند الملتزم، ورحت أدعو ودموعي تسيل على خدي..

لقد بكيت كما لم أبك في حياتي من قبل.. بكيت بكاء العبد العاجز الضعيف أمام ربه القادر العظيم.. وانتظرنا حتى صلاة الفجر فصليناها، ثم خرجنا وقد شعرت بكثير من الراحة، فلقد غسلت الدموع الغزيرة آلامي فشعرت بيقين أن الله لن يخذلني، وانه لا بد وأن يحقق أملي طال الزمن أم قصر..

وفي المستشفى قال لي الطبيب المعالج:

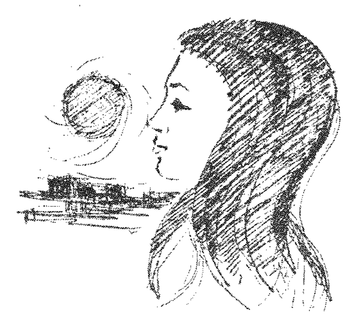
– تريد رأيي يا أخ أحمد؟..

– بالطبع يا دكتور..

– إنني أرى أن تترك عزيزة المستشفى.. وأن تذهبوا بها إلى البيت.. فليس لها عندنا، أكثر مما فعلنا، علاج.. ومن يدري؟.. لعل جو البيت المختلف عن جو المستشفى يعيد لها ما فقدته من صحتها.. ويجعلها أكثر رغبة في مساعدتنا على العلاج.. ولن أتأخر، من جهتي، عن زيارتها في أوقات منتظمة..

واستشرت العم تحسين في الموضوع، فوافق عليه وأيده، وخطر لي – في آخر لحظة – أنه قد يكون من المستحسن أن نذهب بعزيزة إلى الطائف، فلقد بدأ فصل الصيف، ولعل جو الطائف ونسيمها العليل يفلحان في تغيير حالتها، صحياً ونفسياً، إلى الأحسن..

وعرضنا على عزيزة ما ارتأيناه، فوافقت دون تردد، وهكذا انتقلنا إلى الطائف لقضاء بعض الوقت فيها وكانت تلك أول مرة أزور فيها هذه المدينة منذ ذلك الصيف الذي حصلت فيه على الشهادة الثانوية وما غيّر هذا، بعد ذلك، من مجرى حياتي...



الفصل السادس عشر

لقد حرصت خلال الفترة التي قضيناها في الطائف ، على تهيئة الأجواء لعزيزة كما كانت تعيشها قبل أن أفترق عن العائلة في البعثة . .

وفي بادىء الأمر ظلت عزيزة على حالتها من الكآبة والوجوم ، وظلت معرضة عن تناول الطعام فلا تتبلغ منه إلا بلقيمات بعد رجاء وتوسل وتحايل من قبل الدادة جمعة . .

ورحنا نتجول في أرجاء الطائف ، نستعيد ذكرياتنا مع المرحوم الشيخ عبد الحميد والمرحومة زوجته ، أم عزيزة ، فنجتمع مرة في « ليه » ومرة في « المثناة » وثالثة في « الهدا » ونستجلي جمال هذه المناطق الساحرة ، ونقضي فيها أوقاتاً ممتعة . .

وبدأت ألاحظ تغييراً واضحاً على عزيزة ، إذ أصبحت تقبل على الطعام بشهية أكثر ، ولكنها ظلت قليلة الكلام ، وإن أصبحت أكثر استجابة لدعاباتي ونكاتي التي كنت أنتهز كل فرصة لإلقائها ، ترفيهاً عنها وترويحاً عن نفسها . .

ومع كثير من السعادة والإرتياح ، كنت ودادة جمعة نراقب التقدم المستمر في صحة المريضة الغالية ، وانفتاح شهيتها للطعام أكثر فأكثر، وميلها للمرح ، الأمر الذي جعلنا نستبشر خيراً والذي سر له العم تحسين الذي كان يتردد علينا في الطائف بين الحين والآخر ، وكان يصطحب معه أحياناً زوجته أم عمر..

وكنت دائم الإتصال بالطبيب الذي كان يعالجها ، لأطلعه على حالتها أولاً بأول ، فكان يبدي سروره وأنا أخاطبه على الهاتف ، لما أبلغه إياه من أنباء تحسن صحة عزيزة ، ويوجه لي بعض التعليمات والنصائح التي كنت أعرف الغاية منها بحكم خبرتي كطالب طب..

وأخيراً عدنا إلى مكة وقد عوفيت عزيزة تماماً.. ولكن «الحلقة المفقودة» التي أشار إليها الطبيب ظلت «مفقودة» حتى تلك اللحظة..

فمن جهتي ، حرصت على معاملة عزيزة نفس معاملتي السابقة لها ، من حيث التزام حدودي ، وعدم تجاوزها في المداعبة والمزاح ، والقيام على شئونها كأخ..

وكان سرورها بالغاً عندما قدمت لها الهدايا التي كنت قد جئتها بها هي ووالدتها ، إذ لم أكن أعلم بوفاة الوالدة ، ودادة جمعة..

وشعرت بأن كل شيء قد غدا في البيت على ما يرام ، وان عليّ أن أقدم على خطوة ضرورية ، أرتب فيها شئوني وشئون عائلتي ، بمن فيها أهلي في «بني فهم» – أبي وأمي وإخوتي – وأهلي في مكة – عزيزة ودادة جمعة – وهكذا توجهت إلى «بني فهم» حيث كان اللقاء بيني وبين أهلي بعد تلك الغيبة الطويلة..

وانفردت بوالدي ، ليلة وصولي ، أخاطبه فيما يدور في ذهني :

– أنت تعلم ، يا أبي ، أن عزيزة قد أصبحت وحيدة.. ليس لها بعد الله سوانا.. وأنا

أرغب في استئناف بعثتي لأكمل دراستي وأحصل على الشهادة بعد أن أصبحت قاب قوسين أو أدنى منها.. ولذا فقد خطر لي أن نسكن جميعاً في مكة.. أعني.. أنت والعائلة، وأعود أنا إلى بعثتي..

وفكر أبي طويلاً قبل أن يجيبني:

– يا بني.. أنت تعلم أن حياتنا هنا تختلف كثيراً عن الحياة في مدينة كبيرة كمكة وسواها من المدن.. فنحن تعودنا على الحياة وسط الحقول والبساتين.. حتى إننا لنضيق بحياة المساكن التي توجد في المدن.. إننا مرتبطون هنا بأرضنا التي نفلحها ونزرعها.. خذ والدتك مثلاً.. إنها ما زالت على نضارتها ونشاطها وكأنها شابة في مقتبل العمر.. وهذا عائد ولا شك إلى الحياة الريفية التي تحياها والتي تختلف كثيراً عن حياة المدن.. لا.. لا يا ولدي.. إنني أفضل أن تبقى العائلة هنا..

ولم أجرؤ على أن أصارح أبي بأنني أتوقع أن تتاح لي فرصة الزواج من عزيزة، وأنني أفضل – والحالة هذه – أن يلتئم جمعنا كلنا في مدينة واحدة.. فمثل تلك المصارحة تستدعي أن أكون متأكداً مما سيكون، أو على الأقل شبه متأكد من أن هذه الغاية هي في متناول يدي.. مع أنني، عملياً، ما زلت أراوح في مكاني منذ أن عرفت عزيزة وإلى هذه اللحظة..

ولاحظ أبي وجومي واستغراقي في التفكير، ولعله حسب أنني قد تأثرت لموقفه هذا، فربت على كتفي مواسياً وهو يقول:

– على كل حال.. أنت ستعود لاستكمال دراستك.. ومن الآن وإلى أن تعود يخلق الله ما لا تعلمون.. فدع الأمور لأوقاتها..

ولم أجد بداً من موافقة أبي على رأيه هذا، فودعت العائلة وقفلت راجعاً إلى مكة، وفي قلبي صراع عنيف بين رغبتي في استئناف دراستي، ورغبتي في البقاء إلى جانب عزيزة.. ولكن قصر المدة التي سوف أغيبها هذه المرة، جعلني أرى أن من الضروري أن أستأنف دراستي حرصاً على السنوات الطويلة التي قضيتها في الدراسة إلى أن وصلت إلى سنة الإمتياز..

ورحت أعجب من تفكيري ، وأنا في طريقي إلى مكة ، كيف كدت أصارح أبي بتوقعاتي وأملي في أن تكون عزيزة زوجة لي .. وحمدت الله على أنني لم أجد الجرأة الكافية لفتح باب هذا الحديث معه ..

ولكن ذلك لم يمنع خيالاتي المجنحة من أن تطير بعيداً لأتصور – لأول مرة في حياتي – ما يمكن أن تكون الأمور عليه فيما لو قيض لي الزواج من عزيزة .. وكنت أعزي نفسي بأن هذه مجرد خيالات ، وأنه لا يوجد من يحاسبني عليها ما دامت محبوسة داخل صدري وفي أعماق وجداني ..

لسوف يرتبط مستقبلي بمستقبلها .. وتمتزج حياتي مع حياتها ..

كانت ، تلك ، صورة شديدة التألق ، عظيمة الجمال ، وهي تمر بخاطري ..

ورحت أتخيل « زوجتي » و« شريكة كفاحي » بعد أن أصبح طبيباً يشار إليه بالبنان ، وكيف سنقوم معاً ، أنا وهي ، بزيارة الأهل في القرية ، لترى المكان الذي ولدت فيه وعشت سنواتي الأولى ، والذي قضيت فيه من عمري تسع سنوات تقريباً ..

وتخيلت كيف سيكون لقاؤها الأول بأمي وإخوتي .. لسوف يحبونها بكل تأكيد ، كما أنها سوف تحبهم .. وكما هي عادتي كلما فكرت في هذا الموضوع ، لم يلبث عقلي أن قبض بشدة على ناصية عاطفتي ليحول بينها وبين الإسترسال في هذه الخيالات ..

ووجدتني أفكر كيف سأستسمح عزيزة في السفر للبعثة مرة أخرى .. إنني سأخاطبها بادئاً حديثي ، كعادتي ، بقولي : عمتي عزيزة .. ثم أشرح لها الأمر وأؤكد لها أن غيابي هذه المرة لن يطول بإذن الله .. والواقع أنني منذ تماثلت عزيزة للشفاء ، كنت قد بدأت باتخاذ الترتيبات والاستعدادت اللازمة لكي تسير حياة عزيزة ودادة جمعة سيراً طبيعياً خلال غيابي ، فما كان قد بقي علي سوى اللمسات الأخيرة على تلك الترتيبات ، وبعدها أستطيع السفر على بركة الله ..

ووصلت مكة أخيراً، وتوجهت إلى البيت لأفاجأ بوجود دادة جمعة في الدهليز الأسفل على غير عادتها، وقبل أن أبدي دهشتي لذلك، كانت قد ضمتني إليها بشوق وأمومة وهي تهنئني بسلامة العودة..

وقلت لهامتضاحكاً:

– ايش الحكاية يا دادة جمعة؟.. أنا لسه يا دوبي مسافر.. ما غبت إلا يومين.. ايش اللي يخليكي تشتاقيلي كده؟..

ونظرت إليّ المرأة صامتة برهة ثم قالت فجأة:

– تعال يا بني.. أريد أن أتحدث إليك..

وتمهلت في كلامها ثم استطردت قائلة بلهجة حاسمة أقلقتني:

– أريد أن أتحدث إليك بصراحة.. بكل صراحة..

فلم أجد بداً من أن أقول لها:

– مرحبا يا دادة.. انني أحب حديث الصراحة..

وجلسنا معاً في إحدى الغرف، ورحت أنظر إلى دادة منتظراً أن تبدأ الحديث وقلبي يدق بعنف..

وبدأت المرأة حديثها بداية غريبة، فقد أخذت تتحدث عن المرحوم الشيخ عبد الحميد وزوجته المرحومة أم عزيزة، وأشارت إلى ذكرياتها الطويلة معهما، وأبدت أسفها لرحيلهما، ثم حدقت بي فجأة وقالت:

– اسمع يا أحمد.. أنت شاب في مقتبل العمر.. ودراستك على وشك الإنتهاء.. ألم تفكر في الزواج؟..

كانت الطريقة التي ألقت بها دادة جمعة سؤالها عليّ مفاجئة تماماً، فشعرت وكأنني طريدة قد أحكم الصيادون الحصار حولها فما عادت تجد مهرباً..

وبلعت ريقي عدة مرات ثم أجبت بصوت مرتبك :

– الحق .. الحق يا دادة .. أنني فكرت في الزواج .. ولكنك تعلمين .. أن هناك أشياء يجب عليّ إنهاؤها أولاً ..

فسألتني دادة بهدوء غريب :

– ما هي هذه الأشياء يا ترى؟ ..

فحولت بصري عنها وأنا أجيب بنفس الإرتباك :

– هناك الدراسة أولاً .. لم يبق عليّ سوى أقل من سنة واحدة ..

فقالت بلهجتها الجادة نفسها :

– هذه أولاً .. ثم ماذا؟ ..

قلت محاولاً أن أتمالك نفسي من أن تفضحني كلمة تفلت مني على غير قصد :

– هناك أيضاً .. الزوجة نفسها .. انني أتمنى من الله تعالى أن يهيىء لي الفرصة للزواج من الإنسانة التي أعتقد أنني سأجد السعادة معها ..

وسألتني دادة بلهجة أوحت لي بأن سؤالها هو للإحراج وليس للإستفهام :

– هل تعني أن هناك إنسانة معينة .. أم أن لديك مواصفات خاصة تريدها أن تتوفر فيمن ستكون زوجتك؟ ..

ولقد تأكدت ، بعد أن انتهت من إلقاء سؤالها ، أنها طرحته عامدة متعمدة ، وأن جوابي ، بالتالي ، سوف يفضح ما في قلبي ..

ولم أحر جواباً ..

وقالت دادة بإصرار الصياد الذي عزم عزماً أكيداً على الإيقاع بفريسته :

– هه.. انني أنتظر الجواب.. لا شك في أنها إنسانة سعيدة الحظ تلك التي ستختارها.. أو اخترتها..

ولم أتكلم..

فانحنت المرأة عليّ وحدقت في وجهي وهي تقول :

– لقد اتفقنا على أن نتحدث بكل صراحة.. أليس كذلك؟..

– نعم.. ولكن ..

– لم تتردد في الإجابة إذن؟..

ودون أن أشعر، وجدتني أكشف القناع، وأحسر الأستار عن السر الذي ظل دفين صدري سنوات طوالا، فقلت بسرعة :

– إن الإنسانة التي أفكر فيها بعيدة المنال.. ولم أجرؤ يوماً على أن أصارح أياً كان بما في قلبي نحوها..

– ومن تكون هذه الإنسانة يا ولدي؟..

– إنك تعرفينها..

فتساءلت دادة جمعة ببطء وهدوء دلا على أن جوابي لم يكن مفاجئاً لها على الإطلاق :

– عزيزة؟..

– صه.. اخفضي صوتك...

– ولماذا أخفض صوتي؟..

– قد تسمعك..

وماذا إذا سمعتني؟.. ما الذي يحدث؟..

ولم أدر بم أجيب..

وساد الصمت بيننا بضع دقائق ثم تكلمت دادة جمعة بلهجة فيها من حنان الأمومة ودفئها الشيء الكثير:

- لماذا أخفض صوتي؟.. إن عزيزة تفخر بك كثيراً.. وفي رأيي أنها هي الأخرى تتمنى لو قدر لها الزواج منك.. لقد كنت شهماً ونبيلاً إذ وقفت إلى جانبها هذه الوقفة في محنتها..

- ها قد وصلنا إلى العقدة التي لا حل لها..

قلت الجملة الأخيرة في نفسي، ثم أجبت دادة معلقاً على كلامها:

- لا يا دادة.. أرجوك.. لا تخلطي الأمور ببعضها.. إنني لم أقف إلى جانبها لكي آخذ منها شيئاً لقاء ذلك.. كانت هذه الوقفة واجبي الذي يحتمة عليّ الإعتراف بفضل هذه العائلة الكريمة علي..

وتوقفت لألتقط أنفاسي المتسارعة ثم أردفت:

- لقد عشت، يا دادة، في هذا المنزل سنوات عديدة.. ووجدت فيه رعاية لا يلقاها الانسان إلا من كرام الناس وأفاضلهم مثل هؤلاء.. ولقد شهدت بنفسك جانباً كبيراً مما لقيت من فضل العم عبد الحميد، يرحمه الله، فهو الذي وجه حياتي ودفعني إلى أن وصل بي إلى الجامعة.. وخلال ذلك كله كنت أنظر إلى عزيزة على أنها عمتي.. ولقد حرصت على أن أطرد من ذهني أي تفكير في إمكانية أن تكون من نصيبي لأنه لا سبيل إلى ذلك.. لا سبيل..

- ولماذا يا بني؟.. أنت ولله الحمد تملك كل مقومات الشاب الناجح..

- ربما.. ولكن لا تنسي يا دادة أنني كنت طوال عمري يداً سفلى في هذا المنزل.. تتلقى العطاء من الأيدي العليا..

ولم تكد دادة جمعة تسمع مني هذه العبارة حتى استقامت في جلستها ، ووجهت إليّ نظرة تأنيب وقالت بلهجة كلها دهشة واستنكار :

– ماذا ؟ .. يد سفلى ؟ .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. يؤسفني أن أسمع منك مثل هذا الكلام وأنت الشاب المتعلم .. إنك ، يا بني ، لم تكن يداً سفلى في يوم من الأيام في هذا المنزل .. فاليد السفلى هي التي تتسكع وتسأل الناس إلحافاً ..

اليد السفلى ، يا بني ، هي التي تلتقط فتات رزق الناس ، وربما دونما حاجة ..

اليد السفلى ، يا بني ، هي للناس الذين يذهبون ليسألوا الناس .. وأنت لم تسأل أحداً غير الله ..

لقد عرفتك يا بني وعرفت نشأتك في هذا المنزل .. لقد كنت دائماً شاباً كريماً عفيف النفس .. وكنت تكسب رزقك بعرق جبينك .. والذي يكسب رزقه بعرق جبينه لا يقال عنه أنه يد سفلى ..

اسمعني يا أحمد يا ولدي .. أنت مخطىء في هذه النظرة .. مخطىء من الأساس .. وكان واجباً عليك ألا تكتم مشاعرك طوال هذه المدة .. كان يجب أن تصارح عزيزة .. وأن تبثها ما في قلبك ..

أنت شاب تتمناك كل إنسانة .. ويحبك كل إنسان .. فيك كل المقومات التي تدعو الإنسان للإعتزاز بمثلك من الشباب .. علماً وثقافة وشباباً وخلقاً .. يا بني احمد الله على ما آتاك وحاول دائماً أن ترفع رأسك وأن تنظر إلى الحياة نظرة جادة وصادقة وواقعية .. ويجب ألا أسمع منك بعد الآن مسألة اليد السفلى هذه .. يجب ألا تفكر في ذلك أبداً .. بل دعني أصارحك أكثر من ذلك أن نقطة الضعف فيك التي آلمتني هي شعورك بأنك يد سفلى .. مثلي لا يعلمك يا بني .. أنا أنسانة أمية أو شبه أمية .. ولولا ما علمنيه الشيخ عبد الحميد يرحمه الله وزوجته من آيات القرآن الكريم والصلوات والأوراد ما كنت لأعرف شيئاً قط .. وأنت الإنسان المتعلم تأتي وتقول إنك يد سفلى ؟ .. وتشعر بذلك ؟ .. لا .. لا .. يا

أحمد.. يجب أن تصرف هذه الفكرة عنك تماماً.. يجب أن تدرك أنك شاب على أبواب المستقبل وعليك أن تكون واقعياً.. وأن تكون قوياً.. في الوقت الذي تكون فيه متواضعاً.. ولا تترك لهذه الأوهام والهواجس سبيلا إلى نفسك..

كنت أصغي إلى المرأة الامية أو شبه الامية، على حد قولها، بذهول شديد، فما كان يخطر ببالي أبداً، وأنا الإنسان المتعلم، أن أنظر إلى الأمر من الزاوية التي نظرت دادة جمعة منها.. ومع كل جملة من كلامها اللاهب حماسة وانفعالاً، كنت أرى الأمور تتغير في نظري.. وأحس بروح جديدة تدب في جسدي، وكنت أستغرب أن يصدر هذا الكلام الناضج الدال على الحكمة من هذه المرأة البسيطة، وأن أحبس نفسي – أنا الإنسان الجامعي – وراء قضبان فكرة «اليد السفلى» التي سيطرت عليّ ونغصت حياتي طوال تلك السنين..

لقد هزتني كلمات دادة جمعة حتى الأعماق، ولكن بقيت – مع ذلك – رواسب من الخوف من أن ترفضني عزيزة فإذا كنت أنا قد اقتنعت، أخيراً، بأنني لست يداً سفلى، فمن لي بمن يقنع عزيزة بذلك؟..

وبصوت مرتجف قلت لدادة جمعة:

– كلامك معقول جداً يا دادة جمعة.. وربما كنت أنا على خطأ فعلاً.. ولكن بالنسبة لعزيزة.. هل..

وقاطعتني دادة جمعة قبل أن أكمل كلامي، وكأنها تعرف ما سأقول، وقالت بنفس لهجتها الحماسية المنفعلة:

– عزيزة؟.. إذا كنت ترغب فيها فتوكل على الله.. توكل على الله وصارحها.. وإذا أردت صارحتها أنا.. بل إنني لا أخفي عليك يا ولدي أنها تفكر فيك مثلما تفكر فيها..

وكان هذا نبأ جديداً عليّ.. فحدقت في دادة جمعة بذهول وصحت بفرح طاغ:

– صحيح؟.. صحيح يا دادة؟..

– أجل صحيح يا بني.. لقد كانت تتحدث عنك كثيراً.. بل لم يغب ذكرك عن لسانها وبالها أبداً...

– إذن.. لماذا لم تصارحني؟.. لماذا لم تلمح إلى ذلك على الأقل؟..

– هناك أسباب كثيرة لا تخفاك.. منها تربيتها الرفيعة التي تعرفها.. ومنها أنها كانت تتوقع أن تكون قد ارتبطت بإنسانة أخرى في الخارج.. بعد أن سافرت وعشت هناك تلك السنوات..

وهتفت بلوعة وألم معلقاً على كلامها:

– أرتبط بإنسانة أخرى؟.. كيف يكون ذلك وأنا الذي لم تفارق صورتها خيالي منذ أن عرفتها؟.. إن حبها، وأقول هذا لأول مرة بصوت مسموع، قد ملك عليّ كل مشاعري وأحاسيسي..

– إنني أعرف ذلك يا بني.. ولكنها قالت لي مرة بصورة غير مباشرة شيئاً من ذلك.. أنت تعرف كبرياء المرأة.. ولقد صارحتها أنا أكثر من مرة بأنني عرفت سرها.. وعرفت ما تكنه لك من محبة وتقدير.. بل إنني اقترحت عليها أن تصارحك بذلك فأبت..

وتنهدت الدادة قبل أن تستطرد:

– ايه.. إنني أرى نفسي أمام شاب وشابة قد ملك الحب عليهما نفسيهما وهما مع ذلك يأبيان المصارحة.. ويفضلان عليها عذاب الكتمان والحرمان..

– لقد قلت لك الأسباب يا دادة..

– قلت لي الأسباب؟.. وهل هذه أسباب؟.. هل نسيت يا بني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعمل عند خديجة رضي الله عنها وتزوجها ولم يجد في ذلك أي حرج؟.. إنك تعلم، وأنت الإنسان المتعلم، أن لنا في رسول الله أسوة حسنة..

– آه يا دادة.. لست أدري ماذا أقول لك، إنك تعرضين الأمور بصورة لم تخطر ببالي من قبل أبدا.. وتريها سهلة وبسيطة بينما كنت أراها صعبة وفي مثل ضخامة الجبل...

- والآن قل لي.. هل ترغب في الزواج من عزيزة؟..

- أحسب إنك تعرفين الجواب..

- دعني إذن أتدبر الأمر..

- كيف يا دادة؟.. ماذا ستفعلين؟..

- سوف أتحدث مع أم عمر في الموضوع.. وسأطلب منها أن تخاطب العم تحسين ليتحدث إلى عزيزة..

- أم عمر؟.. إنك تذكرينني بشيء..

- ما هو؟..

- لقد سمعتها تتحدث عن عزيزة أكثر من مرة كما تحدثت أنت.. أثنت على تربيتها الرفيعة.. وعلى حظ من تكون من نصيبه.. وكنت أتساءل دائماً ما إذا كانت تقصد من كلامها هذا شيئاً..

- لست أعجب لذلك.. بل إنني أتوقع أن تكون قد تحدثت إلى عزيزة مثلما تحدثت أنا إليك..

- إنني أترك لك التصرف كما تشائين.. ولن أنسى لك هذا المعروف أبداً..

- استغفر الله يا ولدي.. هذا ليس معروفاً.. إنه واجب علي نحوك ونحوها على السواء.. وكل ما أريده منك هو أن تكون كما أريدك أن تكون.. قوة وثقة بالنفس وبعداً عن الهواجس.. هواجس اليد السفلى واليد العليا..

وقلت لها وقلبي يكاد ينفجر من الفرح:

- أعدك بذلك.. أعدك يا دادة.. وأقسم لك..

وراحت دادة جمعة تربت على كتفي مرة أخرى، ثم جذبتني من يدي وصعدنا معاً إلى أعلى..

كانت عزيزة جالسة على مقعد مواجه للنافذة المطلة على الحديقة ، وما إن رأتنا حتى ابتسمت ابتسامة جذابة ورحبت بنا . .

ودار الحديث بيننا عادياً . .

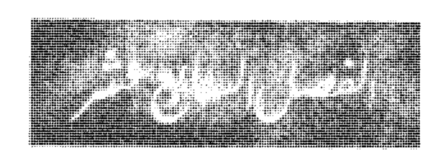
تحدثنا عن الجو ، وكيف أن الصيف قد مضى ، وعن جو مكة – يعمرها الله – في الشتاء ، وكم كنت أحن اليه وأنا خارج البلاد في البعثة . .

ولئن كنت قد اشتركت في الحديث ، فقد كان ذلك بلساني فقط ، أما عقلي فكان مشغولاً بشيء آخر ، فأنا الآن أنظر إلى عزيزة ، وأتحدث إليها ، من زاوية أخرى لم أنظر منها قبلاً ، ففي السابق كنت أرى بيني وبينها هاجس اليد السفلى واليد العليا ، حسب تعبير دادة جمعة ، فكنت أخاطبها كشيء بعيد المنال لا سبيل للوصول إليه . . أما الآن فأنا أشعر بها أقرب إليّ لدرجة لم تمر بي في السابق . . فلم يبق إلا أن يخاطب العم تحسين عزيزة في الموضوع . .

وخشيت أن يشي صوتي أو حركاتي بشيء مما في خاطري ، فنهضت مستأذناً لقضاء بعض الأمور خارج المنزل .

ولما كنت تلك أول ليلة لي في مكة منذ عودتي من القرية ، فقد أعدت لي دادة جمعة ما يلزم لأنام مساء مكان المرحوم الشيخ عبد الحميد بجوار المكتبة في الدور السفلي . .





وسارت الأمور كما رتبها دادة جمعة تماماً..

تحدثت إلى أم عمر التي فرحت فرحاً عظيماً، كما قالت لي دادة جمعة بعد ذلك، وتنهدت قائلة بابتهاج:

- أخيراً تحرك ذلك الشاب.. إنهما والله لائقان لبعضهما..

وتحدثت أم عمر إلى زوجها العم تحسين الذي رحب هو الآخر، ثم زارنا في اليوم التالي، قائلاً انه يريد أن يرى عزيزة ويخاطبها في أمر مهم، وغمز لي بعينه باسماً وهو يقول هذا الكلام، فتضرج وجهي، وشعرت أن من الأفضل أن أغادر المنزل خلال ذلك الحديث، وخرجت فعلاً بعد أن أبلغت العم تحسين أنني سأزوره في منزله بعد صلاة الظهر..

وسرت في شوارع مكة، أتجول فيها دونما هدف محدد، وأنا أشعر بالإنفعال يتملكني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، فالآن - في هذه اللحظة بالذات - يدور الحديث بين

العم تحسين وعزيزة، حول أمل العمر لكلينا.. الآن يحسم الأمر الذي ظل يؤرقني سنوات وسنوات..

وقادتني قدماي إلى نفس المقهى الذي جلست فيه مع أبي أول يوم لي في مكة، فشعرت برغبة شديدة في أن أمضي فيه بعض الوقت، أحتسي الشاهي على طريقتي الخاصة، وأعيد ترتيب أفكاري، وأتطلع - لأول مرة - إلى المستقبل من زاوية جديدة..

كنت أشعر بارتياح عظيم، وكان الثقل الذي ناء به كاهلي قد زال أو كاد، ورحت أستعيد أحداث حياتي كلها، وأتوقف ملياً عند كل موقف لعزيزة فيه نصيب، فأفسره على ضوء ما قالته لي دادة جمعة، لأجده مع دهشتي، منسجماً كل الإنسجام مع سواه من المواقف، فلقد كشف لي حديثي مع دادة جمعة «الحلقة المفقودة» التي تحدث عنها الطبيب، وحاولت، أنا، عبثاً أن أصل إليها..

تلك الحلقة المفقودة كانت، بكل بساطة، قلبين ارتبطا ببعضهما ارتباطاً روحياً طاهراً وعفيفاً، ولكنهما لم يجرؤا - كلاهما - على أن يصرحا بما يعتلج فيهما..

لقد كان عند عزيزة مثل ما عندي من المحبة والرغبة في الارتباط برباط الزوجية، ولكنها بعفتها وتربيتها وأخلاقها، أبت أن تصارحني. وأنا بهاجس «اليد السفلى» أبيت أن أصارحها..

وتساءلت: ترى هل كنت مخطئاً؟.. ألم يكن جديراً بي أن أوفر على نفسي عذاب تلك السنين الطوال وأن أصارح عزيزة بما أكنه لها من الحب؟..

وجاءني الجواب على الفور: لا.. لم أكن مخطئاً.. كان سلوكي هو السلوك الأخلاقي الوحيد اللائق بي كانسان يعترف بالفضل ويحفظ الجميل.. ولنفرض أنني صارحتها ولم يكن لمصارحتي هذه صدى في نفسها.. أفلا يعتبر ذلك انتقاصاً من واجبي كإنسان يدين لأبيها وأسرتها بالفضل؟..

أجل.. إن الأمر كذلك.. ولست نادماً على أن تركت نفسي فريسة للعذاب والقلق، فكل هذا يهون إزاء احتمال ألا يكون لي في نفسها مثل ما لها من نفسي..

وتنهدت بارتياح، وشعرت بأن كل شيء على ما يرام.. وأن الحلقة المفقودة قد وجدت، وأن البشرى في انتظاري عند العم تحسين إن شاء الله..

وتمتمت بحمد الله على أن آلت الأمور إلى هذه النتيجة، فرشفت ما بقي في «بيالة الشاهي»، ودفعت حسابي وتوجهت بخطى متعجلة إلى منزل العم تحسين..

* * *

وكأنما كان العم تحسين بانتظاري ليبلغني بما تم، إذ ما كدت أقرع باب منزله مرة واحدة، حتى فتح الباب على الفور، وظهر العم تحسين نفسه وراءه، وقد أشرق وجهه بابتسامة عريضة وجدت فيها الجواب المأمول حتى قبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة..

وفي مجلس المنزل، كانت زوجته أم عمر جالسة وقد ارتسمت السعادة والإرتياح على وجهها..

– لم يستغرق الأمر سوى دقيقة واحدة أو دقيقتين.. وبعدها كان كل شيء كما كنا نأمل والحمدلله..

هكذا بدأ العم تحسين حديثه وهو يضحك، ويزجي إلي بنتيجة مسعاه لدى عزيزة..

ثم استطرد قائلاً:

– لم أكد أصارحها بما جئت من أجله، حتى أغمضت عينيها، واسترخت في مقعدها بارتياح وكأنها كانت في انتظار مثل هذه المصارحة منذ زمن طويل..

وهمست أنا من أعماق فؤادي:

– الحمد لله.. الحمد لله..

وتدخلت أم عمر في الحديث قائلة :

– عجيب أمرك أنت وعزيزة.. تكتمان في قلبيكما هذه العاطفة كل تلك السنين.. وتتعذبان كل ذلك العذاب.. وكان بوسعكما أن تكونا أسعد زوجين حتى قبل هذا الوقت..

ولم أشأ ، من جهتي ، أن أعيد الحديث عن «الأسباب» التي كانت تحول دون ذلك ، فلقد اعتبرتها صفحة من الماضي ، طويت مع آخر كلمة من حديثي مع دادة جمعة ، فضلاً عن أنه يعتبر من الشئون الخاصة التي لا يجوز لي أن أتحدث فيها مع أي كان..

واكتفيت بأن أجبت أم عمر قائلاً :

– إنها الظروف يا خالة أم عمر.. كنت مشغولاً بالدراسة كما تعلمين..و..

فقاطعتني قائلة بسرعة :

– الدراسة؟.. وما شأن الدراسة في هذا الأمر؟.. وهل تحول هذه دون ذاك؟.. إذن فاعلم يا ولدي بأن عزيزة قد صارحتني أكثر من مرة بما في قلبها نحوك.. بل لقد بكت على صدري ما طاب لها البكاء يوم سافرت في بعثتك.. لم تجرؤ على أن تخاطب أبويها ، يرحمهما الله ، في الأمر كما لم تجرؤ على أن تصارح دادة جمعة.. فقد كانت تخشى أن يدفعها ولاؤها لأبويها لأن تكشف لهما السر.. أنا وحدي التي صارحتني وحدثتني وخاطبتني.. وعرفت إذ ذاك أي حب نبيل طوت عليه جوانحها نحوك ولهذا ليس بوسعك أن تقدر مدى فرحتي حين رأيتك قد عدت لدى سماعك بنبأ وفاة المرحوم الشيخ عبد الحميد.. ثم حين رأيت معالم الهلع على وجهك وأنت تسمع نبأ مرض عزيزة.. لقد كدت يومها أن أصارحك لولا أنني كنت مرتبطة بقسم أقسمته لها بأن أكتم سرها عن الجميع حتى عن زوجي..

فابتسم العم تحسين وقال لها مداعباً :

– آه يا أم عمر.. كيف يقولون أن المرأة لا تستطيع أن تكتم سراً؟..

فضحكنا واستأنفت أم عمر حديثها :

– لقد حاولت أن ألمح لك من خلال أحاديثي معك بعد عودتك.. كنت حريصة على كتمان السر.. ولكنني كنت حريصة على أن يتحقق أمل عزيزة.. وكنت على ثقة بأنها إذا كان الله تعالى قد كتب لها الحياة فإن شفاءها سيكون بعد أن تراك وبعد أن يئست من كل شيء بعد وفاة أبيها وبقي أملها في الله وحده.. وها هو، سبحانه وتعالى، قد استجاب لرجائها وحقق آمالها..

وساد صمت قصير، كانت السعادة والإرتياح يرفرفان خلاله على جو الغرفة، حين قطعه العم تحسين قائلاً :

– والآن.. ماذا تنوي أن تفعل؟..

وأجبته دون تردد :

– نتكل على الله وننهي إجراءات القران..

– على بركة الله..

قالتها أم عمر، وقالها العم تحسين، وقلتها أنا، وبيننا شعور مشترك بأن كل شيء قد بات على ما يرام، وأن المسألة قد باتت مسألة إجراءات ليس إلا..

وخلال الأسبوعين اللذين انقضيا على ذلك اليوم، كنا جميعاً في أشد حالات الإنهماك في إكمال إجراءات القران..

وذهبت إلى القرية حيث اجتمعت بأبي وأمي وأخوتي وأزجيت إليهم بالنبأ..

ولم يصدق أبي بادىء الأمر، وسألني بلهجة المتشكك الذي يريد أن يتأكد مما يسمع :

– تعني عزيزة ابنة المرحوم الشيخ عبد الحميد؟..

– أجل يا أبي.. إنها هي.. بعينها..

فرفع رأسه إلى السماء وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال بصوت متهدج :

– الحمد لله.. ما أكرمك يا رب..

وقالت والدتي بزهو الأم التي تفخر بما أنجبت :

– لقد أصبح ابني شاباً تفخر أية فتاة بأن تكون زوجة له.. وإن هي إلا سنة أخرى ويصبح «دختور»..

وأعقبت ذلك بزغرودة عالية ، أنهت بها النبأ إلى أهل القرية الذين أقبلوا للسلام عليّ وتهنئتي..

ورافقت أبي وأمي وأختي الكبيرة إلى مكة ، حيث أقاموا في «منزلنا» معززين مكرمين..

وحمدت الله على أن أمي وعزيزة قد تبادلتا المحبة لدى أول لقاء ، فلقد دخلت كل منهما قلب الأخرى ، وتبادلتا العناق والقبلات.. وكذلك الشأن مع عزيزة وأختي..

وسارت الأمور كما اشتهيت وكما تمنيت دوماً ، وكان حفل القران بسيطاً ، احتل فيه مكان الصدارة أبي والعم تحسين والشيخ باقيس..

وهكذا طويت صفحة الهواجس التي طالما آلمتني وأشعرتني بالتعاسة والشقاء ، وصرت أتطلع إلى المستقبل بكثير من الأمل والرجاء ، بعد أن أصبحت عزيزة زوجتي.. أجل.. بعد أن أصبحت عزيزة زوجتي..

وانفض السامر وعاد أهلي إلى قريتهم..



الفصل الثامن عشر

وجلست إلى عزيزة أحدثها ، في محاولة لرسم صورة لحياتنا المشتركة في المستقبل . .

وأنهيت إليها رغبتي في السفر إلى القاهرة لاستئناف المرحلة الأخيرة من دراستي ، والحصول على البكالوريوس في الطب ، وعرضت عليها أن ترافقني إلى هناك . .

ومع ابتسامة من ابتساماتها العذبة ، قالت لي :

– اسمع يا أحمد . . لقد أصبحت زوجي . . وأصبحت زوجتك . . لك الأمر وعليّ الطاعة . . وفي تقديري أن أبقى هنا خلال الفترة التي ستغيبها لأن في نفسي أملاً أريد أن أحققه . .

وسألتها باستغراب عن هذا الأمل لأساهم معها في تحقيقه فأجابت :

– عندما كنت في المستشفى . . كان أشد ما يؤلمني في الأوقات التي أخلد فيها للتفكير هو ما آل إليه حال البيت بعد أن توفي أبي ، رحمه الله ، ولقد آليت على نفسي أنه إذا ما تحقق ما كان يدور في خلدي . . ومنّ الله تعالى عليّ بالشفاء ، فسأعيد البيت إلى سيرته الأولى . .

فسألتها باسماً وأنا أعرف الجواب سلفاً :

– وما هو ذاك الذي كان يدور في خلدك؟..

فبادلتني ابتسامتي وهي تجيب :

– أن يكتب الله لي أن أكون من نصيبك وتكون من نصيبي..

وصمتت وهي تطرق في خجل ، فقلت لها :

– لقد منّ الله علينا بهذه الأمنية المشتركة.. ولسوف نعيد إلى البيت بهجته كما كان..

– إن هذه البهجة لا تتم بغير أن يعود البيت كما كان مقصداً لطلاب العلم ممن كانوا يترددون عليه وينهلون مما حوت مكتبته من ثمين المؤلفات.. أريد أن أخصص يوماً في الأسبوع ، يقصد أولئك الطلاب فيه البيت.. كما كانوا يفعلون أيام الوالد رحمه الله.. وأخصص لهم من يشرف على راحتهم ويؤمن لهم الطعام..

وتذكرت هذه الصورة التي رسمتها عزيزة بعبارات موجزة ، فلقد كان هذا شأن البيت ، أيام سيده الراحل ، فقلت لها :

– على رسلك إذن.. افعلي ما تشائين.. فكل ما يرضيك يرضيني..

وبينما نحن في هذا الحديث ، دخلت دادة جمعة فجأة ، ووقفت أمام الباب وعلى وجهها أبلغ معالم التأثر والسعادة وقالت :

– ما شاء الله.. تبارك الله.. الحمد لله الذي أقر عيني بهذا المنظر.. وقيض لي أن أراكما مجتمعي الشمل.. إنني لعلى يقين ، يا ست عزيزة ، أن والدك ووالدتك يرحمهما الله ينامان الآن قريري الأعين بعد أن أكرمها الله بسلامتك ولم يضيعك.. بل قيض لك الكسب الكبير..

فابتسمت وقلت لدادة مداعباً :

– أنت تعتبرينني إذن كسباً كبيراً يا دادة جمعة؟.. هذا لطف منك ومبالغة بلا ريب..

فأجابت بحرارة:

- أبداً والله لست أبالغ.. فإنني أعتبرك جزاء من الله تعالى وفضلاً.. فقد كان أبواها صالحين كما تعلم..

- نعم يا دادة.. جزاهما الله عنا كل خير.. وله الحمد والشكر على ما آلت إليه الأمور.. وإني لن أنسى، يا دادة، فضلك عليّ ورعايتك لي ولعزيزة، لقد كنت لي أماً وصديقة.. وكان لمصارحتك إياي وتبصيرك لي بحقائق الأمور فضل فيما انهينا إليه والحمد لله.. لقد كنت، والحق يقال، مستشارة ناجحة.. وناجحة جداً..

- أنا؟.. مستـ.. مستشارة؟..

وضحكت دادة، وضحكنا كلنا، وكنت أشعر بكل جارحة فيّ تنبض بالحمد والشكر لله الذي هيأ لي هذه السعادة التي كنت أظنها حلماً بعيد المنال..

وعدنا للحديث عن ترتيباتنا المقبلة، سواء بالنسبة لاستئناف بعثتي الدراسية، أو بالنسبة لإعادة البيت إلى ما كان عليه أيام الشيخ عبد الحميد يرحمه الله..

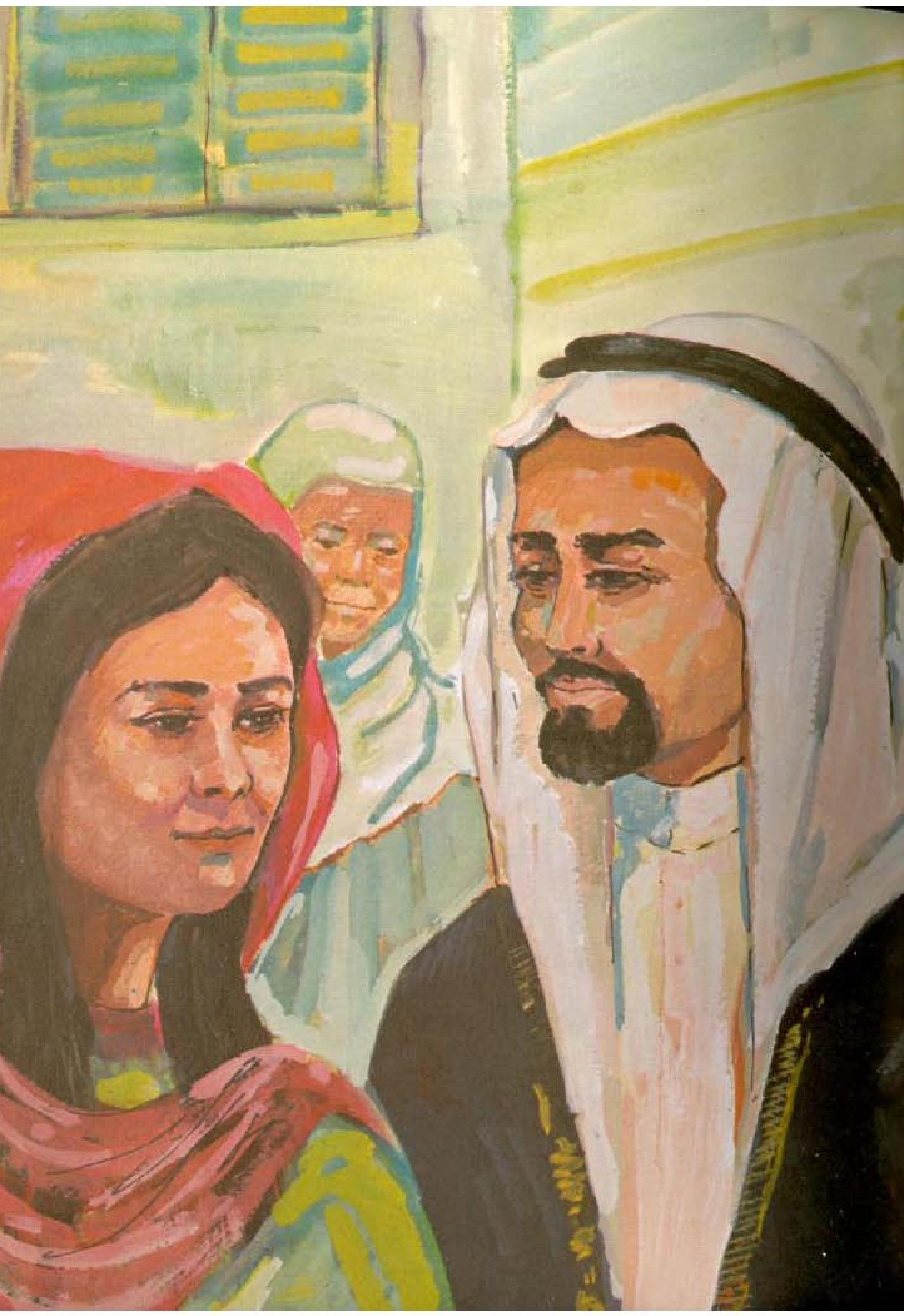
وطرق باب البيت..

وكان القادم هو الأستاذ عبد الرزاق، صاحب فكرة ابتعاثي للدراسة الجامعية.. والذي قدم لي أجلّ المساعدات لتحقيق هذه الفكرة..

وهنأني الرجل بالزواج، وقال لي أن بطاقة الدعوة قد وصلته أثناء غيابه في الرياض، وحين عاد بعد أن فات الموعد، رغب في أن يحضر بنفسه إلى مكة ليبلغني أطيب تهانيه..

وتشعب بنا الحديث، وكان الأستاذ عبد الرزاق يثني ثناء عاطراً على التقديرات الممتازة التي حققتها خلال الدراسة الجامعية، والتي تصله صورة عنها بحكم عمله في وزارة المعارف..

وسألني الأستاذ عما سأفعله لإتمام دراسي، وهي سنة الإمتياز، وهل سأصطحب زوجي معي فقلت له:



– الواقع ، يا أستاذ ، أن هذا هو ما أفكر فيه.. وقد صارحت العائلة بذلك.. ورغبت في اصطحابها معي ولكن لديها ، هنا ، مشاغل تمنعها من مرافقتي..

ففكر الأستاذ برهة ثم قال :

– اسمع يا بني.. لقد خطر لي خاطر.. ربما كان فيه حل لهذا الإشكال..

– إنني مصغ لك يا أستاذ.. ولن أنسى لك الفضل في أن ابتعاثي إنما كان من افكارك وتم بإشرافك..

– لقد بقيت عليك سنة الإمتياز فقط.. أليس كذلك؟..

– نعم..

– وسنة الإمتياز هذه تقضيها في أحد المستشفيات لتطبق ما تعلمته تحت إشراف أحد الأساتذة..

– تماماً..

– إنني أعتقد أن بإمكانك أن تقضي سنة الإمتياز هذه هنا.. في أحد مستشفيات المملكة.. إذ لا يخفاك كم تقدمت البلاد خلال السنوات التي غبت فيها.. وهناك بعض الأساتذة الزائرين الذين يمكنهم الإشراف عليك.. فبعضهم متعاقدون لمدة طويلة.. فما رأيك؟..

– هل تعتقد أن هذا ممكن يا أستاذ؟..

– من الناحية النظامية ممكن.. والأمر يحتاج ، فقط ، لبعض الترتيبات.. وهذه دعها لي..

– كأن الله تعالى قد قيض لي أن تكون ذا فضل علي دوماً..

– استغفر الله.. استغفر الله يا بني.. الفضل لله وحده.. دع هذا الموضوع لي.. وسأخبرك بما يتم معي خلال أيام قلائل..

وخرج الأستاذ ، وذهبت إلى عزيزة مسرعاً أنبئها بما قال ، فأشرق وجهها بفرح شديد وقالت :

– ما أكرمك يا رب .. لئن تم ذلك فإن سعادتي سوف تكتمل لأننا لن نفترق أبداً ..

وإن هي إلا فترة وجيزة حتى جاءني من الجامعة خطاب رسمي ، يبلغني أن بإمكاني أن أقضي فترة الإمتياز في أحد مستشفيات المملكة مع جميع التفاصيل اللازمة الخاصة بهذا الموضوع .

* * *

وهكذا شاءت إرادة المولى ، وهي فوق كل إرادة ، أن تتحقق أحلامي ، كبيرها وصغيرها ، بعد أن كنت – إلى شهر واحد خلا – يائساً ، بائساً ، حائراً ، لا أدري ماذا أصنع ، وتلك الهواجس تملك علي تفكيري وتحكم تصرفاتي ..

ورتبت أموري على أساس البقاء إلى جانب زوجتي الحبيبة ، وبدأت في تنفيذ فكرتها النبيلة بجمع شمل طلبة أبيها ، فرحت أتردد على الحرم الشريف ، أبحث عنهم واحداً واحداً ، وأنبئهم بما تم العزم عليه ، وأخذوا – من جانبهم – ينبئون بعضهم بعضاً ، وبدأوا يتوافدون على البيت في منظر جميل أعاد الأيام الخوالي إلى سابق عهدها ..

وأشرفت بنفسي على شئون أولئك الطلبة ، وأحضرت بعض رجال العلم من أصدقاء المرحوم الشيخ عبد الحميد وهكذا عاد البيت سيرته الأولى ، كموئل للعلم والفضيلة ، فكنا نستقبل الطلبة ، لا سيما أولئك الذين حضروا من أندونيسيا رغبة في طلب العلم وتعلم اللغة العربية ..

ولم يعد ينقص البيت شيء عما كان عليه أيام الشيخ عبد الحميد ، فلقد عاد إلى ما كان عليه إشراقاً وبهجة وما كان يسعدنا ، أنا وعزيزة ، شيء قدر رؤيتنا للطلبة وهم يدخلون ويخرجون كما كانوا يفعلون من قبل ..

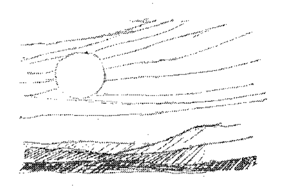
وأصل إلى هذا الشوط من ذكريات حياتي ، التي كتبتها على فترات متقطعة وحسبما سمحت لي مشاغلي كطبيب يشار إليه - كما يقال - بالبنان..

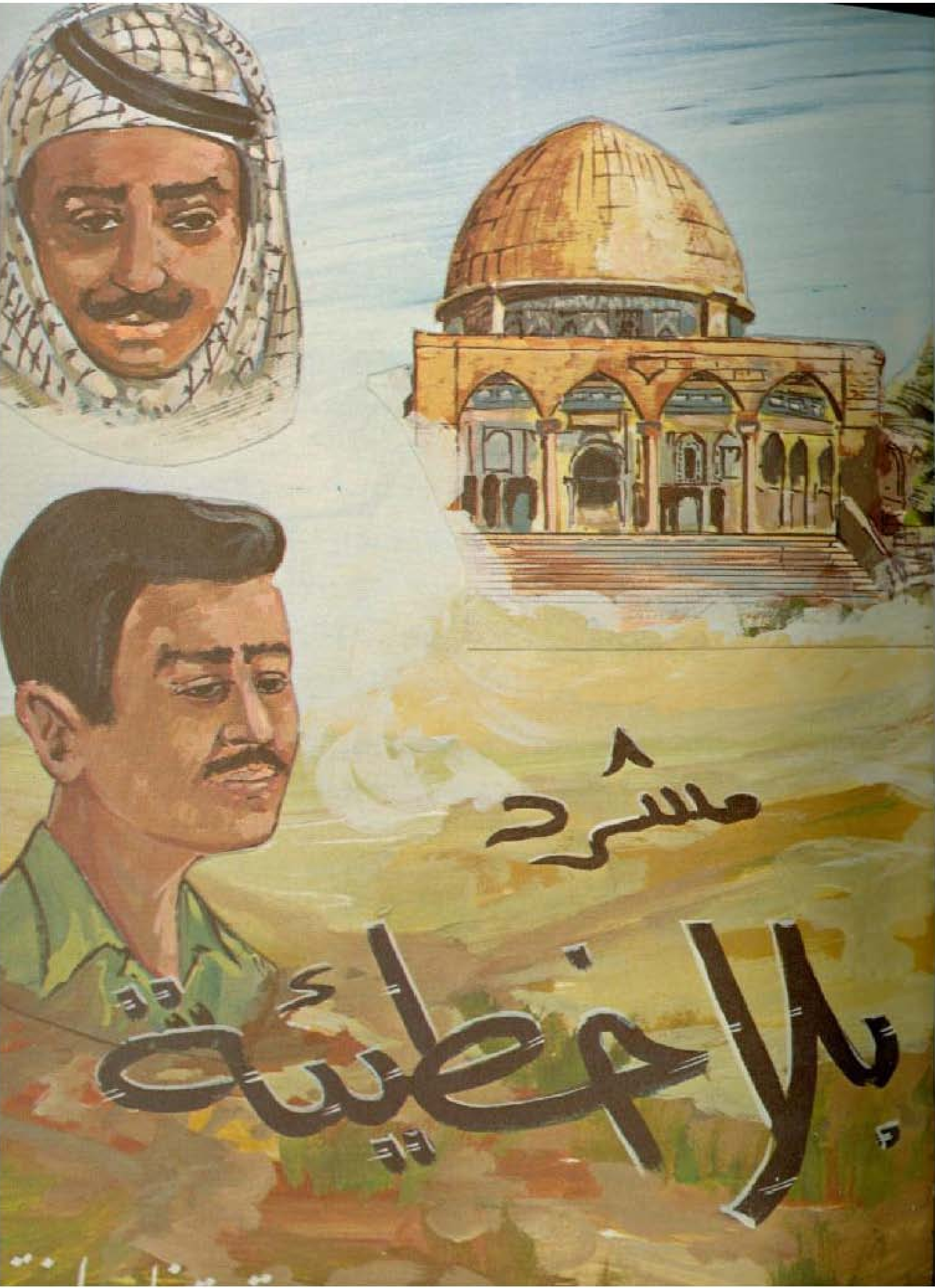
وأختمها ، وأنا في أقصى ما يمكن أن يطمع فيه إنسان من سعادة يخيم عليها الرضى عن كل شيء..

وعلى مقربة مني يجلس ولدي «عبد الحميد» الصغير الذي أكرمنا الله تعالى به ، يداعب دادة جمعة وتداعبه ، بينما انهمكت عزيزة في شغل الإبرة..

وألقي ، من مكاني ، نظرة على الحديقة المزدهرة بنتاج الربيع ، الضاحكة بزهوره الملونة ، والعصافير ، كعادتها في مثل هذا الفصل من كل عام ، تصدح بزقزقاتها الأليفة ، وتذكرني بالصوت نفسه ، قبل نيف وعشرين عاماً ، حين جاء الصبي أحمد بن عيضة إلى هذا البيت ، وسمع هذا الصوت قبل أن يفتح له باب البيت ليلج منه إلى حياة ومستقبل لم يكونا يخطران له على بال..

وأختلس نظرة إلى دادة جمعة ، وهي جالسة تداعب عبد الحميد الصغير ، وأهز رأسي في عجب ، فلقد عشت تحت وطأة عقدة «اليد السفلى» طوال ما مر من حياتي ، قبل أن تأتي هذه المرأة الأمية لتقول لي ما غاب عني - وأنا الجامعي - وهو أن الإنسان إنما يقيم بأعماله وأخلاقه ، وإن اليد السفلى وهم باطل لدى المجدين العاملين ، وأن الإنسان يكون أو لا يكون ، بقدر ما يعطي الحياة ، والناس ، والمجتمع ، من ذات نفسه وروحه ، من العمل والجد والتضحية والإخلاص...



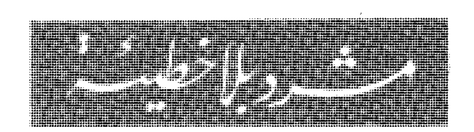

مسرح
بلا خطيئة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء ..

الى كل برئ قاسى من ألم التشرد
وقسوة الضياع ..
بلا وجه حق ودون ذنب أو جريرة
والى كل منصف ينادى بإعطاء كل ذى حق حقه
الى هؤلاء .. اهدى قصة الطفل الفلسطيني ..
ابراهيم وأبويه .. وجدته وشعبه
اهدى قصة أولئك الذين شردوا من ديارهم
وأكرهوا على الخروج منها .. بل وأكرهوا على الخروج
حتى من مخيماتهم أكثر من مرة .. ودون ان يجدوا
جوابا على سؤالهم الحائر .. لم هذا التشرد
ولم هذا الضياع دونما ذنب ولا خطيئة .
انها قصة اغتيال امة على مرأى من التاريخ ..
ولك يا بنى .. يا ابراهيم الفلسطيني الصغير .. اقدم صورة
من كفاحك .. وعزيمتك الصادقة .. وأنت امل أمة
ومستقبل قضية .. وعدة جهاد .. وانت رغبة جامحة
فى سلام داخل وطن هو بقايا وطن .. تشردت منه
بلا خطيئة

محمد عبده يمانى



دق جرس المدرسة ، مؤذناً بانتهاء دروس ذلك اليوم . .

وخرج الأطفال يتصايحون في براءة ، وقد حملوا كتبهم وكراريسهم ، وراحوا يتفرقون إلى مختلف الإتجاهات ، عائدين إلى منازلهم . . في بلدة « عين كارم » التي لم تكن تبعد عن القدس أكثر من ثمانية كيلومترات . .

كان الأطفال – شأنهم في ذلك شأن كل أطفال العالم – يشعرون بأنهم أخوة أكثر مما هم أصدقاء ، لا سيما وأن بلدتهم صغيرة ، وكل أهلها يعرفون بعضهم ، وفيهم من ارتبط بقرابة أو مصاهرة . . كانت المدرسة تضم المسلم ، والمسيحي ، ويهوديين اثنين فقط ، هما « يوري » و« راشيل » . . ولدا « حاييم » تاجر الزيت الذي اعتاد أن يشتري ، كل موسم ، إنتاج الحاج أبو ابراهيم من زيت الزيتون الفاخر ، والذي تربطه بالحاج رابطة صداقة قوية ، وعمل مستمر ، كما كان الحاج يبادله صداقة بصداقة ويعامله كأنه واحد منهم . .

لقد كانوا جميعاً فلسطينيين ، يشعرون بالإنتماء إلى الأرض الواحدة ، رغم أن « حاييم »

لم يكن قد مضى عليه أكثر من ربع قرن وبضع سنين منذ أن هاجر إلى فلسطين ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ووضع فلسطين تحت الإنتداب البريطاني . .

ولكن أحداً ما ، من الفلسطينيين الأصليين ، لم يحاول أن يسيء إلى حاييم بكلمة أو إشارة ، فهم يعرفون الظروف التي هاجر فيها ، ويعرفون أنه إنسان مسالم ، لم يتحدث في السياسة قط ، ولا حاول أن يعلق بحرف ، سلباً أو إيجاباً ، على الإضطرابات التي كانت تجتاح فلسطين ، والصراع ما بين العرب واليهود ، والثورات التي قام بها العرب ، والأعمال التي قام بها الإرهابيون اليهود . . كل ذلك لم يكن يعني « حاييم » – تاجر الزيت – في شيء . . وظل يمارس حياته بصورة طبيعية تماماً في « عين كارم » متعايشاً مع الآخرين ، الذين كانوا ، كما هي شيمتهم ، يحرصون على الحفاظ على شعوره ، وحمايته خلال الأحداث والإضطرابات التي كانت تتصاعد يوماً بعد يوم ، مع اقتراب موعد الجلاء البريطاني عن فلسطين ، وتصاعد عمليات العنف من الطرفين العربي واليهودي . .

إلا أن « عين كارم » كانت – حتى ذلك الحين – بعيدة عن الأحداث . .

صحيح أن بعض أهلها كانوا يساهمون في الأعمال الفدائية بصورة سرية ، ويكدسون الأسلحة التي يستولون عليها خلال معاركهم الخاطفة مع الإنجليز واليهود ، إلا أن نار القتال لم تصل – بعد – إلى البلدة التي كانت على مسافة ثلاثة كيلومترات ليس غير من قرية « دير ياسين » التي احتلت – بعد ذلك – مكانة ملحوظة في سجل الإعتداءات الوحشية الإسرائيلية . .

وسار الأطفال الثلاثة ابراهيم ويوري وراشيل معاً ، متشابكي الأيدي ، متجهين إلى دار أبو ابراهيم ، فاليوم سيزور « حاييم » صديقه الحاج ويشتري منه إنتاجه من الزيت ، وقد جرت العادة – في مثل هذه المناسبة – على أن يستضيف الحاج أبو ابراهيم زبونه حاييم وولديه ، فيأكلون ويشربون ، ثم يقضيان شطراً من الوقت في الحديث والسمر ، بينما ينهمك الأطفال في ألعاب لا تنتهي ، وأصواتهم ترتفع في هدأة الليل . .

وبدا حاييم مهموماً كثير التفكير في زيارته هذه.. ولاحظ عليه الحاج أبو ابراهيم ذلك وسأله عن السبب فقال له بلهجة كلها تشاؤم:

— لست أدري يا حاج.. الأمور تسوء يوماً بعد يوم.. والعنف يتصاعد من جميع الأطراف.. وأخشى أن يأتي يوم نضطر فيه للإفتراق..

ونظر إليه الحاج بدهشة صادقة، وقال:

— نفترق؟.. لم؟.. لقد عشنا عمراً مديداً معاً في هذه البلدة.. وأنت تعلم أننا لم نمد يد الأذى إلى أي يهودي ممن كانوا يقيمون في فلسطين منذ سنوات طوال.. وأنت واحد من هؤلاء.. فهل حدث لك ما يزعجك؟..

— لا.. والحق أن أهل البلدة يعاملونني أحسن معاملة، ويتعاملون معي بصدق وأمانة وإخلاص،. ولكنني أتساءل.. إلى متى يدوم ذلك؟.. ومتى تصل نار القتال إلى عين كارم؟..

— ما هذه الأوهام يا رجل؟.. إنك تعرف الأخلاق العربية جيداً..

— أجل.. ولكنني أعرف أيضاً أخلاق قومي.. أعني.. الأخلاق اليهودية..

— ماذا تقصد؟..

— لست أقصد أكثر مما أسمع وأرى.. ان زعماء اليهود يعلنون تصميمهم على إقامة دولة يهودية في فلسطين..

— دعهم يقولون ما يشاؤون..

— وهم يلجأون إلى العنف في محاولة تحقيق مأربهم هذا.. ألم تسمع بالأعمال الإرهابية التي تقوم بها عصابات «الهاجانا» و«شتيرن» و«الأرغون»؟.. إنها تعيث في فلسطين فساداً ولا ينجو من شرها حتى جنود السلطة البريطانية الذين يحمونها.. بل لقد علمت أنهم نسفوا السفارة البريطانية في روما..

– وأنت .. ما رأيك في هذا؟..

– لقد قلته لك.. إننى أخشى، وأتخوف، من أيام عصيبة مقبلة، يوم يخرج الإنجليز من فلسطين ويدعون العرب واليهود وحدهم وجهاً لوجه...

– اسمع يا صديقي.. هذا البلد هو بلدي.. إنني ما عرفت لنفسي، ولا لعائلتي، عبر مئات سلفت من السنين سواه.. وهذه الأرض أرضي.. اشتراها جدي الأكبر بعشرين ليرة ذهبية عثمانية.. وعمل فيها من بعده جده وأبي ثم انتقلت إليّ.، وهأنت تراني أعطيها من جهدي وعرقي كل شيء على مدار العام.. وإنني باق فيها ما أراد الله لي أن أبقى.. فإذا كان هناك، عندكم، من يدعي غير ذلك، فليس له عندي شيء..

– إنك لا تفهمني يا أخي الحاج.. إنني إنما أروي لك آرائي، وأعرض لك مخاوفي من واقع الأحداث التي تجري من حولنا، وليس من واقع أن هذه أرضي أو أرضك..

– أرجوك يا حاييم دعنا من هذا الموضوع.. ولنتكلم فيما هو أهم..

– يبدو لي أنك لا تشعر بما يدور حولك من أحداث..

– بلى.. أنني أشعر.. ولكنني لا أسمح لها بأن تدع الفزع يتملكني..

– في رأيي أن تهجر أرضك ولو إلى حين.. إنك تعلم أن هناك مستعمرتين يهوديتين تقومان با لقرب من بلدتنا عين كارم.. هل تظن أنهما ستقفان مكتوفتي الأيدي إذا ما خرج الإنجليز وبقي العرب واليهود وحدهم؟..

– كأنك تريد أن تقول لي شيئاً..

– لقد قلته.. إنني أنصحك بأن تهجر عين كارم.. إلى حين تستتب الأمور ويوضع للإضطرابات حد.. أنت تعلم، ولا ريب، أن الأمم المتحدة ومجلس الأمن مهتمان كل الإهتمام بهذا الموضوع..

– قلت لك أن هذه أرضي.. ولن أتزحزح منها.. فهل لك أن تتحدث في موضوع آخر؟..

والحق أن الحاج أبو ابراهيم شعر بما يشبه الإلهام ، أن شيئاً ما قد حدث في نفسية صديقه القديم «حاييم» .. شيئاً ما لا يدري ما هو على وجه التحديد .. فهو يعرف حاييم منذ سنوات وسنوات .. صحيح أنه يهودي .. وأنه دخل البلاد قبل زمن بصورة غير شرعية ، إلا أنه – مع هذا – لم يشعر نحوه بأي مقت أو كراهية .. ولم يكن هذا شعوره وحده .. كان شعور أهل البلدة العرب جميعاً ، وفيهم المسلم وفيهم المسيحي ، فهم لم يسمحوا لأنفسهم ، قط ، بأن ينظروا إلى حاييم نظرة خاصة .. بل هم قبلوه كواحد منهم ، ووقف الأمر لديهم عند هذا الحد ..

ترى ماذا يريد حاييم أن يقول لي ؟ ، تساءل الحاج في داخله ، وهو يرى إلى حاييم يتناول طعامه بهدوء ، ومع أن وجهه لم يكن ينم عن شيء ، إلا أن الحاج – بإلهامه ذاك – شعر بأنه لم يعد يطمئن إلى جليسه وضيفه ، وأن إصراره على الحديث عن الهجرة ، والاضطرابات القائمة ، والأيام العصيبة المتوقعة ، إنما هو حديث مهيأ سلفاً ، وليس مجرد خاطر طرأ له في حينه ..

وعادت إلى ذاكرته أيام أبيه المرحوم ، لقد كان أبوه يقول في جلساته مع أهله وأصدقائه ، أنه لم ير قوماً لا يمكن الثقة بهم ، والاطمئنان إليهم كأولئك اليهود .. لقد دخلوا فلسطين متسللين ، وأقاموا فيها يبنون مستوطنات ذات طراز غريب لم تعهده فلسطين من قبل ، انها – كما كان أبوه يقول – قد عاشت مئات السنين في سلام ووئام .. وفيها أهلها من المسلمين .. وفيها أهلها من المسيحيين من جميع المذاهب دون استثناء .. وفيها أقلية من اليهود .. فما حاول أحد أن يعزل نفسه ، ويحيطها بالشكوك والريب سوى اليهود ، إنهم يغلقون على أنفسهم أسوار مستوطناتهم فما يعلم أحد شيئاً عما يدور فيها .. لقد سمعت أنهم يبنون مخابىء تحت الأرض ، وأنهم يخزنون المؤن والأسلحة والأموال فيها .. ماذا يريدون ؟ .. ماذا يهيئون .. بم يحلمون ؟ .. أصارحكم القول ، يا اخواني ، أنني غير مطمئن إليهم ..

ولم يكن أحد من سامعي أبيه يعترض على قوله هذا ، فقد كانوا جميعاً يلاحظون ، ما يلاحظ ، ويقلقون كما يقلق ، ويتساءلون عما يريد اليهود كما يتساءل ، فكانوا ينتهزون أية

فرصة للصدام مع اليهود، حتى إذا ما مالت الكفة إلى صالح العرب جاءت القوات البريطانية بدباباتها ومصفحاتها وجنودها، تنصر اليهود، وتحول دون اقتراب العرب من المستعمرات اليهودية وعالمها الخفي..

وإذ وصل الحاج أبو ابراهيم في أفكاره إلى هذا الحد، شعر بالقلق يتسلل إلى نفسه، وشعر – بل تأكد – من أن أسئلة حاييم واقتراحاته وتلميحاته لم تكن عفو الخاطر أو بنت ساعتها، بل إنها مدبرة، ومهيأة، وأن هذا اليهودي الذي كان يعتبره صديقاً وزميلاً وابن وطن طول حياته، لا يبادله صفاء نيته بمثلها، وانه يخفي غير ما يظهر، وأن السنوات الطوال التي قضاها، وهو اليهودي الوحيد، في عين كارم، لم تفلح – على ما يبدو – في بناء جسور من المحبة والتفاهم والألفة بينه وبين أهل البلدة رغم حسن معاملتهم له..

وانتبه أبو ابراهيم من أفكاره على صوت حاييم يقول له بصوت ضاحك، ولكنه في برودة الثلج:

– ماذا بك يا حاج؟.. إلى أين وصلت في أفكارك.. نصف الألف خمسمائة كما يقولون..

ورفع أبو ابراهيم رأسه، وسدّد نظره إليه، وركز عينيه على شفتيه الباسمتين، فشعر بالقشعريرة تسري في جسده، وانه يجالس ذئباً متنكراً في تلك الملابس التي لا تختلف في شيء عن ملابس سواه من أهل البلدة، عدا سوالفه الطويلة وقبعته السوداء..

وتضاحك أبو ابراهيم، ورد على حاييم بعبارات قصيرة.. ولكن القلق الذي انتابه لم يتخل عنه، بل لقد زامله –بعد ذلك– طوال ما تبقى من حياته...

* * *

في الجانب الآخر من البيت، كان الأولاد الثلاثة قد تعبوا من اللعب والجري في أرجاء المزرعة، فانتحوا مكاناً أسفل إحدى الشرفات المطلة على المزرعة، وراحوا يتحدثون..

قال ابراهيم :

– غداً هو يوم الجمعة.. سأذهب مع أبي إلى القدس لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى.. هل تأتي معنا يا يوري؟..

ورفع الطفل اليهودي حاجبيه بدهشة وهو يجيب :

– أنا؟.. وما أصنع معك ومع أبيك؟.. إن يوم الجمعة هو يومكم أنتم.. أما نحن فيومنا هو يوم السبت..

ولم يفهم ابراهيم ما قصد إليه يوري تماماً، فقال له :

– ماذا تعني بقولك يومنا ويومكم؟.. ألسنا جميعاً أبناء وطن واحد؟..

وتبادل الطفلان اليهوديان نظرة خاصة ثم قال يوري بارتباك :

– أنت صديقي يا ابراهيم.. وأنا أحبك.. وأظنك تعلم ذلك..

– إنني لم أسألك عما إذا كنت تحبني أم لا.. ولكنني أسألك.. ألسنا أبناء وطن واحد؟.. إنك سمعت المدرّس وهو يعرّف لنا الوطن فيقول أنه الأرض التي نعيش عليها معاً.. والسماء التي نحيا تحتها معاً.. والحياة التي نقضيها معاً.. ألسنا، نحن، كذلك؟..

فقال يوري بعد تردد يسير :

– أجل.. أجل.. هو ما تقول..

وتدخلت راشيل في الحديث فقالت لإبراهيم :

– ولكنكم تعبدون رباً غير الرب الذي نعبده نحن..

وبدت الدهشة الشديدة على وجه ابراهيم وقال :

– كيف هذا؟.. صحيح انني مسلم وأنكم يهود.. ولكننا، نحن المسلمين، نعتبر أن ربنا وربكم واحد.. هذا مذكور في القرآن الكريم.. وهوما يردده أبي لي دائماً.. صحيح

أنكم تتبعون ديناً آخر.. ولكن هذا لا يمنع من أن نكون كلنا فلسطينيين أليس كذلك؟..

وبدا الحرج على راشيل، فهي -على ما يبدو- كانت خالية الذهن من أي جواب على تساؤلات ابراهيم، فقد اكتفت بأن رددت ما يلقنها، وأخاها، أبوهما، من أنهم شيء آخر غير أولئك العرب، مسلمين كانوا أم مسيحيين.. وأن لأولئك العرب ديناً يختلف عن الدين اليهودي، وأنهم - بالتالي - اسرائيليون وليسوا فلسطينيين..

وقالت راشيل أخيراً:

- نحن.. نحن اسرائيليون..

فرد ابراهيم بسرعة:

- اسرائيليون ديناً.. ولكنكم فلسطينيون موطناً.. كلنا فلسطينيون.. أليس كذلك؟..

ولم يجد الطفلان اليهوديان ما يجيبان به، وأزعجهما ترديد ابراهيم لقوله أنهم جميعاً فلسطينيون.. فهما لم يسمعا هذا التعبير من أبويهما أبداً.. بل ولم يسمعاه من أي يهودي ممن يزورونهم في المستعمرات القريبة من عين كارم..

واكتفت راشيل بأن قالت لابراهيم:

- أنت يا ابراهيم صديقنا.. ونحن، كما قال يوري، نحبك.. فلندع هذا الحديث الذي لا نفهمه..

ويبدو أن ابراهيم قد شعر، هو الآخر، بأن جعبته من الحديث في هذا الموضوع قد فرغت، وأن هناك خللاً ما في هذا الحديث، فهو يردد ما علمه أبوه وما كان يتحدث به دائماً، ولعل الطفلين اليهوديين -قال ابراهيم لنفسه- يرددان أيضاً ما يسمعانه من أبويهما...

وقبل أن يفتح أحدهم فمه للحديث، أطل الأبوان من الشرفة، وراحا يناديان على

الأطفال ، فقد حان موعد عودة حاييم وولديه إلى بيتهم ، كما نادى الحاج أبو ابراهيم على ولده..

وودع اليهودي مضيفه ، وأمسك بيدي طفليه وغادر المكان ، بينما وقف أبو ابراهيم يتابعه بنظراته ، وولده ممسك بطرف ثوبه يهزه بيده ليلفت انتباهه إليه..

ونظر الأب إلى ولده متسائلاً وهو يستدير عائداً إلى داخل المنزل ، وأوسع ابراهيم خطاه ليلحق بأبيه وهو يسأله بسذاجة :

– أبي.. أليس العم حاييم وولداه فلسطينيين؟..

ودهش الأب لهذا السؤال ، فتوقف ونظر إلى ابنه مستغرباً وسأله :

– ما الذي يجعلك تسألني هذا السؤال؟..

وشعر الطفل بالخوف ، فقد أحس بأنه قد ارتكب خطأ ما ، فبلع ريقه ، وتمتم بصوت خافت :

– لا شيء.. مجرد سؤال..

* * *

عندما عاد الحاج أبو ابراهيم من القدس ، بعد أن أدى صلاة الجمعة في المسجد الأقصى ، واجتمع إلى بعض الأصدقاء في المقهى ، وابتاع بعض الحاجيات ، كانت الأفكار تضج في رأسه كالبركان..

لقد سمع من أصدقائه في القدس أشياء رهيبة ، تفوق كل ما كان يتصوره ويتخوف منه ، بل وتفوق كل ما شهده منذ طفولته من أحداث الصراع بين العرب واليهود ، ولم يستطع أن يبعد عن ذهنه صورة ابتسامة حاييم التي رآها فدبت في نفسه القلق ، وراح يربط الأحداث ببعضها ، ليشعر – من ثم – بالتشاؤم ، وبأن هناك شيئاً ما يلوح في الأفق ، شيئاً يختلف عن الماضي ، ويستدعي – بالتالي – موقفاً.. ولكن ما هو هذا الموقف؟.. هذا ما لم يتمكن من تحديده وسط غليان الأفكار في رأسه..

وكما هي العادة في أمسيات الجمعة ، تقاطر إلى بيت الحاج أبو ابراهيم عدد من جيرانه وأصدقائه ، ليقضوا السهرة في الحديث والسمر ، وتدخين «النارجيلة» ، وأعدت لهم ام ابراهيم كعادتها مائدة حافلة ، التف الرجال حولها ، يأكلون ويسمرون ، ويعلقون على الأحداث السياسية التي تدور في المنطقة..

ولاحظ صالح ، وهو أقرب جيران أبو ابراهيم إليه ، أن مضيفهم مشغول البال على غير عادته ، وأن في نفسه شيئاً يريد أن يقوله ، فصاح به ضاحكاً :

– هيه.. وحّدوه.. فيم انت شارد يا ابو ابراهيم؟..

وانتبه أبو ابراهيم من أفكاره ، وسدد نظرة غريبة لصالح ثم قال له متسائلاً ببساطة :

– ألا قل لي يا صالح.. أليس الإسرائيليون فلسطينيين؟..

وساد المكان صمت رهيب ، فلقد كانت لهجة أبو ابراهيم تحمل الجواب على سؤالها وكأنه قد تعمد ذلك ، وتبادل الرجال النظرات ، ثم قال صالح متضاحكاً :

– تعني اليهود؟.. آه.. هذه مسألة فيها نظر..

– أريد أن أعرف جوابك..

وعلّق خليل على حوار صالح وأبو ابراهيم :

– ما هذه الأسئلة والأجوبة؟.. وهل يعقل يا حاج أنك لا تعرف جواب سؤالك؟..

– أريد أن أعرف..

ردد أبو ابراهيم عبارته بهدوء غريب لفت انتباه الحاضرين جميعاً ، فلم يكن يبدو عليه أنه يمزح ، بل كانت الجدية التامة مرتسمة على وجهه ، وكأنه يعلق آمالاً عظيمة على سماعه للجواب ، رغم أنهم كانوا واثقين –بطبيعة الحال– من أنه يعرفه..

وقال خليل بقلق :

- ماذا تعني يا حاج؟..

فعاد الحاج يقول بإصرار :

- لقد طرحت سؤالاً وأريد جوابه من أي منكم.. وسؤالي هو : هل الإسرائيليون فلسطينيون أم لا ؟..

فقال صالح :

- ألم أقل لك أنها مسألة فيها نظر؟.. أولاً يجب ألا تقول «الإسرائيليين» وإنما قل «اليهود».. ثانياً.. الجواب هو أن اليهود الذين عاشوا في فلسطين منذ القديم هم فلسطينيون بالطبع.. خذ مثلاً صديقنا حايم..

ولم يكد الحاضرون يسمعون اسم حايم حتي انتبهوا جميعاً إلى أنه لم يكن - هذه المرة - بينهم.. فتلفتوا حولهم بحركات لا شعورية ، وقال صالح متسائلاً باستغراب :

- حقاً.. أين حايم؟.. إنه لم يحضر هذه الليلة..

وأجابه أبو ابراهيم :

- كان بالأمس هنا.. جاء يشتري موسم الزيت كعادته..

- ولِمَ لمْ يأت هذه الليلة إذن؟.. يبدو أنك رفعت أسعارك يا أبو ابراهيم..

وضحك الجميع إلا الحاج أبو ابراهيم ، فقد ظل وجهه على جموده وصرامته..

وقال خليل :

- لعل الرجل مريض.. يجدر بنا أن نعوده..

- قلت لك أنه كان هنا بالأمس.. انه سليم معافى.. وليس به شيء..

- لم لم يأت إذن؟..

- هذا هو سؤالي... أو بالأصح.. هذا هو الجواب على سؤالي..

- هلا أفصحت يا حاج؟..

وأدار الحاج نظراته بين الحاضرين وقال لهم ببطء:

- يا اخوان.. بصراحة.. أنا غير مطمئن..

وارتسمت على وجهه، فجأة، ابتسامة مريرة وقال وكأنه يحدث نفسه:

- غريب.. هذه الجملة نفسها.. أنا غير مطمئن.. سمعتها من أبي.. أتصدقون؟..

وعبس الجميع، وكأنهم فهموا - الآن فقط - ما أراد أبو ابراهيم أن يقوله، فقال خليل بقلق:

- هل تشك في الرجل يا أبو ابراهيم؟..

فهز أبو ابراهيم رأسه في أسى وقال:

- يصعب عليّ ذلك.. إنها صداقة عمر.. لم نسئ خلالها للرجل ولم يسئ إلينا..

وتدخل في الحديث، لأول مرة، أصغر الحاضرين سناً وهو فتى يدعى «نمر»:

- هل يمكن أن تقول لي، يا عمي الحاج، متى أسأنا إليهم؟.. آويناهم، ورحبنا بهم في ديارنا.. وقاسمناهم أرزاقنا.. وتعاملنا معهم.. وكان الشر يأتينا دائماً منهم.. كان عليكم، وأرجو أن تسامحوني على هذا القول، أن تقطعوا رأس الأفعى قبل أن تشعر بالدفء والشبع والاطمئنان..

ورد عليه خليل:

- ومن قال لك أننا لم نفعل؟.. منذ بدء الإنتداب البريطاني ونحن نتصدى لهم.. وأنت لم تكن قد خلقت بعد يا نمر، ولكن سل أباك.. سلنا نحن.. لقد كنا نقاتلهم ونقاتل أقوى امبراطورية على وجه الأرض.. وهم يعرفوننا جيداً ويعرفون طعم رصاصنا وقنابلنا وأحجارنا..

فرد نمر بثقة :

– كان يجب أن تستمروا.. كان يجب ألا تتوقفوا أبداً..

فهز أبو ابراهيم رأسه في حزن وقال :

– الحرب بالنظارات سهلة كما يقولون.. ولست أظن أن شعباً في الدنيا قاتل كما قاتلنا.. أو دافع عن نفسه كما دافعنا.. ولكن التكافؤ معدوم.. فإخواننا من عرب ومسلمين لا يقل حال معظمهم عنا سوءاً.. هذا تستعمره بريطانيا.. وذاك تحتله فرنسا.. والثالث تحت الاستعمار الإيطالي.. والرابع تحت الاستعمار الهولندي.. وغيره.. وغيره.. خلليها على الله يا ولدي يا نمر..

فقال نمر وكأنه يعتذر :

– آسف يا حاج.. إنني أعرف ذلك.. ولكنني لا أطيق أن أرى المؤامرة تدبر أمام عيوننا دون أن نقاتل..

وبلهجة خطيرة قال أبو ابراهيم وهو يضرب بيده على المنضدة بقوة :

– سوف نقاتل.. وسوف نبقى في أرضنا أو.. أو نموت دونها..

وفي هذه اللحظة سُمع طرق على الباب ، فالتفتوا جميعاً إليه ، ورأوه يفتح ، ودخل حاييم بقبعته السوداء المعروفة وهو يبتسم لهم ويقول :

– مساء الخير.. آسف.. لقد تأخرت عليكم...

وتبادل الجميع النظرات صامتين ، فقد كانت اللهجة الطبيعية المرحة التي خاطبهم حاييم بها ، تشعرهم بأنهم جميعاً فلسطينيون ، وأنه إذا كان هناك يهود أشرار ، فهناك أيضاً يهود طيبون ، وها هو ابن بلدتهم حاييم من هؤلاء..

ورحبوا به جميعاً ، فخلع قبعته وجلس ، كما اعتاد أن يجلس في بيت أيّ منهم ، مذ جاء إلى أرض فلسطين ، وحتى تلك اللحظة..

* * *

قال ابراهيم الصغير لأمه وهي تتحرك في المطبخ بسرعة ، لتعد طعاماً للضيف الذي جاء متأخراً :

– أماه.. الست أنا وأنت وأبي ، وأهل عين كارم كلهم ، فلسطينيين؟..

فرفعت الأم حاجبيها باستغراب وقالت :

– ما هذا السؤال؟.. طبعاً كلنا فلسطينيون..

وعاد الطفل يسأل بإلحاح :

– وعمّو حايم.. وولداه.. يوري وراشيل.. أليسوا أيضاً فلسطينيين؟..

فقالت الأم :

– يمكنك أن تعتبرهم كذلك.. لقد جاء عمّو حايم منذ زمن ليس بالبعيد كثيراً.. ولكنه يعتبر على كل حال فلسطينياً..

وصمت الطفل برهة كانت الأم خلالها قد استكملت وضع الأطباق على صينية كبيرة ، ثم سألها وهو يخشى غضبها :

– سؤال آخر.. سؤال واحد فقط..

فزفرت الأم بضيق ، وتوقفت لتسمع سؤاله بعد أن همت بحمل الطعام :

– هات.. سل.. ماذا لديك أيضاً؟..

– سؤال واحد ليس غير.. لماذا قال لي يوري وراشيل أنهما اسرائيليان.. ولم يقولا أنهما فلسطينيان؟..

ولم تعرف الأم كيف تجيبه ، لأنها –هي نفسها– لم تفهم مغزى السؤال ، فحملت الطعام وهي تقول له :

– وما ادراني؟..

وفي تلك اللحظة اهتزت الأرض بانفجار هائل، فسقطت أطباق الطعام من يدي أم ابراهيم وصرخت برعب، بينما هبّ الرجال جميعاً بحركة واحدة، وخرجوا يستطلعون ما جرى..

وفي عتمة الليل رأوا شبحاً يتجه نحو ساحة القرية بسرعة البرق وهو يصيح:

- اليهود.. اليهود..

ولم يكد يكمل نداءه حتى حدث انفجار آخر.. ثم تلاه ثالث.. ورابع..

ففتحت الأبواب جميعها، وخرج الناس وهم يحملون بنادقهم ومسدساتهم واتخذوا لأنفسهم متاريس كانت معدة سلفاً، بينما تسلق بعضهم سطوح بعض المنازل، ليرفعوا الأغطية عن رشاشات ثقيلة كانت مموهة تحت تلك الأغطية..

وأضاءت عتمة الليل قنبلة مضيئة أطلقت من ظاهر البلدة، ولكنها كانت كافية لأن يرى أهالي البلدة كل ما حولهم، وأن يتخذوا مواقعهم ليبدأوا في الرد على النيران المنهالة عليهم من المستعمرتين الإسرائيليتين القريبتين..

وصاح صائح وسط أصوات القنابل والرصاص المتبادل:

- انهم في بساتين الزيتون.. انهم في بساتين الزيتون..

وفي الحال وجهت كل نيران أهل البلدة نحو بساتين الزيتون، بينما كانت نيران العدو تصب على كل مكان من القرية تقريباً، عدا منزل واحد هو منزل حاييم..

* * *

قبل أن يخرج أبو ابراهيم ليتخذ مكانه بين المدافعين، اتجه بسرعة البرق إلى المطبخ حيث كانت أم ابراهيم تعد الطعام قبل بدء المعركة وصاح بها:

- انتبهي لنفسك،. وللطفل..

ثم استدار خارجاً وهو يحمل بندقيته وذخيرته، وغادر المنزل مع الآخرين..

أما أم ابراهيم فقد كانت موزعة النفس بين ولدها ابراهيم الذي جمد مشدوهاً في مكانه لا يدري ما يفعل، وبين أن تخرج إلى المعركة كما اعتادت معظم نساء البلدة أن يفعلن، وقبل أن تحزم أمرها، إذا بها ترى ابراهيم، يتحرك بسرعة متجهاً نحو باب المنزل الخلفي، وهو الباب المتصل بالمطبخ، ويطلق ساقيه للريح، بعيداً عن المنزل..

حدث ذلك في ثوان معدودات، لم تستطع المرأة خلالها أن تفعل شيئاً، أو أن ترد ولدها عن الخروج وسط المعمعة اللاهبة، وعندما تمالكت نفسها، لحقت به وهي تصيح:

- ابراهيم.. ابراهيم،.

ولكنه لم يرد عليها، ولم تتمكن من تبين شبحه الصغير وهو يختفي وراء أحد المنازل، فطاش صوابها، وراحت تصرخ:

- ابراهيم.. ابراهيم..

ولكن ما من مجيب...

وتلفتت حولها حائرة، لا تدري ماذا تصنع، وقد غفلت تماماً عن الإنفجارات والنيران المتبادلة بين الطرفين، ولم يعد يهمها إلا أن يعود إليها ابراهيم الذي اختفى بين طيات الظلام الذي كانت تضيئه، كل لحظة، قنبلة من هنا، أو رصاصة من هناك، وقبل أن تتحرك، رات في الجو كتلة لاهبة من النار، سقطت على مبعدة بضع عشرات من الامتار منها، ثم سمع انفجار هائل، وتطايرت شظايا القنبلة، فغابت المرأة عن الوعي، وما عادت تدري عما يدور حولها شيئا...

* * *

أما ابراهيم فكان يتجه بكل قواه نحو بيت «عمو حاييم»، غير آبه للاصوات الداوية من حوله، ولا متحسب لرصاصة تصيبه او قنبلة تمزقه، وكل ما كان يهمه هو الوصول إلى ذلك البيت بأية طريقة..

ووصل اخيرا، فوقف أمام المنزل المظلم يصيح:

- يوري.. يوري.. هل أنت هنا؟..

ولم يجبه أحد، بل ضاع صوته وسط أزيز الرصاص ودويّ القنابل، فعاد يرفع صوته أكبر وهو يضع يديه على جانبي فمه كالبوق:

- يوري.. يوري.. هل أنت هنا؟..

وظل المنزل المظلم على صمته..

وتقدم ابراهيم من الباب يقرعه بكلتا يديه، وما من مجيب، فأجال بصره حائراً، ثم لم يلبث أن خطر له خاطر، فدار حول المنزل، وتسلق نافذة المطبخ التي لم تكن مرتفعة كثيرا عن الأرض، وقفز إلى الداخل..

ومع صوت قفزته، ارتفعت أصوات هستيرية بصراخ مجنون، وكلمات بالعبرية، فاستطاع ابراهيم أن يميز بينها صوت يوري وراشيل، فصاح بهما:

- ماذا بكما.. هذا أنا.. ابراهيم..

وفي الحال انقطع الصراخ، وسمع ابراهيم صوت يوري يقول بصوت يهزه الرعب:

- ابراهيم.. لا.. لا.. لا تقتلنا..

- أقتلكم؟.. تساءل ابراهيم بدهشة ثم أردف:

- لقد جئت للإطمئنان عليكم...

واستطاع ابراهيم أن يميز ثلاثة أشباح تتحرك تحت المنضدة القائمة وسط المطبخ، وسمع صوت زوجة حاييم تقول:

- ابراهيم.. ماذا جئت تفعل؟.. هل جاء معك أحد..

فاقترب ابراهيم منهم وهو يقول بدهشة:

- ما هذا الكلام يا خالة؟.. لقد جئت للإطمئنان على صديقي يوري...

وهمست المرأة بصوت مبحوح :

– احن رأسك واقترب . . .

وأحنى ابراهيم رأسه ، وسار على يديه وقدميه حتى وصل إلى الأجسام الثلاثة التي كانت متلاصقة في رعب ، وقال ابراهيم :

– يوري . . أسمعني صوتك . . هل أنت بخير . .

– أجل يا ابراهيم . .

– عندما بدأ إطلاق النيران ، كنت مع أمي في المطبخ ، ولم تكد تخطر ببالي حتى شعرت بقلق شديد عليك . . ولم أدر إلا وأنا أسرع إلى هنا كي أطمئن . .

وتسللت يد زوجة حاييم في الظلام حتى لامست يد ابراهيم فشدّت عليها وهو تهمس بالعبرية :

– ابراهيم . . يا لك من غلام مسكين . . .

ولم يفهم ابراهيم ماذا قالت ، ولا هو سألها ، فقد كان كل ما يهمه هو صديقه يوري ، ولم يكد يطمئن عليه ، حتى عاد القلق يغزو قلبه على أمه وأبيه ، فقال لصديقه :

– أنا ذاهب . . لكي أطمئن على أمي وأبي . . بعد أن اطمأننت عليك . .

ولكن يوري تمسّك به وقال في توسل :

– أرجوك لا تذهب . . إنك لا تدري كم يفيدنا وجودك معنا . .

– كما تشاء . .

لقد كان ما أدهش ابراهيم بعد سنوات وسنوات من تلك الليلة الرهيبة ، أنه لم يخطر بباله – وهو لا يزيد عن بضع سنوات من العمر – أن يسأل ، أو يفكر ، بين من ومن كانت

المعركة ، ومن الذي كان يطلق النار ، ولماذا .. وما هو سبب ذلك .. إلى غير ذلك من الأسئلة ..

لقد كانت أمثال هذه الحوادث شيئاً مألوفاً في تلك الأيام ، وكان يسمع أحاديث كثيرة عن « العرب » و« اليهود » و« الإنجليز » و« المظاهرات » و« الأحداث » ... وغيرها من التعابير المتداولة ، ولكنه لم يكن يعرف دوره – هو بالذات – في ذلك كله ، ولا دور صديق طفولته « يوري » .. فقد كانت هذه الصداقة هي كل ما يشغله إلى جانب اللعب ، ودروس المدرسة ، أما فيما عدا ذلك ، فما كان يهمه أن يعرف ، ولا كان يهمه أن يدرك .. ولقد دفع عمره – بأكمله – بعد ذلك ، حتى عرف ، وأدرك ...

* * *

وفجأة توقف إطلاق النار مثلما بدأ ...

لم تعد تسمع في المكان طلقة واحدة ، فلقد توقف إطلاق النار أولاً من بساتين الزيتون ثم توقف من الجانب الآخر بعد ذلك ، وساد في الجو صمت رهيب ...

– لقد رحلوا ...

همس بذلك خليل الذي كان قائماً وراء مدفع رشاش صغير مقام على سطح أحد المنازل ، والذي أبلى بلاء حسناً من موقعه ذاك ، إذ كان يغير مكانه باستمرار ، ويطلق النار بإحكام شديد كلما استطاع أن يميز شيئاً متحركاً في بساتين الزيتون ، أو يستدل على مصدر للنيران منها ..

وترددت العبارة ، همساً ، بين المدافعين عن القرية ، ولكن أحداً منهم لم يغادر موقعه ، فهم قد ألفوا الغدر من عدوهم ، وعرفوا عن مكره وأساليبه العدوانية الشيء الكثير ، كما أن قائدهم « أبو جميل » لم يأمرهم بأن يتركوا مواقعهم ، فظلوا فيها متحفزين كشأنهم عندما بدأت المعركة ...

كان «أبو جميل» من مجاهدي ثورة عام ١٩٣٦ ، وكانت له وقائع ومواقع مع اليهود عبر اثني عشر عاماً مضت بعد ذلك على تلك الثورة ، فقد كان أصلاً من جنود «قوة الحدود» التي ألفها الإنجليز وألحقوا بها الفلسطينيين ، عرباً ويهوداً ، والتي كانت مجالاً تعلم فيها «أبو جميل» أصول القتال وقواعده وفنونه ، وعندما نشبت ثورة عام ١٩٣٦ ، هجر «قوة الحدود» والتحق بالثوار ، ثم ما لبث أن سكن «عين كارم» متنكراً تحت اسم آخر ، ومع أن الإنجليز كانوا يعلمون مكانه حق العلم ، ويعلمون الاسم الذي تنكر تحته ، ويطلبونه بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية ، إلا أنهم لم يحاولوا أن يقبضوا عليه أبداً ، ولا أن يتعرضوا له بسوء ، لأنهم كانوا يعلمون أن مثل هذا التصرف سوف يكلفهم غالياً ، وهكذا عاش أبو جميل في البلدة ، ليجد الجميع يعترفون به كقائد عسكري لهم ، فيتبعون تعليماته ، وينفذون خططه ، فهو الذي أعد خطة الدفاع عن البلدة ، وهو الوحيد الذي لم يثق قط بحاييم ، وحاول جهده إقناع أهل البلدة بالحذر منه ، فهو -كما كان يقول- أكثر خبرة منهم باليهود وخداعهم ومكرهم ، وهو قد اختلط باليهود أكثر منهم ، وزاملهم في «قوة الحدود» وقاتلهم أيام الثورة ، ولكن أهل البلدة لم يشاركوا أبو جميل رأيه هذا في حاييم ، وعندما يئس من إقناعهم رجاهم أن يكتفوا -على الأقل- بإخفاء استعداداتهم الدفاعية عنه ، وتغيير مواقع أسلحتهم في خفية عن الرجل اليهودي..

ولقد تبين لأهل البلدة -بعد ذلك بزمن قصير- أنهم أحسنوا صنعاً بالاستماع إلى نصائح وتعليمات أبو جميل في هذا المجال ، وندموا لأنهم لم يصغوا قبلها إلى تحذيراته...

* * *

- يا لها من ليلة...

قال يوري ذلك وهو يرتجف رعباً إذ يتذكر الليلة الرهيبة التي مرت عليهم ، وكان يسير برفقة ابراهيم في إحدى ضواحي البلدة..

والتفت يوري إلى ابراهيم وقال له متسائلاً :

- ما الذي جاء بك تلك الليلة إلى بيتنا ؟ .. لقد كدنا أن نموت من الرعب عندما رأينا شبحك يقفز علينا من نافذة المطبخ ...

ورد ابراهيم ببساطة تامة :

- لقد أجبتك من قبل .. كنت خائفاً عليك ، . وأردت أن أطمئن .. فأنت أحب أصدقائي إلي ..

وأردف ابراهيم مستغرباً :

- ما الذي جعلكم تخافون عندما رأيتموني تلك الليلة .. هل أنا مخيف إلى هذا الحد ؟ ..

وضحك يوري بارتباك وقال :

- لست أدري .. أبي وأمي كانا يحذراننا دائماً منكم ...

- منا ؟ .. من نحن ؟ ..

- أنتم العرب ...

- العرب ؟ .. وما الفرق بيننا وبينكم ؟ .. إن أباك هو صديق حميم لأبي كما تعلم .. وكذلك أمي .. إنها صديقة لأمك ..

- لست أدري .. لست أدري .. أرجوك دعنا من هذا الموضوع ..

وجلس الصديقان على حافة غدير صغير ، كان ماؤه صافياً لدرجة جعلتهما يريان الأسماك الصغيرة التي لا يزيد طول الواحدة منها عن طول الخنصر وهي تروح وتجيء في اطمئنان ...

ومد الغلامان أيديهما يحاولان القبض على الأسماك التي أخذت تندفع كالسهام ناجية بنفسها من خطر الأيدي المعتدية ، ولكن الغلامين وفقا إلى اصطياد سمكتين أخذتا تنتفضان

في يديها ، فأحس ابراهيم بشفقة طاغية تجتاح قلبه ، فما كان منه إلا أن أعاد سمكته إلى الماء ، فأخذت تنتفض عدة مرات ، ثم ما لبثت أن لحقت برفيقاتها ، أما يوري فقد شدّد الضغط باصبعيه على بطن السمكة وهو يضحك ويصيح بزميله :

– أنظر.. انظر.. لقد ماتت..

وكانت حركة السمكة قد خمدت فعلاً.. وشدد يوري الضغط ، فبرزت أحشاؤها المتناهية في دقتها الأمر الذي استثار ضحك يوري أكثر فأكثر ، بينما صاح به ابراهيم مؤنباً :

– حرام عليك.. لقد قتلتها..

وألقى يوري بالسمكة بعيداً وهو لا يزال يضحك ، وقال تعليقاً على عبارة ابراهيم :

– وماذا في ذلك؟.. لقد كان أمراً ممتعاً..

وشعر ابراهيم بشيء من النفور ، ولكنه كتم شعوره ، ونهض عن حافة الغدير خوفاً من أن يعيد يوري لعبته الوحشية ، ولحق به يوري ، وعادا يتمشيان على الأرض المعشوشبة..

وفجأة ، جذب ابراهيم ذراع زميله وقال له :

– أنظر.. تلك امرأة غجرية...

ونظر يوري إلى حيث أشار ابراهيم ، فرأى امرأة من نساء الغجر اللواتي يطفن بالقرى وهن يحملن معهن عدة الإرتزاق.. فيضربن بالودع.. والرمل.. ويصفن بعض الأعشاب كأدوية.. وينقشن الوشم على ذقون وخدود من تشاء من الريفيات.. وكان ابراهيم قد رأى امرأة غجرية تنقش وشماً على ذراع أحد الفلاحين ، يمثل طائراً ، فخطرت له فكرة ، والتفت إلى زميله قائلاً :

– يوري.. ما رأيك في أن نسجل صداقتنا على ذراعينا؟..

ولم يفهم يوري ، وسأله عما يقصد ، فقال له ابراهيم بحماسة :

– إن هؤلاء الغجريات ينقشن الوشم على أجسام الناس.. على خدودهم.. على



أصداغهم.. على أذرعتهم.. فما رأيك في أن نطلب من هذه الغجرية أن تنقش لنا وشماً يمثل طائراً فارداً جناحيه على ذراعي وذراعك.. وبهذا يكون هذا الوشم تسجيلاً لصداقتنا نذكره مدى الحياة.. فربما افترقنا.. والزمن، كما تعلم، يغير من أشكال الناس فإذا حدث ذلك والتقينا وغير الزمن شكلينا، كان هذا الوشم دليلاً أعرفك به وتعرفني؟..

ويبدو أن الفكرة قد راقت للغلام اليهودي، فقال لصديقه بحماسة:

– فكرة رائعة.. فكرة رائعة..

ولكن الكدر بدا على وجه يوري وهو يقول بأسف:

– ولكن هذه الغجرية ستطلب كثيراً...

فقال له ابراهيم:

– معي شلن.. سأدفعه لها.. وتكمل أنت الباقي.. كم معك..

فقال يوري ويده في جيب سرواله تقبض بقوة على قطعة معدنية بقيمة «شلن»:

– أنا؟.. ليس معي شيء للأسف..

ورد عليه ابراهيم ببساطة:

– لا يهم.. سنعرض عليها الشلن فإذا قبلت كان بها وإذا أبت فهي حرة..

ورفع ابراهيم صوته منادياً المرأة الغجرية التي ما لبثت أن اتجهت نحوهما، وذكر لها ابراهيم غرضه وزميله، فأشرق وجه المرأة بالسرور وقالت:

– يا ألف أهلا وسهلا.. أنا حاضرة..

فسألها ابراهيم بتردد:

– ولكن.. كم تطلبين؟..

فردت المرأة بسرعة:

– بريزة.. بريزة واحدة..

ولكن ابراهيم أجابها بلهجة حاسمة :

– ليس معنا سوى شلن واحد.. فإذا كان كافياً فابدأي في الحال.. وإلا فمع السلامة..

وصدمت الغجرية، ووقفت مترددة برهة، ورمقت الصبيين بنظرة فاحصة اقتنعت معها أن من غير المعقول أن يكون لديهما أكثر من ذلك الشلن، فهزت رأسها في أسف وجلست على الأرض وشرعت تفتح الصرة التي تحملها وهي تقول :

– شلن.. شلن.. ماشي الحال.. هه.. ماذا تريدان أن أرسم لكما.. عصفور.. دجاجة.. قلب.. سمكة..

فقال لها يوري بلهفة :

– سمكة.. أجل.. أجل سمكة..

والتفت إلى ابراهيم قائلاً وهو يضحك :

– تخليداً لذكرى تلك السمكة..

وشعر ابراهيم بامتعاض وهو يتذكر السمكة المسكينة التي سحقها يوري بين اصبعيه، ولكنه لم يشأ الإعتراض فقال :

– ليكن.. سمكة...

وشمر الطفلان عن ذراعيهما، وبدأت الغجرية في نقش الوشم الذي يمثل سمكة صغيرة منحنية وكأنما تسبح في الماء...

* * *

عندما قفل الطفلان عائدين إلى البلدة، كانا في أشد حالات الفرح والإغتباط، ولقد

توقفا عدة مرات في الطريق ، ليكشفا عن ذراعيهما وينظرا إلى الرسم الذي وشمته الغجرية على ذراع كل منهما ، والذي تحمّلا من أجله كثيراً من الآلام عندما كانت المرأة تجري ابرتها الدقيقة على اللحم الغض ، وهي تنقش الرسمين المتشابهين كل التشابه ، لسمكة لا يزيد طولها عن سبعة أو ثمانية سنتمترات ، عند أعلى الكف من باطن الذراع اليسرى لكل منهما . .

وشبك يوري ذراعه بذراع صديقه وقال له وهما يغذان السير :

– الآن لن نضيع عن بعضنا أبداً . . أليس كذلك ؟ ، .

– تماماً . . يكفي أن يكشف أحدنا عن ذراعه للآخر ، ليرى هذا الآخر نفس الرسم موشوماً على باطن الذراع . .

كانا في قمة سعادة الطفولة بهذه الخطوة التي ساقتها إليهما الصدفة ، بمرور تلك المرأة الغجرية ، وقيامها بنقش ذلك الوشم . . .

وفي منزلي الطفلين كانت ردة الفعل متماثلة – مثلما الوشم متماثل – تماماً . . .

ان أهليهما لم يقابلا هذه اللعبة الصبيانية بارتياح . .

إن أم يوري ، مثلاً ، ضربت على صدرها بدهشة وانزعاج عندما كشف لها ولدها عن ذراعه وأراها الوشم متباهياً فخوراً ، وحين شرح لها سرّه ، علاها الوجوم ، ولم تقابل النبأ بالفرح الذي كان يتوقعه منها . . .

وقالت الأم مؤنبة :

– ما لك ولهذا الولد العربي ؟ . . أنت إسرائيلي وهو عربي . . فما الذي يجعلك ترتبط معه بهذه الشارة السخيفة ؟ . .

– سخيفة ؟ . .

هتف الولد بدهشة ، وأردف قائلاً ببساطة :

- إنني لا أفهم معنى أن تقولي أنني إسرائيلي وهو عربي .. هذا لا يغير شيئاً من الأمر وهو أنه ابن وطني كما أنني ابن وطنه..

- لا.. لستما ابني وطن واحد..

ردت الأم بعنف وهي تحدّق في ولدها بعينين يتطاير منهما شرر الغضب والاستنكار.. واستطردتْ الأم تقول:

- ألف مرة قلت لك أن هؤلاء العرب أعداؤنا.. هل تفهم؟.. أعداؤنا.. هل نسيت النيران التي صبوها علينا في تلك الليلة ونحن قعود تحت منضدة المطبخ؟..

ورد الصغير بسذاجة:

- ولكن الناس يقولون أن يهوداً مثلنا هم الذين كانوا يصبون تلك النيران.. وأن بلدتنا كانت تدافع عن نفسها.. سمعت أن اليهود هم الذين تسللوا إلى بساتين الزيتون، وراحوا يوجهون نيرانهم إليها..

- لا تصدق.. هذه أكاذيب يروجها العرب.. وعليك أن تبتعد منذ الآن عن صديقك العربي هذا.. هل تفهم؟..

- ابتعد عنه؟.. مستحيل.. أنه أعز أصدقائي..

- بل يجب أن تبتعد عنه رغم أنفك.. سمعت؟..

وأحنى الطفل رأسه في إذعان وهو يحدث نفسه بأنه لم يفهم شيئاً من حديثه مع أمه، وشمر كمه عن ساعده الأيسر ببطء، وأدار باطن ذراعه وراح يتأمله في صمت ويقول في نفسه، أنه يستحيل عليه أن يقطع صلته بابراهيم فهذا هو شعار الصداقة الدائمة قد وشمه على ذراعه، وان هذا الشعار يلزمه بالوفاء له، ولمغزاه..

وقرر أن يلتزم الصمت، وألا يجادل أمه في هذا الموضوع مرة أخرى، ثم ما لبث أن

قرر ألا يجادل أباه أيضاً ، لأن الأب عندما جاء إلى المنزل وحدثته الأم بما جرى ، لم يكن غضبه واستنكاره بأقل من غضبها واستنكارها..

وازداد شعور يوري بأنه لا يفهم كثيراً من الأمور التي يراها ويسمعها في هذه البلدة..

أما ابراهيم ، فكان رد فعل أبيه مختلفاً عما حدث مع يوري ، فهو لم يكن مستنكراً تلك المسألة بقدر ما كان مستغرباً لها..

لقد أمسك أبو ابراهيم بذراع ولده ، وراح يتأمل الوشم ، وقد ارتسمت على وجهه معالم مرارة عميقة وألم دفين..

وقال الأب وهو يهز رأسه في حزن :

– والله لا أدري ماذا أقول لك يا ولدي.. إنني ، للأسف ، لا أستطيع أن أشاركك اغتباطك بهذه العلامة التي وشمتها مع صديقك على ذراعيكما.. إنني أتوقع لكما فراقاً سريعاً.. إن أحدكما لا بد وأن يبعد عن الآخر.. هذا أمر محتم تقتضيه الأحداث التي تدور من حولنا.. يبدو لي أن جدك كان على حق.. وأننا كنا ، بمشاعرنا نحو هؤلاء القوم ، في واد ، وهم في واد آخر تماماً..

ولم يفهم ابراهيم – بدوره – كل ما قاله أبوه..

كان كل ما استرعى انتباهه هو إشارة أبيه إلى حتمية الفراق بينه وبين صديقه وزميله ، فشعر بالقلق الشديد يجتاحه ، وتساءل بصوت مرتجف :

– لم ترى يا أبي أننا يجب أن نفترق عن بعضنا أنا وصديقي يوري؟.. إنك لم تطلب مني هذا الطلب من قبل.. فهل ترغب مني أن أقطع صلتي به؟..

– لا والله يا ولدي.. لا أرغب.. ولم يسبق لي أن أبديت لك مثل هذه الرغبة ، ولكنه هو.. وقومه.. لهم في الموضوع رأي آخر..

– لم أفهم يا أبي..

- ستفهم يوماً ما.. بكل تأكيد ستفهم.. ويبدو لي أن الصراع الذي مضى بيننا وبينهم لا يعد شيئاً أمام الصراع الآتي... إننا مقبلون على أيام عصيبة.. جد عصيبة يا ولدي...

وشعر ابراهيم بأن فرحته بما صنع هو ويوري قد تضاءلت فمع أنه لم يفهم تماماً ما رمى أبوه إليه، إلا أنه أدرك، من مجمل الحديث، أن شيئاً ما في صلته بيوري يبدو لأبيه غير طبيعي.. وتزايد قلقه عندما استعاد إشارة أبيه إلى الفراق الوشيك المحتم بينه وبين صديقه، وحدّث نفسه بأن هذا لا يمكن أن يحدث...

وحول نظره ببطء إلى باطن ذراعه، وراح يتأمل السمكة الزرقاء التي وشمتها الغجرية، فما لبث أن شعر بقلقه يتبدد، وبأن أباه يحدثه بمنطق لا يهمه شخصياً، فهو منطق «الكبار» كأبيه وأبي يوري... أما هما فصديقان تعاهدا على صداقة دائمة لا يمكن أن تؤثر فيها أية أيام عصيبة مقبلة..

وتحول عبوسه إلى ابتسام، وزال كل ما أحدثته كلمات أبيه في نفسه من قلق وانزعاج...

* * *

ولكن ما تحدث عنه الأبوان، العربي واليهودي على السواء، ما لبث أن تحقق بأسرع مما كانا يتوقعان...

كان ذلك في شهر نيسان من العام ١٩٤٨م، اليوم الثاني عشر منه... فلقد أفاق أهل بلدة «عين كارم» على أعداد كبيرة من النساء والأطفال والشيوخ، وقلة ضئيلة من الشباب، تحمل أمتعتها على ظهورها، وتدخل البلدة مع إشراقة صباح ذلك اليوم...

ودهش الناس، في عين كارم، عندما غادروا بيوتهم صباحاً في طريقهم إلى أعمالهم ومدارسهم، ورأوا تلك الأعداد الكبيرة من العرب وهم ينتشرون في أرجاء البلدة وشوارعها، وساحاتها الرئيسية...

وكانت دهشة أبو ابراهيم إلى درجة الذهول.. فاقترب من بعض أولئك البؤساء الذين ارتسم الرعب على وجوههم، وزاغت أبصارهم وكأنهم رأوا هولاً عظيماً، وبدا عليهم وكأنهم مروا بتجربة عصيبة...

- من أنتم؟.. من أين جئتم؟.. ماذا جرى لكم؟..

- نحن من سكان دير ياسين..

وكان عدد آخر من أهالي عين كارم قد تجمعوا حول هؤلاء، وراحوا يسألونهم عما جاء بهم في تلك الساعة المبكرة، ولماذا يحملون أمتعتهم على ظهورهم وكأنهم عازمون على سفر...

وراح أولئك يتحدثون بصوت واحد.. وأهالي عين كارم يستمعون إليهم مذهولين.. وأمكن - بكثير من الجهد في محاولة الإصغاء والفهم - ربط الكلمات المتناثرة ببعضها، ليخرج السامعون - بعد ذلك - بمعلومات عن الحادثة المروّعة التي أصيبت بها بلدة دير ياسين، التي كانت تبعد عن عين كارم ثلاثة كيلومترات وعن القدس أربعة كيلومترات..

- حدث ذلك فجر الليلة الفائتة...

هكذا بدأ أهالي دير ياسين قصتهم... ثم استطردوا:

- فوجئنا بأعداد كبيرة من اليهود المسلحين، ومعهم عدد من المصفحات الصغيرة من طراز «سكاوتات».. وعلى رأسهم رجل يدعى «مناحيم بيجين».. انه زعيم أولئك اليهود الذين ينتسبون إلى المنظمة الإرهابية المسماة «اتسل».. وهو اختصار للاسم الكامل لمنظمة «أرغون تسفائي ليؤومي»...

لقد حاصر الإرهابيون اليهود دير ياسين من معظم جهاتها، وجاءنا كبيرهم «بيجين» وقال لنا:

- لا تخافوا.. ليس هناك شيء.. أنتم قوم مسالمون ولم يكن لكم يد في الأحداث التي تقع في أماكن أخرى من فلسطين.. لقد جئنا لمجرد اتخاذ مراكز لحماية المستوطنات اليهودية

القريبة منكم... ونرغب في أن يتجمع أهالي القرية في الساحة الرئيسية لكي ننظم أمر الحماية.. ليس غير...

إن معظمنا – قال أهالي دير ياسين – قد أخذ الأمر مأخذاً عادياً، فلقد ألفنا أن تمر بقريتنا قوات عربية تارة.. وإنجليزية تارة أخرى.. ويهودية تارة ثالثة...

لقد تجمعنا في الساحة كما طلبوا منا.. وكنا شيوخاً ونساء وأطفالا.. لم يكن بيننا سوى قلة من الشباب.. وأدار ذاك المسمى «بيجين» عينيه فينا وكأنه يريد أن يتأكد من أن جميع أهالي القرية قد أصبحوا أمامه ثم...

هنا يرتسم الشعور بالهول على وجوه الناجين القلائل من أهالي دير ياسين وهم يتذكرون ما حدث ثم يروونه لسامعيهم المشدوهين:

– لم نعد نرى سوى رصاص من مختلف الأنواع يصب علينا من جميع الأنحاء.. بينما كانت صرخات المعتدين الوحشية تمتزج بصرخات المصابين من أهالي القرية المسالمة..

لقد فعل بنا اليهود ما لا يخطر ببال أقسى الوحوش أن يفعلوه.. صبوا نيرانهم بصورة عشوائية وكيفما اتفق، نسفوا المنازل، أحرقوا البيوت، بقروا بطون الحبالى بحراب بنادقهم، وقائدهم «بيجين» على رأسهم يوجه النيران ويصدر الأوامر، وكأنه يريد أن يبيد أهل القرية جميعاً.. وألا يترك منهم سوى قلائل – عامداً – كي يحدثوا العرب الآخرين بما جرى...

كان أبو ابراهيم يصغي ونيران الغضب تلتهب في صدره، ولم يكن بحاجة إلى كثير أو قليل من الذكاء كي يفهم أبعاد هذه المجزرة التي قام بها الصهيونيون فجر هذا اليوم..

وتبادل الرجال النظرات، وكان الفهم واضحاً على وجوههم جميعاً، لقد بدأ التهجير بالإرهاب.. والإرهاب الوحشي...

وأشار أبو ابراهيم برأسه إلى الرجال المجتمعين أمام الناجين من أهالي دير ياسين وقال لهم

وهو يستدير متجهاً إلى بيته :

- تعالوا معي ... لقد باتت الأمور أخطر مما كنا نظن.. وعلينا أن نرى ما يجب أن نفعل.. وليعنَ بعضكم بأهالي دير ياسين.. قدموا لهم الطعام والمأوى لنرى ما سوف نفعل..

وتبع الرجال أبو ابراهيم صامتين ونيران غضب لا يوصف تضطرم في قلوبهم ومشاعرهم ، وقبل أن يصلوا إلى مدخل البيت ، رأوا سيارة جيب صغيرة تقترب منهم آتية من اتجاه دير ياسين وقد رسم على جانبيها الصليب الأحمر بألوان كثيفة مميزة..

وتوقفت السيارة أمام الرجال ، وهبط منها رجل أجنبي ، تبين من حديثه بالإنجليزية أنه فرنسي ، وكانت ملابسه ممزقة ، وشعره أشعث ، ووجهه ملوثاً بدخان أسود ، ولكنه كان متمالكاً وعيه ، وفي أوج قوته...

وقال الرجل بالعربية وهو يقفز من السيارة :

- السلام عليكم...

ورد الرجال السلام وهو يحدقون فيه باهتمام ، ثم أردف الرجل يقول بالإنجليزية بلكنته الفرنسية :

- أرجو ألا تنزعجوا مني.. إنني صديق.. (وأومأ برأسه جهة دير ياسين وقال) لقد جئت من هناك لتوي.. اسمي «جاك رونييه».. من الصليب الأحمر الدولي.. ما إن علمت بالمجزرة التي قامت بها «اتسل» في دير ياسين حتى جئت لتوي لكي أرى بنفسي ، وأتبين ما يمكن لنا أن نقدم من مساعدات...

وغامت عينا الفرنسي وهو يقول :

- رباه.. لم أر مثل هذه الوحشية من قبل.. لقد عددت مائتين وخمسين جثة لنساء

وشيوخ وأطفال.. قد مثل بهم اليهود أبشع تمثيل.. انهم لم يسمحوا لي بالدخول إلى القرية إلا بعد جهد... كانوا في حالة عصبية شديدة.. ولكنني هددتهم بأنني سأنشر على العالم كله أنباء هذه المجزرة، وأنني أحملهم مسئولية منع ممثل الصليب الأحمر الدولي من الدخول.. لقد سمحوا لي بعد لأي...

وغطى الرجل وجهه بيديه وقال وهو يرتجف:

- يا إلهي.. أية مجزرة.. وأية وحشية..

ثم ركب الرجل سيارته، وأدار محركها وهو يقول:

- إنني ذاهب إلى المقر الرئيسي للصليب الأحمر الدولي لأرى ما يمكن عمله من أجل أولئك التعساء...

ولم يلبث أن انطلق، وعيون الرجال تتابعه وقد التهبت ببريق من الغضب الهائل..

- يا اخوان المسألة واضحة وضوح الشمس... حادثة دير ياسين هذه لها دلالات واضحة لا تخفى على أحد.. انهم يريدون إخلاء الأراضي العربية من سكانها، كي يحتلها اليهود الغرباء... هذا واضح.. وأنا متأكد من أنهم قد اتبعوا تلك الطريقة الوحشية العنيفة، لدب الذعر في قلوب سكان القرى المجاورة كي يهجروا قراهم.. فماذا أنتم قائلون.. وماذا أنتم فاعلون؟..

أصغى الرجال الغاضبون إلى كلام أبو ابراهيم، وتبادلوا نظرات متسائلة، فإذا كان العدو الصهيوني قد بدأ بدير ياسين، فإن الدور سيأتي على عين كارم بكل تأكيد...

وقال خليل:

- لقد بت أعتقد الآن أن محاولتهم غزونا ما هي الا حلقة من سلسلة مخططهم الإجرامي الوحشي، ولولا أننا تصدينا لهم فلربما فعلوا بنا مثلما فعلوا بدير ياسين...

وقال أبو جميل على الفور:

- عمرك أطول من عمري يا خليل.. هذا ما كنت أريد أن أقوله لكم.. اسألوني أنا عن اليهود... لقد خبرتهم بما فيه الكفاية..

فقال أبو ابراهيم وهو يضرب بيده على المنضدة:

- المهم هو ما يجب أن نفعل.. هذا هو المهم..

ورد عليه أبو جميل:

- إنك تستطيع أن تراهم بالعين المجردة وهم يقيمون استحكاماتهم في دير ياسين.. إن بلدتنا - يا إخوان - هي هدفهم التالي ولا ريب..

فقال نمر بحماسة الشباب:

- لم لا نقوم بهجوم مضاد؟..

وهز أبو جميل رأسه بمرارة وهو يجيبه:

- هذا أبسط ما تقضي به الأصول العسكرية.. ولكن من أين لنا السلاح الكافي؟.. انهم يستخدمون «السكاوتات» ويطلقون منها نيران مدافعهم،. والمشكلة أن إخواننا في القطاعات الأخرى مشغولون جميعاً بأنفسهم.. فهم أيضاً يجابهون اليهود في مواقع كثيرة.. ويجابهون الإنجليز أيضاً كلما ساء موقف اليهود..

فقال نمر وهو يصر على أسنانه بغضب:

- إذن ماذا نفعل؟.. ماذا نفعل.. هل نقف مكتوفي الأيدي؟..

وتكلم صالح بهدوء:

- اصغوا إليّ.. يجب أن نكون عمليين.. بعد شهر واحد ينتهي الإنتداب البريطاني على فلسطين.. وتدخل الجيوش العربية.. ولا شك في أن هذا سوف يدعم موقفنا...

فقال نمر بسرعة :

– وهل ننتظر دخول الجيوش العربية ، وأنت أدرى بأحوال معظمها ، وندع اليهود ينزلون بنا وحشيتهم ، فيقتلون أبناءنا ، ويبقرون بطون نسائنا... ويهدمون بيوتنا... ويطردوننا من أرضنا؟..

– كفى.. كفى..

صرخ فيه أبو ابراهيم ، وهو يستمع إلى الصورة المروّعة التي رسمها نمر بكلماته الحماسية الصادقة..

وساد صمت تام في المكان.. فالرغبة في الثأر لدير ياسين تلتهب في دمائهم.. والرغبة في الدفاع عن بلدتهم تثقل كواهلهم.. ومظاهر اليأس تحيط بهم من كل جانب..

وقطع صالح الصمت ليقول :

– قلت لكم ، يا إخوان ، لنكن عمليين.. المعركة لا بد واقعة ،. وأرى أن نجلي النساء والأطفال والشيوخ إلى القدس.. ونبقى نحن هنا للدفاع عن عين كارم...

فقال أبو ابراهيم باستنكار :

– نجلي أهلنا عن البلدة؟.. أليس هذا ما يريده عدونا؟...

– صحيح.. ولكننا لن نستسلم ، وأعتقد أن بإمكاننا أن نقاتل بحرية أكثر بعد أن نطمئن إلى خروج عيالنا...

وبدا على الجميع تقريباً الإقتناع بما قاله صالح ، ولكن نمر صرخ بعنف :

– لا.. لا ،. نموت معهم.. أو نحيا معهم.. ما رأيك يا عمي أبو جميل..

وفتل أبو جميل شاربه الكبير في بطء وقال بلهجة الخبير الواثق مما يقول :

– كلاكما على صواب.. إبقاء العوائل صواب.. وإجلاؤها صواب.. ولكنني أتصور

أننا سنكون أكثر قدرة على التحرك إذا خرجت العيال..

وكانت آراء أبو جميل هي -كالعادة- الكلمة الفاصلة، فبدا عليهم الإقتناع، وإن كان واضحاً أنه اقتناع غير كامل، ولكن أبو جميل بخبرته العسكرية، وإخلاصه وشجاعته، قادر على أن يضع للموقف تقييماً لا يستطيعونه، وهم رجال زراعة وفلاحة ليس غير...

- وإلى أين تتجه العوائل؟..

سأل أبو ابراهيم وقد بدا عليه أنه اقتنع..

وأجاب أبو جميل:

- إلى القدس طبعاً.. هناك عمارات كثيرة في القدس الجديدة.. وهناك كما تعلمون قوات عربية غير قليلة...

وسأل نمر بدهشة:

- القدس الجديدة؟.. ولكنها لليهود..

فنظر إليه أبو ابراهيم وقال مستنكراً:

- من قال لك أن القدس الجديدة لليهود؟..

- هكذا أسمع..

- لقد كذبك من قال ذلك.. القدس لنا قديمها وجديدها.. نحن الذين بنيناها.. واليهود هم الذين يروجون هذه الأكذوبة لكي يدّعوا لأنفسهم نصيباً في القدس.. إن الغالبية العظمى من سكان القدس القديمة والجديدة هي من العرب.. والغالبية العظمى من أصحاب العمارات والمساكن والمتاجر في القدس الجديدة هم من العرب، . هل فهمت يا نمر يا ولدي؟..

فابتسم نمر وقال وهو يتنهد :

– الحمد لله.. في الواقع لم أكن أعرف هذا..

– نحمد الله على أنك عرفته.. والآن.. علينا أن نرى ما نصنع لنقل عائلاتنا إلى القدس ، وتنظيم الدفاع عن بلدتنا...

* * *

قالت أم ابراهيم وهي تضم طفلها إلى صدرها :

– كيف نترك عين كارم يا أبو ابراهيم.. إنني ما عرفت لنفسي مسكناً غيرها...

– لقد بحثنا الأمر، وقررنا نقلكم إلى القدس الجديدة...

– وأنت؟...

– أنا؟.. أنا أبقى هنا.. فاما انتصار واما استشهاد.. ولا وسط.. لا وسط أبداً..:

وشهقت أم ابراهيم في رعب وهي تسمع كلام زوجها ، وترى إلى ملامح الصرامة الحادة التي اكتساها وجهه...

– سوف تسكنون في حي البقعة.. عند أقاربنا.. فإذا سارت الأمور كما نشتهي فإن غيابكم عن عين كارم لن يطول.. أسبوع من الزمن.. أو شهر على الأكثر وتعودون إليها إن شاء الله..

– وأنت؟...

– قلت لك إنني باق هنا.. وضعي يختلف عن وضعكم.. ولا أرضى بأن أنسحب أمام أولئك الجبناء الذين ما اعتادوا أن يقاتلوا كالرجال.. وإنما يعمدون إلى الغدر والإعتداء والتسلل... سأواجههم وأرى ما يفعلون...

– أنا خائفة عليك يا ابو ابراهيم...

– لا تخافي.. فما قدره الله هو الذي سيكون.. والأعمار بيد الله.. ولئن قدر لي أن أموت فأشرف لي ألف مرة أن أموت على أرضي.. فأرويها بدمي مثلما كنت أرويها بعرقي...

وراحت أم ابراهيم تنشج، وتشد ابراهيم إلى صدرها، وكان ابراهيم يصغي إلى الحديث بانتباه شديد، ومع أنه لم يفهم فحواه كله، إلا أنه أدرك أن شراً مستطيراً يحلق في سماء البلدة وأن آثار هذا الشر ستنالهم.. وأنهم – لهذا – سوف يذهبون إلى القدس...

وتكلم ابراهيم أخيراً بعد أن تكونت لديه الفكرة التي فهمها:

– إذن سنذهب كلنا إلى القدس...

فقالت الأم بصوت باك:

– نعم يا ولدي...

– كل أهل البلدة؟..

– نعم يا ولدي.. النساء والشيوخ والأطفال..

ورنت كلمة «الأطفال» في أذن ابراهيم رنيناً خاصاً، فنزل من حضن أمه وتوجه نحو باب الخروج بسرعة...

– إلى أين تذهب؟..

صاحت به أمه..،

– سأعود بعد قليل...

أجابها وهو يطلق ساقيه للريح...

* * *

ارتفع صوت طرق عنيف على باب منزل حاييم ، فتوقف الرجل فجأة عما كان فيه ، وجمد الدم في عروقه ، ونظر إلى زوجته التي اتسعت عيناها رعباً ، بينما انكمش يوري وراشيل في ركن من الغرفة ، وأشار حاييم إلى عائلته بالصمت ، ثم أخفى البندقية التي كان منهمكاً في تنظيفها ، تحت أحد المقاعد الطويلة ، وهبت الأسرة كلها تخفي كل المعالم التي تدل على ما كانوا يصنعون ، ثم اقترب حاييم ببطء شديد من النافذة ، وأزاح طرف الستارة بحذر ثم لم يلبث أن تنهد بارتياح ، وأشار برأسه إلى زوجته كي تفتح الباب ، ولكن هذه ظلت مسمرة في أرضها تنظر إليه برعب ، فاتجه بنفسه إلى الباب يفتحه وهو يقول بلهجة مرحة حاول أن يخفي ما اعتراها من اضطراب :

– ما من أحد غريب.. هذا صديقنا ابراهيم...

ودخل ابراهيم وهو يلهث ، لشدة وطول ما جرى ، وارتمى على أقرب كرسي وهو لا يزال يلهث ، الأمر الذي أثار مخاوف العائلة اليهودية ، التي التفت حوله تنتظره كي يلتقط أنفاسه ويتحدث..

وتحدث ابراهيم مخاطباً يوري :

– سنذهب معاً إلى القدس.. فلا تتحرك من البيت حتى أمر عليك.. سوف يكون الزحام شديداً.. وسنمسك أيدي بعض بقوة كيلا نفترق...

وقال يوري بدهشة :

– نذهب إلى القدس ؟.. لم..

وقالت الأم وكأنما تؤيد كلام ولدها :

– لن يذهب يوري إلى القدس.. ماذا هناك ؟..

فنظر إليها ابراهيم بدهشة وقال :

– وأنت أيضاً ستذهبين.. وراشيل كذلك.. لن يبقى سوى عمو حاييم..

فبدا الإستغراب على وجوه الأربعة وقال حاييم :

– من قال لك ذلك؟..

– كلهم يتحدثون عنه..

– عم يتحدثون؟..

– انهم يقولون أن جميع النساء والأطفال والشيوخ سيغادرون عين كارم إلى القدس... ولن يبقى سواكم أيها الرجال...

– والسبب؟..

– لكي تدافعوا عن القرية ضد الإرهابيين...

وتلاعبت ابتسامة على وجه الأم ، بينما بدا الإرتياح على وجه حاييم ، أما الطفلان فلم يبد عليهما أنهما فهما شيئاً...

واستطرد ابراهيم في كلامه :

– لم أكد أسمع بذلك حتى جئت مسرعاً كي أطمئن إلى أنني سأرافق يوري وراشيل إلى القدس..

وتحجرت لهجة الأم وهي تقول له بجفاء :

– لن يذهب أحد منا.. ستذهبون وحدكم...

– وأنتم؟..

– سنبقى هنا...

– والإرهابيون؟..

– ليس هناك إرهابيين..

– إنهم يقولون..

– دعنا مما يقولون.. تذهبون وحدكم،. ونبقى نحن..

وشعر ابراهيم بالحيرة الشديدة، فقد كان يظن أنه جاء يؤدي خدمة لصديقه يوري ولعائلته فإذا بهم يتمسكون بالبقاء في البلدة غير آبهين بالأخطار التي توهمها..

وعاد ابراهيم يقول:

– لا تنسوا ما جرى في دير ياسين.. لقد سمعتهم يقولون أن الارهابيين بقروا بطون النساء، ومزقوا الأطفال إلى أشلاء.. وهدموا البيوت.. ولم ينج من أهل القرية إلا القليل...

وربت حاييم على كتف ابراهيم ملاطفاً وهو يقول:

– شكراً لك على كل حال.. اذهبوا أنتم.. وسوف نتبعكم نحن بعد أيام..

– دعني آخذ يوري معي إذن.. ونسبقكم..

– لا.. دعه هنا.. إنه لا يستطيع أن يغادر المكان..

ونهض ابراهيم متثاقلاً، وقد أصابته خيبة الأمل في أعماقه، فهو لم يكن يتصور أن يغادر عين كارم من غير أن يرافقه يوري، وغاب عن باله في تلك اللحظة ما سبق أن قاله له يوري، وأبوه، عن الفارق بين العربي واليهودي، فكل ما كان في ذهنه هو أن بينه وبين يوري عهداً أبدياً على الصداقة والأخوة وَشما رمزه على باطن ذراعيهما...

وشمر إبراهيم عن ذراعه اليسرى، وراح ينظر إلى الوشم والدموع تنهمر من عينيه، بينما أشاح يوري بوجهه عنه، وهو يشعر بالتمزق، موزعاً ما بين صداقته لابراهيم وما يقوله له أبواه من أن إبراهيم وقومه جميعاً هم أعداء لهم..

وهز يوري رأسه بعنف وقال بصوت خافت ما لبث أن ارتفع متصاعداً ليصل حد

الصراخ :

– لا.. لا.. ابراهيم ليس عدواً.. الأعداء لا يفعلون هكذا..

واتسعت حدقتا ابراهيم بذهول وهو يقول :

– عدو؟.. أنا؟.. من قال لك ذلك؟..

فتضاحك حايم، ودفع ابراهيم من كتفه بلطف وقال وهو يتجه به نحو الباب :

– انه يمزح.. أنتما أصدقاء إلى آخر العمر.. وهذا هو الوشم على ذراعيكما يثبت ذلك..

ووجد ابراهيم نفسه خارج المنزل، فوقف حائراً لا يدري ما يفعل، فهو لم يفهم مما جرى ويجري شيئاً، ولم يكن أمامه سوى أن يمسح دموعه المتساقطة بكمه، ثم يطلق ساقيه للريح مرة أخرى... يجري.. ويجري.. ويجري...

أما داخل بيت حايم فقد عمت الفرحة، فها هم العرب يوشكون على الرحيل كما فعل أهالي دير ياسين، وحايم طامع منذ سنوات وسنوات بمنزل أبو ابراهيم ذي الحجرات الواسعة، والشرفات العريضة، والقائم بين مناظر خلابة، والذي بناه جده الأكبر، ثم راح أبناؤه من بعده يوسعونه ويزيدون عليه حتى بات أجمل بيوت عين كارم بدون منازع...

وأجال حايم نظره في بيته المتواضع، فبدا له متناهياً في حقارته، وضيقه، فالتفت إلى زوجته وقال لها ضاحكاً :

– غداً.. يكون بيت الحاج أبو ابراهيم لنا...

واستغرق الاثنان في الضحك...

* * *

كان نزوحاً رهيباً ، مروعّاً ، لم يبارح ذاكرة ابراهيم – بعد ذلك – أبداً..

غاب أبوه طوال النهار عن البيت ، ودبت في «عين كارم» حركة غير عادية لم تعهدها في حياتها كلها..

وأمه ، أم ابراهيم ، تدور في أرجاء المنزل زائغة العينين ، حائرة ، لا يبدو عليها أنها تدرك ما تفعل..

كانت تستعرض أثاث بيتها ، ومقتنياته ، وتحفه البسيطة ، وملابسها وملابس زوجها وولدها.. تقف أمام هذه القطعة ، وتنتقل منها إلى قطعة أخرى ، تستعرض ثوباً ، أو تحنو بيديها على صورة فوتوغرافية معلقة.. وابراهيم متعلق بذيلها ، يذهب معها حيث تذهب ، ويقف معها حيث تقف ، وينظر إليها ، وإلى وجهها المخضل بالدموع ، ويسمع نهنهاتها المكتومة التي كانت تطعن قلبه في إيلام شديد ، وهو لا يكاد يدري ماذا يجري.. ولماذا هذا كله.. وما غايته.. ومتى نهايته.. إنه مذ نشأ لم ير مثل هذا الذي يراه هذه الأيام...

كلمة «النزوح» – التي لم يسمعها في حياته من قبل – تتكرر اليوم على كل شفة ولسان ، ودير ياسين أصبحت أمثولة في فظاعة العدوان ، وهول التدمير والقتل ، وبيجين ، قائد المعتدين على دير ياسين ، أصبح يلقب بين أهالي عين كارم بالسفاح..

لماذا.. لماذا هذا كله؟...

إن ابراهيم الصغير لم يستطع العثور على جواب إلا بعد زمن طويل طويل..

ومدت أمه يدها إلى صورة جده الأكبر ، المرسومة رسماً جيداً بالفحم ، والتي يزيد عمرها في البيت عن قرن كامل ظلت الصورة خلاله في مكانها عبر من تعاقب على البيت من أبناء وأحفاد الجد..

كانت للمكان الذي علقت عليه الصورة طوال ذلك الزمن كله مكانة خاصة في نفوس السيدات اللائي تعاقبن على البيت ، لقد بات مكان الصورة ثابتاً ، ينزلنها عنه لكي يمسحن عنها الغبار بعناية ، ثم يعدنها إلى مكانها . .

الآن وقفت أم ابراهيم أمام الصورة حائرة . . هل تتركها وقد قيل لهم أن نزوحهم ليس لأكثر من أسابيع ، أو أيام معدودات . . . أم تأخذها خوفاً عليها من الضياع . . . ترددت أم ابراهيم لحظات ، ثم حزمت أمرها ، وتناولت الصورة ووضعتها في الصندوق الخشبي الصغير الذي كانت تكدس فيه الأشياء التي ستأخذها معها . . . ووقفت أمام خزانة الملابس ، وشعرت بقلبها يذوب حنيناً وحناناً عندما رأت ثوب عرسها الأزرق الذي قيل فيه أيامها أن أية عروس في عين كارم لم ترتد أثمن ولا أغلى منه . . لقد ضاق الثوب عليها كثيراً ، ولم تعد تلبسه منذ زمن طويل ، ولكنها – قط – لم تفرط به ، ولم تسمح بأن يفارق بيتها ، فكانت تعتني به باستمرار ، وتحميه من « العث » بالنفتالين وتنفض عنه الغبار ، وفي بعض الأحيان كانت – كما تفعل الآن – تتناوله برفق شديد ، وتضمه إلى صدرها ، وتحني خدها عليه في حنان ، وهي تتذكر الأيام السعيدة التي كان هذا الثوب بدايتها ، بعد أن أصبحت زوجة لأبو ابراهيم . .

وأعادت أم ابراهيم الثوب إلى مكانه ، فهي لن تستطيع الاستفادة منه بشيء الآن ، وهمت بأن تنتقل إلى مكان آخر من البيت لتنتقي ما سوف تأخذه معها ، ولكنها شعرت بأنها تترك فلذة من قلبها وكبدها ، فمدت يدها بعزم وأنزلت الثوب ودسته في الصندوق الخشبي . . .

كانت ، مع ما هي فيه من شرود وهم وقلق وخوف ، تكاد لا تعرف التمييز بين ما يجب أن تأخذه وما يجب أن تتركه . . . لقد شعرت بأنه لا يمكنها الإستغناء عن شيء أبداً . . . كل قطعة في البيت إنما هي جزء من تاريخه وذكرياته . . . فهي – إذن – جزء منها ومن ذكرياتها . . .

وكان هذا أشد وأصعب ما عانت منه وهي تختار ما سوف تأخذه معها عند نزوحها الذي قيل لها أنه لن يطول...

وأغلقت الصندوق أخيراً ، وساعدها ابراهيم في ذلك بكل قواه ، ثم حملاه ليلقيا به في سيارة الشحن الصغيرة التي اعتاد أبو ابراهيم أن يستخدمها في عمله ، والتي تطوع الآن أحد الرجال ليقودها إلى القدس...

وكانت البلدة كلها في حركة مماثلة ، فما ترى سوى أبواب تفتح ، ونساء يحملن ما استطعن اختياره من محتويات بيوتهن ، وكانت هذه الأشياء تكدس فوق بعضها في السيارة العجوز ، صرر ، صناديق ، أكياس من مختلف الأنواع والأحجام...

ومضت ساعات النهار على هذه الحال ، وحاييم قابع في منزله ، ينظر من وراء الستارة المغلقة ، وفي متناول يده بندقيته ، وخياله يرود آفاقاً شريرة ، يتخيل فيها كيف سيصبح هو سيد بيت أبو ابراهيم ، ويعيد ترتيب البيت وتقسيم غرفه على هواه وبما يلائم رغباته وذوقه...

ومن الغريب – أم لعله ليس غريباً – أن أي شعور بالشفقة أو الذنب لم يخالج فكره ، ولا نقول ضميره ، قط...

لقد نسي ماضيه كله ، وهو يعيش في البلدة كأنه واحد من أبنائها ، مع أنه لم يكن سوى متسلل ، جاء من إحدى دول البلقان في أعقاب الحرب العالمية الأولى... إن أحداً ما من أهل القرية لم يسيء إليه قط ، بل بالعكس ، كانوا أثناء الإضطرابات والثورات والمظاهرات ، يحمونه ، ويكفلونه ، ويؤكدون للثوار الغاضبين أنه إنسان مسكين مسالم وأنه لا يليق بالشرف العربي أن يخذلوا إنساناً لجأ إلى حماهم حتى ولو كان يهودياً...

لقد نسي حاييم ذلك ، وهو يتخيل – من وراء النافذة المغلقة – كيف سيكون حاله في البلدة بعد أن يهجرها أهلها العرب ، ويأتي المغتصبون اليهود ليسكنوها ، فهو – بدون

ريب – سيكون عمدة البلدة ، أو المختار كما يقول العرب ، فهو أقدم ساكن فيها ، وهو أكثر الناس خبرة بها ، وليس هناك من هو أحق منه بأن يكون العمدة..

وابتسم حايم عندما وصل بأفكاره إلى هذا الحد ، وراح يقرر – بصفته عمدة البلدة – كيف سيأمر بهدم مساجد البلدة ، وإقامة كنيس كبير ، وإلغاء المدارس العربية لأنه لن تكون هناك حاجة إليها ، إذ سيكون التدريس بعد ذلك بالعبرية... وقبل أن يسترسل في خواطره وأفكاره هزّ المنزل من أركانه صوت طلقة مدفع مفاجئة..

* * *

موكب النزوح البائس الطويل قد أوشك على الوصول إلى القدس..

ثمانية كيلومترات ، بدت للنساء والشيوخ والأطفال السائرين على أقدامهم وكأنها ألف ألف كيلو متر...

والسيارة العتيقة ، التي تحمل متاعهم البائس القليل ، تسير ببطء في مقدمتهم ، وأم ابراهيم ممسكة بيد ولدها والبكاء الصامت تنم عنه عيونهما التي كانت تسيل منها خيوط متواصلة من الدموع..

كم كان الفراق صعباً ومؤلماً..

كان أبو ابراهيم في قمة رجولته وصلابته وهيبته ، وهو يضم زوجته إلى صدره مودعاً دون أن يتخلى عن الرشاش الخفيف – من طراز «تومي» – الذي كان يحمله ، وكذلك عندما ودع ولده ابراهيم..

لقد أقعى على الأرض وراح يخاطب ابراهيم والكلمات تتدافع من فمه بقوة ، وكأنه يخاطب رجلاً مثله :

– اسمع يا ابراهيم.. أنت منذ الآن رجل العائلة.. ولا أقول رجل البيت... لأنه لا يعلم إلا الله ماذا سيحل بالبيت... لقد قلتها من قبل وهأنا أنفذ ما قلت.. هنا أحيا وهنا

أموت .. إنني ، يا بني ، لا أثق كثيراً بما يقال عن العودة بعد أيام أو أسابيع ... العودة تقوم بها أنت .. أنت يا رجل العائلة .. سأموت أنا بكل تأكيد .. ربما اليوم .. ربما غداً .. ولكن المعتدين لن يدخلوا عين كارم إلا على جثتي .. سأذهب أنا إلى خالقي .. وتذهب أنت وأمك إلى حيث لا أدري ... ولكنني أريد أن أقول لك : إياك ، ثم إياك ، ثم إياك – يا ولدي – أن تتخلى عن رغبتك في العودة إلى بلدك .. وأرضك .. وبيتك .. مت عند عتبة بيتك وأنت تحاول العودة إليه ، أشرف لك – ألف مرة – من أن تموت في أي مكان آخر ... لقد استلمت أرضنا وبيتنا أمانة من أجدادي وأجدادك .. وهما منذ الآن أمانة في عنقك أنت .. أنا سأموت لكي أؤدي الأمانة .. وعليك أنت أن تعيش لكي تستعيدها ..

إياك يا ولدي أن تنسى بلدك .. وأرضك .. وبيتك ...

ونهض أبو ابراهيم ، وقد تحجرت ملامح وجهه في صورة بدت لأم ابراهيم بطولية بل خارقة البطولة .. فهذا هو رجلها ، يقف الآن على مفترق حاسم من حياته وحياة أسرته ، وإنها لتعلم – ودون أن يكون لديها أدنى أثر من الشك – أنها لن ترى أبو ابراهيم بعد الآن .. ولو كان الأمر متوقفاً عليها لماتت معه ، ولرفضت أن تتزحزح أنملة واحدة خارج البيت ، ولكن الطفل ، أمل الأسرة ورجلها وحامل اسمها ، هو الذي يفرض عليها أن تعيش من أجله ، وأن تغادر البلدة ، برجاء أن تحميه من الهول الذي لن تلبث البلدة أن تعيشه ، والذي يتوقعه الجميع في أية لحظة ..

ونظرت أم ابراهيم إلى الخلف ، ومن خلال دموعها ، رأت الرجال منهمكين في اتخاذ المواقع ، وإقامة المتاريس ، وتوزيع المدافعين ، انتظاراً للغاصبين الذين لم تمض على مجزرتهم ضد دير ياسين أكثر من ثلاثة أسابيع أو أربعة ..

* * *

وطال الإنتظار للمعركة المرتقبة ..

ومع أن رجال عين كارم لم يكونوا يعرفون سبب هذا التأخير بالضبط ، إلا أن اليهود

كانوا يعرفونه ، ويعرفونه جيداً ، فهم لم ينسوا بعد قسوة الضربة التي أصيبوا بها عندما حاولوا ، قبل أسابيع ، التسلل عبر بساتين الزيتون ، والمقاومة العنيفة التي قوبلوا بها ، والتي لم يقل لهم حايم عنها شيئاً ، ولم يحذرهم منها .. لأنه لم يكن يدري عنها شيئاً بموجب تعليمات أبو جميل ..

ولهذا اكتفوا بمحاصرة البلدة من معظم جهاتها ، وتركوا طريق القدس مفتوحاً ، لكي يخرج أهل البلدة ، أو بالأصح لينزحوا عنها ، وراحوا يطلقون بين الحين والآخر ، طلقة هنا وطلقة هناك .. في محاولة لجس النبض ومعرفة مدى استعداد البلدة لمقاومتهم ... وبطبيعة الحال لم يغب أمر حايم عن بال أهالي البلدة ، بل بحثوا أمره مراراً ، وتفاوتت في هذا الصدد آراؤهم ..

أبو ابراهيم – مثلاً – صارح زملاءه بأنه لم يعد يثق بحايم كما كان يفعل من قبل ، وأن شعوراً داخلياً عميقاً يهيب به أن يحذر منه ...

آخرون قالوا عكس ذلك .. وطالبوا أبو ابراهيم بالدليل ، ولكنه لم يكن يملك دليلاً ، كانت هناك مشاعره الشخصية ليس غير ..

وقال أبو سالم لزملائه :

– اسمعوا .. إنني أرى أنه ليس لديكم أي دليل على أن الرجل قد خان الثقة التي وضعناها فيه .. صحيح أنه يهودي .. وأننا لا نأمل – ولا نطلب – منه أن يتعاطف معنا ، ولكنني أقول لكم الحق ، وهو أننا لم نر من الرجل ما يريب .. انه ما زال كما عهدناه منذ عشرات السنين .. بل إنني لأصارحكم القول بأنني بت أشعر بالخجل حين أرى أن الرجل قد لاحظ ابتعادنا عنه ، وعدم انفتاحنا عليه كما كنا في السابق .. ولذا أرى أن نترك الرجل وشأنه ..

وعلق أبو ابراهيم على كلام أبو سالم متسائلاً ببطء :

- هل هو على استعداد لأن يقاتل معنا ويدافع عن البلدة؟..

فرد أبو سالم حائراً :

- لست أدري.. لم لا تسألونه.. على كل حال الكلمة الحاسمة هي للأخ أبو جميل..

واتجهت الأنظار إلى أبو جميل الذي بدا عليه وكأنه قد درس الموضوع سابقاً واتخذ فيه قراراً، إذ رد على الفور وهو يفتل شاربه كعادته :

- الواقع أنه لا يجوز لنا، من الناحية العسكرية، أن نترك بين صفوفنا رجلاً من الأعداء.. وقد دلتني تجربتي على أنه قد يجوز أن يغير الذئب جلده، ولكن اليهودي لا يتخلى عن طباعه المعروفة أبداً...

فأشرق وجه أبو ابراهيم قائلاً بلهجة انتصار :

- ألم أقل لكم؟.. هه.. أكمل كلامك يا أبو جميل...

واستطرد أبو جميل :

- ولكن.. من ناحية أخرى.. لا نستطيع أن نظلم الرجل.. أو لا نريد أن نظلمه.. ولكم أنتم أن تقرروا ما ترون بشأنه.. فاما أن يذهب إلى قومه.. واما أن يبقى هنا في بيته ونغلقه عليه... ولو سألتموني عم أفضل لقلت لكم إنني أفضل أن يتركنا ويذهب إلى قومه، وبمجرد خروجه، نغير مواقعنا كلها، ونعيد ترتيب قواتنا من جديد...

ولم يتكلم أحد، فالكلمة الفاصلة دائماً لأبو جميل بحكم مركزه كقائد عسكري للبلدة..

وتكلم نمر بلهجته المتحمسة المعتادة :

- لم لا نقتله؟..

وسرت همهمة بين الحاضرين.. فهذا الإحتمال لم يرد بخاطر أحد منهم..

وتساءل أبو سالم بدهشة:

- نقتله؟..

- أجل.. لقد قتل لنا قومه مائتين وخمسين نفساً في دير ياسين، بين امرأة وطفل وشيخ، أفكثير علينا أن نثأر لقتلانا بأربعة أشخاص هم الآن في قبضة أيدينا؟..

وما كان أشد دهشة الحاضرين حين انبرى أبو ابراهيم نفسه يستنكر الإقتراح ويرفضه:

- لا.. لا.. هذا لا يتفق مع الأخلاق العربية، الرجل، مهما يكن من الأمر، ضيفنا.. وقد عاملناه وكأنه واحد منا.. وإذا كنا لا نثق فيه، فهذا شيء.. أما أن نقتله فهذا شيء آخر.. شيء آخر لا أوافق عليه..

وعادت الهمهمة تسري بين الحاضرين، وكل منهم يحاول أن يحصل على موافقة الآخرين.. بين أن يدعوا حايم بين أظهرهم.. أو أن يخرجوه من البلدة.. أو.. أن يقتلوه..

وحسم أبو جميل الكلام قائلاً بلهجته المتمهلة:

- كفى يا جماعة.. لقد أخذ هذا الموضوع من وقتنا أكثر مما يجب،. أحسن ما نفعله هو أن نبعث به إلى قومه وننفض أيدينا منه...

* * *

- حايم.. تعال.. تعال..

صرخت زوجة حايم برعب قاتل وهي تختلس النظر من النافذة، إذ كانت تتناوب مع زوجها وولديهما النظر من وراء الستارة المسدلة..

وطارت نفس حايم شعاعاً وهو يلمس رنة الذعر في صوت زوجته، فجرى مسرعاً،

واختلس نظرة من النافذة، فأحس بقلبه يكاد يتوقف من الخوف..

- انهم قادمون...

قالت الزوجة ذلك، والرعب يهزها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.. وأردفت:

- ماذا ستفعل؟.. ماذا ستفعل؟..

وارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي حايم وقال لزوجته:

- خبئي السلاح في الحال.، وتصرفوا جميعاً بشكل طبيعي..

وسأله يوري بسذاجة:

- هل سيقتلوننا يا أبي..

- إذا تصرفتم كما يجب أن تتصرفوا، فلن ينالكم سوء...

وسمع بعد لحظات صوت طرق، فقام بهدوء، وفتح الباب، ليرى جمعاً من أهالي البلدة يتقدمهم أبو جميل وأبو ابراهيم...

ومع أن الرعب كان قد أخذ منه كل مأخذ، فإنه تمالك نفسه، وتظاهر بالبراءة والمرح وقال:

- أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً.. تفضلوا.. تفضلوا..

ودخل الرجال وهم يتبادلون النظرات، وكل منهم يستوحي من رأيه الخاص في الرجل رأياً في طريقة استقباله هذه...

ورحبت بهم زوجته، فجلسوا، وجلس حايم تجاههم وهو لا يزال يردد عبارات الترحيب..

وساد صمت تام في الغرفة بعد ذلك.. فالرجال ينظرون إلى حايم صامتين، وهو يدير بصره فيهم بارتباك...

ثم قال اليهودي :

- عاش من شافكم.. مضت مدة طويلة لم نركم فيها..

فقال له نمر ببرود :

- ونحن أيضاً لم نرك.. ومن يحب إنساناً فإنه يسأل عنه...

ورد حاييم بلهجة بريئة :

- لقد قلت في نفسي انكم تعرفون أو تخمنون سبب انقطاعي عنكم.. إنني في الحق أشعر بالخجل من.. من ذاك الذي حدث في دير ياسين وغيرها.. فمن جهة ليس بإمكاني أن أصنع شيئاً، ومن جهة ثانية لم يعد بوسعي أن أرفع عيني في وجه أحد منكم..

ويبدو أن إجابة حاييم قد تركت في نفوسهم أثراً طيباً، فالرجل يتكلم بطريقة منطقية ولهجته كلها براءة.. ولكن شيئاً من الشك كان لا يزال يساور اثنين : أبو ابراهيم، ونمر...

وعبّر أبو ابراهيم عن ذلك بقوله له :

- لقد سبق لك أن اقترحت عليّ مغادرة البلدة فهل كنت تعلم بأن ذلك سيحدث...

- أنا؟..

هتف اليهودي ببراءة وهو ينحني على أبو ابراهيم واستطرد :

- أبداً.. أبداً.. كل ما في الأمر إنني كنت أستنتج من الوقائع وأستقرىء الأحداث،. بل إنني كنت أنوي مغادرة البلدة معك لو وافقت على اقتراحي...

مرة أخرى استطاع اليهودي أن يرد بصورة مقنعة، ولكن نمر لم يقتنع :

- اسمع يا حاييم.. إننا كما ترى سوف ندافع عن بلدتنا حتى آخر رجل.، لن نسمح بأن يقع لنا مثل الذي وقع في دير ياسين.. فهل.. أنت على استعداد لتقاتل معنا؟..

وبدا للحضور أن نمر قد نجح في وضع حايم في موقع صعب ، فاعتدلوا جميعاً في جلستهم ، وركزوا أبصارهم عليه يريدون أن يسمعوا جوابه ، وكان حايم نفسه يشعر بأنه قد أحرج ، فقال لنمر :

– يا ولدي يا نمر .. أنا ابن هذه البلدة قبل أن أكون أي شيء آخر .. وأنا على استعداد لأن أفعل كل ما تطلبونه مني .. ولكنني ، لسوء الحظ ، لا أجيد استعمال السلاح ... ولا أذكر أنني أمسكت بندقية ، بل مسدساً ، طول حياتي ...

– ندربك ...

أجابه نمر بهدوء .. فهز حايم رأسه ، وقلب يده باستسلام وقال :

– كما تريدون ...

وهنا تنحنح أبو جميل متدخلاً في الحديث ، وقال لحايم :

– أصغ إليّ يا صاحبي .. صحيح إنك ، كما قلت ، ابن البلدة ، ولكننا – كما تعلم – أصحابها الأصليون .. وأعتقد أننا سنحرجك بدون مبرر فيما لو اشتركت معنا في القتال ... كما أنه لا وقت لدينا كي ندربك .. وأرجو عفوك إذا قلت لك أننا نقترح عليك مغادرة البلدة ..

– أغادر .. البلدة ..

همس حايم بذهول ، إذ لم يخطر له مثل هذا الحل على بال ..

– أجل .. تغادرها إلى حين .. وتعود إليها عندما تهدأ الأحوال ..

ولم يكن أمام حايم خيار آخر ، فهز كتفيه وهو يقول :

– إذا كانت هذه رغبتكم فلا مانع عندي .. ولكنني أرجوكم ألا تسيئوا بي الظن ..

– لو كنا نسيء بك الظن لما كلفنا قتلك أكثر من « تعريفة » ثمن رصاصة واحدة ..

وبلع حايم ريقه ، ونهض وهو يحاول أن يتماسك وقال للرجال :

– على رسلكم إذن.. أرجو أن تمهلوني يوماً واحداً..

* * *

في حي البقعة ، بالقدس الجديدة ، كانت الخواطر والمشاعر كلها مشدودة إلى عين كارم ، فإن معظم أهلها ، من النساء والأطفال والشيوخ ، قد سكنوا في هذا الحي ، دون أن يخطر ببالهم أن يفكروا في غير موعد العودة القريب إلى عين كارم...

كانت أفئدة النساء تتصدع قلقاً وألماً على الرجال الذين تركنهم هناك.. وكن يحاولن تسقّط الأنباء من مختلف المصادر.. ولكن أياماً عديدة مضت دون أن يأتي عن عين كارم ، أو منها ، أي خبر..

وكانت أم ابراهيم تجلس طوال نهارها على جانب من طريق القدس – عين كارم ، وإلى جانبها ولدها الصغير ، وعيناها مسمّرتان نحو الأفق الذي ينتهي عند عين كارم..

كانت تريد أن تعرف قبل غيرها ما جرى ، مما هو متوقع أن يجري..

كانت الشائعات كثيرة ، وكثيرة جداً ، وكانت أخبار الأحداث تتوارد كل لحظة تقريباً.. وكان معظمها – فيما يتبين بعد ذلك – غير صحيح.. إلا أن الأذهان كانت مهيأة لسماع أي شيء ، وتصديق أي شيء ، وتكذيب أي شيء أيضاً...

كانت « الحرب » قد بدأت.. ونشبت المعارك في كل مكان من أرض فلسطين ، من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ، ومن أقصى شرقها إلى أقصى غربها.. والتصقت آذان الناس بأجهزة الراديو تحاول أن تعرف منها شيئاً ، وتحاول – خلال ذلك – تمييز الصدق من الكذب ، والصواب من الخطأ...

ومضت أسابيع ، وليس هناك أي خبر تقريباً عن عين كارم بالذات ، ولكن أم ابراهيم لم تغير شيئاً من عادتها اليومية بالجلوس عند الطريق الذي يصل بين القدس وبلدتها ، علّها تسمع ولو خبراً واحداً يطمئنها ويسكن مخاوفها..

لقد باتت ، لكثرة ما تراوحت أحاسيسها ما بين التفاؤل والتشاؤم ، لا تكاد تفرق بينهما.. بل انها كانت تصارح نفسها – بشجاعة غريبة – أنها ستكون أشد دهشة لو جاءها نبأ بأن زوجها ما زال حياً ، فهي تعرف رجلها ، وتذكر القسم الذي ردده أكثر من مرة أمامها وأمام سواها ، وهو أن يعيش في عين كارم ويموت في عين كارم ، وما كان أبو ابراهيم بالذي يحنث بيمين أقسمه.. وانتهت هواجسها ، بعد ذلك ، حين جاءها النبأ اليقين...

كانت جالسة في مكانها المعتاد تنظر إلى بعيد ، وبجانبها ابراهيم ، حين رأت على مرمى النظر – جهة البلدة – شبحاً بدا لها أسود في الظلام الذي بدأ يسدل أستاره ، كان شبح إنسان ، يتحامل على نفسه مترنحاً ، يقف تارة ويسقط أخرى ، ويلوح بيديه تارة ثالثة..

وقد استطاعت أم ابراهيم أن تحدس أنه عربي ، من ملابسه ، وخاصة كوفيته وعقاله ، فهبت واقفة ، وأسرعت الخطى نحوه إلى أن وصلت إليه ، ولم تكد تره وتتعرف عليه حتى شهقت شهقة قوية وقالت :

– من؟.. نمر؟...

ونظر إليها الشاب الذي كانت الدماء تملأ وجهه كله ، كما كانت تنزف من ساقه اليسرى ، وقد تلطخت ملابسه بالوحل والدم ، وتمزقت.

وحاول نمر أن يتكلم ، فتح شفتيه بصعوبة وتحشرجت في حلقه بضع كلمات ، ثم لم يلبث رأسه أن سقط إلى جانبه ، فصرخت أم ابراهيم إذ حسبت أنه مات ، فوضعت باطن كفها أمام أنفه – كعادة القرويين في معرفة المشكوك في موتهم – وسرعان ما رفعت رأسها إلى السماء حامدة شاكرة ، ذلك أن أنفاس المصاب الحارة كانت تتردد بصعوبة..

ونهضت أم ابراهيم مسرعة إلى قربة الماء التي اعتادت أن تأخذها معها كل يوم ، فسقته ، ومسحت له وجهه بالماء في حين طار ابراهيم مسرعاً ، بناء على أمر من أمه ، ليأتي بمن يسعفون الجريح الذي لم يروا سواه من أهل البلدة المحاصرة...

* * *

فتح نمر عينيه بصعوبة ، وأجالها فيما حوله دون أن يبدو عليه أنه عرف المكان الذي هو فيه...

كان يرى حوله وجوهاً مختلفة ، لرجال ونساء وأطفال ، يحدقون فيه ، ويرقبونه بلهفة ، وقد خيم الصمت عليهم..

ولكن نظراته لم تكن تدل على أنه يميز المرئيات أمامه ، فهي فارغة ، تنظر إلى لا شيء ، وتدور في أرجاء المكان بلا هدف...

وشيئاً فشيئاً بدا عليه أنه قد بدأ يعود إلى وعيه ، أحس بالفراش الوثير الذي مدد عليه ، والملابس النظيفة التي ألبسوه إياها ، والضمادات الطبية التي ضمدوا بها جراحه..

وسمع صوتاً نسائياً يهمس بخفوت :

- الحمد لله.. يبدو أنه قد بدأ يرانا...

ونظر إلى المتكلمة ، وكانت أم ابراهيم ، واغتصب ابتسامة واهنة ، وحرك شفتيه عدة مرات ليتكلم ويقول بصوت مرتجف :

- شكراً لكم.. لقد.. لقد أسعفتموني في الوقت المناسب..

ولعل المجهود الذي بذله في الكلام قد أرهقه ، فهو قد أغلق عينيه على الفور ، واسترخى جسده حتى حسبه الحاضرون قد مات ، فارتفعت شهقات الذعر ، ولكن أم ابراهيم أكدت



لهم أنه قد أغمي عليه فقط . . . وأن عليهم أن يتركوه مستريحاً بضعة أيام ، قبل أن يستمعوا إليه ، ويعلموا منه ما آل إليه مصير أولئك الرجال الذي تركوهم في عين كارم . . .

ومنذ أن أتى نمر لم تعد أم ابراهيم تخرج إلى الطريق منتظرة أحداً يأتي من جهة عين كارم . . لقد اقتصر اهتمامها الآن على ولدها والمريض . . . وانشغل فكرها في الخطوة التالية . .

كان حي « البقعة » الذي يقوم في القدس الجديدة على مقربة من فندق الملك داود الشهير ، منطقة عسكرية يسيطر عليها البريطانيون الذين كانوا قد بدأوا بالإنسحاب تدريجياً من فلسطين ، ووفقاً للمخطط الموضوع لتنفيذ مشروع تقسيم فلسطين . .

وكانت العمليات العسكرية قائمة على قدم وساق من جميع الأطراف ، ليل نهار من غير انقطاع ، وكان للحي أيضاً نصيبه من القنابل والقذائف ، والعمليات الهجومية ، وعمليات النسف والتخريب . .

كانت المنطقة مسرحاً لعمليات قوات عربية ويهودية وبريطانية عديدة . . . كل منها تعمل ضمن أهدافها ، فتصطدم القوات العربية أحياناً بالبريطانيين وتقاتلهم وتصطدم القوات اليهودية بالعرب تارة وبالبريطانيين تارة أخرى . . . ويصطدم البريطانيون - بدورهم - بالطرفين الآخرين ، ويقاتلونهم ، فكان الموقع الواحد يسقط في أيدي جميع الأطراف على التوالي ، يستولي عليه طرف ، فينتزعه الطرف الآخر ، فيشن الطرف الثالث هجوماً عليه وهكذا . . .

كان الرعب ، والموت ، والدمار ، والفزع ، والرصاص ، والقنابل ، والحرائق ، والتخريب ، والألغام ، كلها ظواهر عايشها الناس في حي البقعة كما عايشها الجميع في مختلف مناطق فلسطين . . .

وكثيراً ما كانت عائلات عين كارم تجتمع لتبحث أمورها ، وتحاول أن تتلمس طريقها وسط هذه الأهوال..

كانت العودة الموعودة إلى البلدة غير ممكنة البتة ، خلافاً لما كان عليه الأمل يوم النزوح...

كانت المشكلة - الآن - هي تحديد النقطة التالية للنزوح ، إذ أن تصاعد العمليات العسكرية في القدس ، وخاصة القدس الجديدة ، يجعل من المستحيل عليهم البقاء فيها...

كانت القدس الجديدة عربية في معظمها ، كما قلنا ، وكان أصحاب معظم عماراتها الفخمة ، ومنشآتها الحديثة هم من العرب ، ولم يكن لليهود فيها سوى أيسر نصيب خلافاً لادعاءاتهم ومزاعمهم...

ولكن القدس الجديدة كانت من نصيب اليهود بموجب مشروع التقسيم الذي يجري تنفيذه بمساعدات فعالة غير محدودة من قبل السلطة البريطانية ، ولذا فقد كان نصيب القدس من الهجمات الشرسة المتوالية عظيماً ومستمراً ، الأمر الذي جعل أم ابراهيم تقرر النزوح مرة أخرى من القدس الجديدة... وأبلغت ولدها ابراهيم بقرارها هذا ، فنظر إليها نظرة فارغة وقال :

- ولكن.. ألم تقولي لي أننا سنعود إلى بلدتنا؟..

وأشاحت الأم بوجهها كيلا يرى ولدها الدموع المتحجرة في عينيها وقالت وهي تتنهد :

- ليس يدري مصيرنا إلا الله يا ولدي... بالأمس نزحنا عن عين كارم... وغداً سننزح عن القدس.. ومن يدري إلى أين سننزح بعد ذلك...

وشعر ابراهيم بيد باردة تعتصر قلبه بقوة وعنف... لقد داخله - لأول مرة في

حياته – رعب حقيقي ، وشعور بأنه وحيد في هذه الدنيا ، وأنه ليس له من يحميه بعد الآن... وأن أياماً عصيبة.. عصيبة جداً.. تفتح ذراعيها له ، لكي تضمه إليها ، وتعتصر كل قطرة من دمائه ، وحياته ، ومستقبله...

* * *

– ألف حمد لله... أنت اليوم ، ما شاء الله ، أحسن بكثير...

– شكراً لك يا خالتي أم ابراهيم.. هذا بفضل الله ثم بفضل رعايتك لي..

– استغفر الله يا ولدي.. أنا لم أفعل شيئاً..

دار هذا الحديث بين أم ابراهيم ونمر ، وكان ابراهيم كعادته ، يصغي إلى الكلام ، فيسمعه ولكنه لا يفهم مضمونه ، فهو – حتى الآن – لم يفهم أسباب ما حدث.. ولا هو عرف حقيقته.. فقد سمعهم يقولون أن خروجهم من عين كارم هو خروج مؤقت ، وأنهم لن يلبثوا أن يعودوا ، وها قد مضى – في نظره – زمن طويل ولم يتحركوا من أرضهم الجديدة في القدس ، ينامون ويستيقظون على أصوات الإنفجارات والقنابل ، وأخبار القتل والتقاتل ، وأنباء الإنتصارات والهزائم ، ولقد عجز – رغم كل ما بذل من جهد – عن أن يفهم من الذي يقاتل من ، ومن الذي انتصر على من ، ومن الذي هزم من...

هناك أيضاً مسألة حيّرته وتحيره كثيراً ، وهي مسألة أبيه... أين هو؟... لماذا بقي في البلدة وتركهم يخرجون ، ولم أبطأ في اللحاق بهم كما كان ابراهيم يتمنى؟..

ونمر.. هذا الشاب المتوثب بالحماسة والحيوية ، والمعروف في البلدة كلها باندفاعه وشجاعته ، ما الذي أصابه ، ومن الذي أصابه ، حتى بات طريح الفراش ، مربوطاً بالضمادات والقلوب من حوله والهة واجمة ، ترقب حالته الصحية في قلق وانفعال...

كل هذا ، وغيره ، لم يفهمه ابراهيم في حينه ، ولا وعى مدلولاته وخلفياته ، كان أشبه ما يكون بمن يشاهد فيلماً سينمائياً ناطقاً بلغة لا يفهمها.. يرى المشاهد ، ويسجلها في ذاكرته

الغضة بكل تفاصيلها ، من غير أن يدري أسبابها ، وعواملها...

وجذبت الأم كرسياً ، وضعته بجانب سرير نمر ، وأسندت مرفقها إلى فراشه ، وابراهيم لا يزال متعلقاً بثوبها ، وقالت لنمر بهدوء تام ، ومن غير أن تظهر في صوتها نبرة انفعال واحدة :

– والآن يا نمر.. قص عليّ ما حدث...

وغام وجه الشاب ، وظللته سحابة كثيفة من الكآبة إذ عادت الذكرى إلى خاطره ، وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة...

وبنفس الصوت الهادىء عادت أم ابراهيم تقول له :

– لا تدر وجهك.. وانظر إليّ.. لقد سألتك سؤالاً وأريد جوابه...

– ألا نترك هذا الحديث يا خالة أم ابراهيم؟.. أنت تعرفين النتيجة.. ولا يهمك أن تعرفي كيف...

– بل يهمني جداً.. أنا أعرف أن رجلي قد رحل ، شعرت بهذا منذ أن ودعته آخر مرة ، وكنت على يقين من أنني لن أشاهده مرة أخرى.. إنني أعرف هذا يا نمر.. ولست أطلب منك أكثر من أن تقول لي كيف...

وأغمض نمر عينيه ، وقطب جبينه ، وكأنه يريد أن يستعيد الذكرى الأليمة ، مع أنه – في الواقع – كان يريد أن يبعدها عن ذاكرته فهي لم تبرح هذه الذاكرة قط ، وما زالت تلح عليه في يقظته ومنامه..

– هه.. إنني أنتظر..

قالت المرأة الشجاعة هذه الجملة ، وهي تنظر إلى نمر نظرة أدرك معها أن لا سبيل إلى التهرب من الجواب..

والتقط نمر نفساً عميقاً ، ثم أخذ يروي القصة...

– قد تدهشين يا أم ابراهيم لو تعلمين كم أرقني سؤال كان يلح عليّ باستمرار... وهو: هل كان علينا أن نقتل حاييم أم أننا لم نخطىء حين طلبنا إليه بمنتهى اللطف أن يغادر البلدة إلى حين...

– حاييم؟... وما شأن حاييم في الأمر...

– كل الشأن.. بل إنني أعتبره نموذجاً لكل يهودي دخل فلسطين... كان ، كما تعلمين ، مثالاً في التهذيب ، واللطف ، والبعد عن المشاكسة ، يعايشنا ويحاول أن يندمج فينا ، ولكنه – أبداً – لم يكن معنا.. كان يتظاهر بالبراءة والمسكنة ، وهو يخفي تحت اهابه ذئباً ذا أنياب حادة ، . قال لنا أنه لم يمسك سلاحاً في حياته كلها.. وليتك رأيته عندما كان في صفوف المهاجمين يعمل على مدفع رشاش وكأنه جندي قضى حياته كلها وراء ذلك المدفع..

لست أدري ما أقول يا ام ابراهيم ، لقد خلقنا الله قوماً يحترمون الشرف ، ويقدرون الشهامة ، يؤوون الضيف ، ويكرمون الغريب.. هذه كانت على الدوام أخلاقنا وشيمنا.. وكنا فخورين بها باستمرار ، ونعتبرها مُثُلاً نموذجية للأخلاق الحقيقية... بل كنا نعتبرها هي – ذاتها – الأخلاق...

إننا ، يا أم ابراهيم ، لم نغدر يوماً ، ولم نطعن أحداً في الظلام ، ولا خنّا الأمانة ، ولا خفرنا ذمة ، ولا روّعنا آمناً... كنا نعتبر هذه الصفات عاراً نربأ بأنفسنا أن يلصق بنا... والآن هأنت ترين.. نحن ، أصحاب الأرض قد هجرنا أرضنا مكرهين ، بشرفنا وشهامتنا ، وأخلاقنا ، ومناقبنا ، واغتصب الأرض الكذابون والمخادعون والغادرون ، والطاعنون في الظلام... آه يا أم ابراهيم... لو أننا عاملنا اليهود كما عاملونا ، فلربما تغيرت الأمور كثيراً..

– يا نمر.. يا ولدي.. كل يعمل بما فطر عليه.. ونحن ما زلنا نعتز بأخلاقنا ومناقبنا ، فلا تخلط الأمور ببعضها ، ولا تدع للشك أو اليأس سبيلاً إلى نفسك.. هيا.. قل لي ما حدث...

- إنك تستطيعين استنتاجه بنفسك.. فلقد أطال العدو الحصار، كان فيما يبدو خائفاً من اقتحام البلدة بعد الذي ناله منا من قبل.. وكنا نحن قد اتخذنا كل ما استطعنا من عدة.. كنا نبدل مواقعنا باستمرار خوفاً من أن يكون العدو قد عرفها... وظللنا من اليوم الأول، وحتى اليوم الأخير، على أتم ما ينبغي من الاستعداد واليقظة... ثم...

ثم بدأ الهجوم...

تماماً كما بدأ في دير ياسين.. مع الخيوط الأولى للفجر..

وهببنا ندافع عن كل شبر.. نهلل ونكبر كلما أصبنا إحدى مصفحات العدو، أو أسكتنا أحد مرابض مدفعيته.. وكان الحاج.. أعني أبو ابراهيم.. أعني.. المرحوم الحاج أبو ابراهيم، كالليث الهصور، يطلق عليهم مدفعه الرشاش فيحصدهم حصداً.. فيتراجعون ويسود الهدوء بضع ساعات، ثم لا يلبثون أن يعاودوا الهجوم بقوات أكبر ومصفحات أكثر.. ولقد رأيت بعيني هاتين، ابن بلدتنا المسالم المسكين «حاييم» وهو يجلس وراء مدفع رشاش فوق إحدى المصفحات، ويوجه نيرانه نحونا... نحو البلدة التي آوته نيفاً وربع قرن، والقوم الذين عاملوه كواحد منهم عندما جاء بلدتهم بائساً، فقيراً، مشرداً...

لقد أدى كل من رجال البلدة دوره على أفضل ما يكون الأداء، ولقد رأيت الحاج، يرحمه الله، وهو يحمل كمية من القنابل اليدوية، ويهجم بها على بعض مصفحات العدو، يلقيها - بشجاعة خارقة - من داخل أبراجها، لتنفجر في مثل هزيم الرعد، وليستشهد غالياً، بعد أن كبد العدو خسائر لم يكن يتوقعها.. لقد كان الجميع هكذا.. حتى أنا ما كنت أظن أنني أنجو من تلك المجزرة.. فلقد أصبت عدة مرات، وفقدت وعيي عدة مرات، ولكنني كنت أجدني أقاتل مرة أخرى بجنون، هنا وهناك، إلى أن أصابتني شظية قنبلة في رأسي ففقدت الوعي.. وغبت عن الوجود... وما أدري كم مضي عليّ من الزمن وأنا على هذه الحالة، ولكنني أذكر أنني فتحت عيني، فوجدت الدنيا حولي ظلاماً... وقد كوموا شهداءنا في جانب من ساحة البلدة، رفعت رأسي، وأدرت عيني فيما حولي فلم أجد أحداً.. فحركت جسمي، فإذا به يستجيب لي وأدركت، عندها، أنني لم أمت...

زحفت على بطني وأنا أجيل البصر حولي ، وكم كان غيظي عظيماً عندما رأيت الأنوار تشع في بيتكم .. بيتكم بالذات .. أكبر بيوت البلدة وأجملها ، ومع أنني كنت في خطر شديد ، فقد تحاملت على نفسي وتسللت نحو البيت وأطللت بحذر من النافذة ، لأرى حاييم ، حاييم المسكين المسالم ، وهو يجلس على كرسي المرحوم ، ويشرب الأنخاب مع رفاقه القتلة وضحكاتهم تملأ المكان ...

- كفى .. كفى بالله عليك ..

صرخت أم ابراهيم ، إذ وصل نمر في حديثه إلى هذا الحد ، ودفنت وجهها في طرف الفراش ، وراحت تنشج وتبكي في حرقة ... فلقد آلمتها الصورة حتى الصميم .. وأدركت الآن سر كل شيء ... أدركت ألا عودة بعد الآن إلى البيت الذي هجرته ليسكنه الغريب الوافد ... لا عودة إلا بنفس الطريقة التي اغتصب الغريب بها البيت ...

ورفعت رأسها أخيراً ، والدموع تلمع في عينيها ، فقال لها نمر بلهجة المعتذر :

- أنا آسف جداً يا خالة .. ما كان ينبغي لي أن أقول هذا ..

- بل كان يجب أن تقوله .. أنا التي طلبت منك أن تقوله .. وما بكيت إلا لكي أنفّس عن روحي ما ملأها من الحقد والغضب ...

وبلهجة عادية تماماً ، عادت أم ابراهيم تسأله بعد أن تمالكت نفسها :

- ثم .. ماذا جرى ..

- تحاملت على نفسي .. وتوجهت بعيداً ، متخذاً طريقي إلى القدس ، . أزحف مرة .. وأسير مترنحاً مرة .. إلى أن .. إلى أن رأيتك ...

وصمت نمر ، فقد رأى أم ابراهيم واجمة تحدق في الأرض وكأنها تنظر إلى فراغ ، وأدرك أنها قد غرقت في بحر من الأفكار الهائجة ، فراح يتأملها دون أن يضيف إلى ما قاله حرفاً واحداً ..

والحق أن المرأة قد باتت ترى الأمور – بعد حديث نمر – أكثر وضوحاً ، فالمسألة أكبر وأصعب مما كانوا – جميعاً – يقدّرون ، وأن خروجها الذي كانت تعتبره مؤقتاً ، سوف يطول ، وأن عليها أن تنظر إلى المستقبل ، وتتهيأ له ، كي تواجهه وحيدة أو شبه وحيدة . . .

لقد مضى رجلها ، وزوجها ، وشريك حياتها . . مضى كما عاهد نفسه على أن يمضي . . لقد أقسم بألا يترك أرضه ، وأن يموت فيها ، وقد وفى بوعده ، وأوفى بقسمه ، ومات ميتة الرجال ، مات وهو يدافع عن أرضه ، وبيته وبلده . . .

وكان بإمكان نمر أن يحدس نوعية الأفكار التي تجول في رأس المرأة ، وأن يدرك بالتالي خطر استرسالها فيها ، وانه ليعرف أكثر من حادثة كان الجنون فيها نتيجة لمثل هذه الأفكار . . .

فهذا الصمت ، والإطراق ، والهدوء في تقبل أكثر الأنباء ترويعاً بالنسبة لها ، فيه خطر عليها ، وعلى عقلها . . .

لو أنها بكت . . لو أنها صرخت . . لو أنها فعلت أي شيء ، لكان هذا خيراً من ذلك الصمت المروع . . .

انها لم تبك إلا عندما حدثها عن الغرباء الذين احتلوا بيتها ، ولكنها – ويا للغرابة – تقبلت نبأ رحيل زوجها بشجاعة غير عادية ، وهذا النوع من الشجاعة ليس في صالحها . . . ان المرأة على شفا الجنون ولا ريب . . .

وحدّث نمر نفسه بأنه يجب أن يفعل شيئاً ما . . أو أن يقول شيئاً ما يخرج بها من لجة الأفكار المروعة التي ألقت بنفسها فيها . . .

وحار نمر . . ماذا يفعل . . ماذا يقول . . كيف ينتشلها مما هي فيه . .

وبينما كان يدير أفكاره في رأسه يحاول أن يجد طريقة ما ، جاءت المبادرة – على غير توقع منه – من الصغير ابراهيم . .

كان ابراهيم يصغي بكليته إلى حديث نمر.. ولكنه – بطبيعة الحال – لم يستوعبه كله، أو هو لم يفهم أبعاده المخيفة، ودلالاته التي سوف تنعكس عليه، وعلى مستقبله هو بالذات، بصورة لا تدعو إلى الارتياح...

كان كل ما استلفت انتباه ابراهيم من الحديث، هو ذكر أبيه أولاً، ثم ذكر «عمو حايم» ثانياً.. انه لم يفهم تماماً ماذا جرى لأبيه.. ولا ماذا فعل «عمو حايم» ببيتهم.. ولكن الاثنين – وقد ورد ذكرهما مراراً في حديث نمر – هما ما يهمانه، وهما ما يريد أن يستزيد من المعلومات عنهما.. وكعادته التي ألفها كلما أراد أن يجتذب انتباه أمه إليه، جذب طرف ثوبها وهو يقول لها متسائلاً:

– أماه.. أين أبي؟..

ورفعت المرأة رأسها، ونظرت إلى طفلها وقالت له بهدوء زلزل كيان نمر وجعل القشعريرة تسري في جسده:

– لقد مضى...

– إلى أين؟..

– سافر...

– إلى أين؟..

– إلى مكان بعيد..

– ومتى يعود؟..

وهنا لمعت عينا المرأة ببريق خاطف، وأمسكته من كتفيه وقالت ببطء:

– يعود عندما نعود نحن إلى بيتنا...

– ومتى نعود؟..

– عندما تقرر أنت أن تعود...

ولم يفهم الطفل شيئاً.. ولكنه حدث نفسه بأن عليه أن ينتظر، ربما طويلاً، إلى أن يعود أبوه...

وعاد الطفل يسأل:

– وعمو حايم.. هل سافر هو الآخر؟..

وكأنما كان هذا السؤال هو النار التي امتدت إلى بارود الغضب، والحقد، والتعاسة، واليأس، تلك التي كانت تملأ نفسها، فانفجرت..

رفعت يدها، وبكل ما فيها من قوة لطمت الطفل بظهر كفها على وجهه وهي تصرخ:

– كفى.. لا تقل «عمو».. انه ليس «عمو».. انه مجرم.. ولص.. وغاصب.. وقاتل.. هل فهمت...

وروّع الطفل، وارتمى في جانب من الغرفة وقد أذهلته المفاجأة أكثر مما أوجعته الضربة، وراح يبكي في صمت.. فهذه – فيما يذكر – هي أول مرة تضربه أمه فيها بهذه القسوة البالغة، ودون أن يرتكب ذنباً أكثر من أنه سأل عن «عمو حايم».. لا.. انه ليس «عمو».. وإنما هو مجرم ولص وغاصب وقاتل...

انه يريد أن يقول، أنه لم يرتكب ذنباً سوى أنه سأل عن ذلك الرجل الذي كان يناديه «عمو حايم».. وكان يريد أن يسأل – من ثم – عن ولده «يوري»، صديقه العزيز، ورفيق أيامه السالفات في البلدة.. ولكنه شعر بأنه يجب أن يصمت.. وألا يسأل.. فهناك شيء جديد، لا يدري ما هو، قد طرأ على الموقف، وعليه ألا يأتي على ذكر هذه الأمور بعد الآن أمام أمه.. ولسوف يسأل عمّو نمر بعد ذلك – على انفراد – عن يوري.. ويطمئن عليه..

وظل نمر جامداً في فراشه، لم يتحرك.. ولم يحاول أن يمنع المرأة، ولو بالكلام، من أن تقسو على الطفل البريء هذه القسوة، فقد كان ضروريا، على أية حال، أن تفعل المرأة أي

شيء كيلا تصاب –في رأيه– بالجنون...

واتجهت المرأة ببصرها إلى حيث تكوم الطفل ، كتلة صغيرة من اللحم ، قد انطوى على نفسه ، ويداه تغطيان وجهه الذي لسعته اللطمة كأنها ضربة سوط..

وكأية أم ، ما لبثت أن شعرت بالندم ، والألم ، فقامت إليه ، وركعت بجانبه واحتضنته ، بل ضمته إلى صدرها بقوة ، وحاولت أن ترفع يديه عن وجهه لترى أثر اللطمة ولكنه –كأي طفل– رفض ، وظل يغطي وجهه بيديه ، وقد علا ، الآن ، صوت بكائه..

– ارفع يديك يا حبيبي عن وجهك وأرني..

ولكن الطفل تمسك بموقفه ، وتحولت يداه إلى كتلة صلبة من الفولاذ ، أو هكذا خيّل لأمه وهي تبذل مجهوداً حتى استطاعت أن ترى –أخيراً– الأثر الذي تركته لطمتها على وجه الطفل...

وعادت الأم تضمه إلى صدرها وهي تقول كالمعتذرة :

– الله يبلي يدي بالكسر يا ولدي.. لا تزعل.. وحقك عليّ..

ورأى نمر أن الموقف قد بات أقسى مما يحتمل أن يرى ، فغطى وجهه بيديه وهو يهتف في أعماقه بحرارة :

– يا رب.. ماذا ينتظر هذين المخلوقين بعد؟..

* * *

كان مخطط «التقسيم» سائراً كما أراد له واضعوه ومنفذوه..

وكانت الأحداث تتصاعد ، ونار الحرب تزداد استعاراً في القدس الجديدة التي كان مقرراً أن تكون من نصيب اليهود..

ومع هذا فلم يكن اليهود راضين عن هذا التقسيم الذي يعطيهم ما ليس لهم فيه حق، ذلك أن التقسيم كان يمتد عبر خط رام الله - القدس - نابلس، وهذا يجعل «الجامعة العبرية» و«مستشفى هداسا» في المنطقة التي ستترك للعرب، وهو ما حدث فعلاً.. وظل اليهود - فيما بعد - يرسلون قافلة تحمل المؤن إلى الجامعة والمستشفى طوال سنوات عديدة..

وكان تصاعد نيران القتال في القدس الجديدة يطال - بطبيعة الحال - حي البقعة الذي نزح - أو بالأصح: لجأ - إليه بعض أهالي عين كارم، ومنهم أم ابراهيم وولدها..

وكانت أعمال العنف المتبادل بين المجاهدين العرب والإرهابيين اليهود، قد جعلت أم ابراهيم ترى أن من غير الممكن لها أن تظل، هي وطفلها، في القدس الجديدة، إذ كان كل من الطرفين المتقاتلين يهتم برد كل ضربة تناله من الطرف الآخر، حرصاً على الروح المعنوية لقومه بالدرجة الأولى، ورغبة في تحقيق مكاسب عسكرية بالدرجة الثانية..

وكان مما جعل نمر يشعر بالإرتياح، وبشيء من الاطمئنان، أن المرأة الشجاعة قد اجتازت الأزمة بنجاح، فلقد تحول ما أصابها من الحزن والألم إلى قناع دائم كسا وجهها بمعالمه الكئيبة، ولم يفارقها - بعد ذلك - قط.. ولكن من الواضح - وهذا هو المهم - أن المرأة قد تقبلت المصاب الأليم ببسالة، وأنها قد احتملت الصدمة، وبات تفكيرها كله منصباً على وحيدها الذي كان عليها أن تحميه، وأن تدفع عنه الغوائل التي فتحت أفواهها البشعة، تريد أن تلتهمه كما التهمت آلافاً وآلافاً ممن نزلت بهم كارثة النزوح...

وجلست المرأة وحيدة مع صندوقها الخشبي الصغير، الذي بات هو كل ما تملك في دنياها... وراحت تحصي ما لديها، وتجري حساباتها لتعرف كيف تتصرف..

كانت لديها بضع مئات من «الجنيهات الفلسطينية» - كما كانت تسمى - وهي، ولا ريب، تعتبر ثروة إذ ذاك، كما كانت لديها صرّة صغيرة تحتوي على كمية صغيرة من المصاغ، كانت هي الأخرى تساوي - في تقديرها - مبلغاً لا بأس به..

أما سيارة الشحن الصغيرة التي كان يملكها زوجها ، والتي حملتها وولدها وبعض نساء بلدتها وأطفالها إلى القدس ، فقد قدمتها –عن طيب خاطر– لتساهم بها في الحرب الدائرة . .

كان ذلك بعد أسابيع قليلة من وصولها إلى القدس . .

فقد جاءها بعض المجاهدين الفلسطينيين ، وطلبوا منها أن تعطيهم السيارة لأنهم في حاجة إليها ، فوافقت دون تردد ، ودون أن تسألهم ماذا سيفعلون بها . . ولشد ما كانت فرحتها عندما علمت بما آل إليه مصير السيارة . .

لقد ملأها المجاهدون بالمتفجرات ، ووجهوها نحو إحدى العمارات التي كان يعتصم بها عدد كبير من الإرهابيين اليهود ، وأطلقوا لها العنان لتصطدم بالعمارة بعنف ، ولتنفجر – من ثم – بما فيها ، وتهدم العمارة بأكملها وتبيد معظم الإرهابيين ، وحين تلقت أم ابراهيم النبأ ، زغردت لأول مرة منذ أن غادرت بلدتها وتركت رجلها ، وقالت بفرحة وحشية :

– لعينيك يا ابو ابراهيم . . .

وضحك ابراهيم ، لا لشيء ، إلا لأنه رأى أمه تضحك ، بعد أن افتقد فيها حتى البسمة العابرة . . وبقي لأم ابراهيم صندوقها الخشبي الذي يضم أعز وأغلى ذكرياتها ، إلى جانب ثروتها الصغيرة ، واعتبرت الشاحنة مساهمة منها في الجهاد ضد الغاصبين . . .

* * *

كان أشد ما يشغل بال ابراهيم هو أن يعرف تفسيراً لما شاهده ، ولما مرّ به ، ولما عاناه منذ أن افترق عن والده إلى أن تلقى تلك اللطمة القوية من أمه . .

كان يحس بغريزة الرجولة التي ينطوي عليها اهابه الصغير ، أن عليه أن يعرف ، وأن يفهم . .

وكان أكثر ما حيّره ، أن أمه قد باتت أكثر رقة وحناناً عليه منذ أن لطمته تلك اللطمة التي تركت آثارها الموجعة على وجهه بضعة أيام ، وتركت آثارها الحائرة في قلبه بضع سنوات . . .

ولم يستطع أن يعرف الذنب الذي جناه حتى تلقى تلك اللطمة ، فهو لم يفعل أكثر من أن سأل عن «عمو حايم» . . . وبعدها وجد نفسه ملقى في ركن من الغرفة ولطمة أمه تلهب وجهه بآلامها البالغة . . .

لقد تعلم أن عليه ألا يأتي بعد الآن على ذكر «عمو حايم» . . . وبالتالي ألا يستطرد في أسئلته ليطمئن على يوري وراشيل . . .

ولكنه كان يريد أن يعرف : لماذا؟ . .

وإذ كان يرى أن من المستحيل عليه أن يسأل أمه ، فقد وجد في نمر الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يجيبه ، وأن يروي غليله . . .

وكان نمر ، بعد عدة أسابيع قضاها في الفراش ، قد استعاد قواه ، وعاد سيرته الأولى في المشاركة مع المجاهدين في أعمالهم الجريئة ، ولطالما رآه ابراهيم عائداً أشعث ، مغبراً ، يربط يده برباط ملوث بالدم أو يعرج عرجاً خفيفاً . . حاملاً مرة مسدساً ، وأخرى بندقية . . وثالثة رشاشاً صغيراً من النوع المسمى «تومي» . . .

وكانت عودته إلى البيت – في حي البقعة – حدثاً هاماً يهتم له كل من فيه من النساء ، والشيوخ ، والفتيان ، ومعظمهم من أهل عين كارم . . . فيلتفون حوله ، يسألونه بلهفة عن مجريات الأحداث ، ويستفهمون منه عما آلت إليه الأمور ، فيجيب على أسئلتهم ، ويروي لهم بعضاً من أنباء العمليات التي شارك فيها . . وكانت معنويات السامعين المتلهفين تتذبذب ارتفاعاً وانخفاضاً حسبما يأتيهم به نمر من أنباء ، وما يحدثهم به من انطباعات وتوقعات . .

وكانت أم ابراهيم أكثر أولئك السامعين تلهفاً على معرفة الأنباء ، وعلى تكوين صورة ما عن المستقبل القريب..

ولم تكن الأنباء التي يأتي بها نمر مشجعة على وجه العموم...

صحيح أن العمليات التي كان يقوم بها المجاهدون العرب قد أنزلت بالعدو أفدح الخسائر، وأنها، في مجملها، كانت ناجحة وموفقة... إلا أن المخطط الموضوع خارج فلسطين، من قبل الدول الكبرى، كان يسير وفق أهدافه المرسومة، دون أن يخطر ببال أحد – في الشرق أو الغرب – أن يتصور حال أولئك الذين شردوا من أرضهم وديارهم وبيوتهم دون ذنب ولا خطيئة، والذين كانوا يعيشون أيامهم موزعين بين الأمل واليأس، يصدقون كل شيء، ويكذبون كل شيء، والمؤن تشح يوماً بعد يوم، والحال تسوء بهم ساعة بعد ساعة، إلى أن جاءهم نمر ذات يوم يقول وهو يتهالك جالساً على الأرض:

– أعتقد أن عليكم الإنتقال من هنا في أقرب وقت...

ونزل كلام نمر على سكان البيت نزول الصاعقة، فصمتوا جميعاً بعد أن كانوا – كعادتهم – يستقبلونه بالأسئلة المتتالية...

وقالت أم ابراهيم متسائلة بصوت مرتجف:

– إلى أين ننتقل؟...

– إلى أي مكان آخر... إلى القدس القديمة.. إلى رام الله.. إلى أريحا.. كلّ حسب ظروفه...

وهتفت امرأة عجوز مذهولة:

– وأرضنا؟... وبلدتنا؟... وبيتنا؟...

فهز نمر كتفيه في يأس ، فهو – مثلهم جميعاً – لا يعرف الجواب . .

وعادت العجوز تتساءل :

– ألم يقولوا لنا أنها مسألة أيام . . أو أسابيع على الأكثر ، ونعود بعد ذلك إلى بيوتنا . . .

وأجابها الشاب بمرارة :

– يا أمي المسألة أكبر من هذا بكثير . . إنها أكبر مني ومنك ومن شعبنا . . لقد اتفق الكبار جميعهم علينا حتى الروس والأميركان الذين لم يتفقوا يوماً على شيء ، قد اتفقوا ضدنا ، . فماذا تريدين أن نفعل ؟ . .

وعلقت أم ابراهيم على ذلك التساؤل :

– أجل . . ماذا يجب أن نفعل ؟ . .

وعاد نمر الى الحديث :

– إن الإنجليز يخلون مواقعهم القائمة في القدس الجديدة ويسلمونها لليهود . . هذه فيما يبدو هي الخطة المتفق عليها بين الطرفين . . واليهود يحرصون على إخلاء كل مكان يتسلمونه من الإنجليز من أي وجود عربي . . وبمنتهى الوحشية والقسوة والعنف وها قد جاء دور القدس الجديدة . .

وقالت العجوز وهي تمسح دموعها بطرف غطاء رأسها الأبيض :

– ولكن إلى أين نذهب . . إلى أين نذهب . . إنني لا أعرف لي مكاناً ومأوى سوى بلدتي . . فيها ولدت . . وفيها عشت . . وفيها تزوجت وأنجبت . . وفيها بيتي وحياتي . . فإلى أين أذهب ؟ . .

وكأنما كانت تلك العجوز تعبّر عن آرائهم جميعاً ، وتساؤلاتهم جميعاً ، فليس في ذهن

أحد منهم ، إذ ذاك ، سوى هذه النظرة.. وتلك التساؤلات.. إلى أين نذهب وما نعرف لأنفسنا داراً غير دارنا ولا دياراً غير ديارنا..

وأمسك نمر يدي العجوز المعروقتين بيديه القويتين وقال لها بحماسة :

- يا أمي.. اصغي إليّ.. هذا الذي تتساءلين عنه هو نفسه ما نتساءل عنه.. والذي يهمني الآن هو أن تنجوا بأرواحكم.. وتتجهوا إلى منطقة آمنة.. وبعدها سنرى ما تتمخض عنه الأحداث..

وفجأة تحرك من بين الجالسين رجل عجوز ، لعله قد جاوز الثمانين ، كان خلال كل ما مر بأهالي عين كارم كالطفل الوديع ، يقترحون عليه أن يغادر البلدة ، فيفعل ، ويقولون له أن يأوي إلى القدس الجديدة فيطيع... ويقدمون له من الطعام كسرة من الخبز ، وشيئاً من الادام فيأكل صامتاً.. ولم يكن أحد يكاد يحس بوجوده أكثر مما يحس بوجود العشرات من النساء والأطفال وأمثاله من المسنين.. ولم يسمعه أحد - قط - يعلّق على الأحداث بكلمة ، ولا هو أبدى ، مرة ، رأياً... كان يكتفي بالصمت العميق ، والإطراق ، والإصغاء إلى ما يدور أمامه من أحاديث...

وفوجىء الجميع بهذا العجوز ، ويدعى أبو رشدي ، وهو يبدي رأيه لأول مرة :

- لقد عاصرت من أحداث هذه القضية ما يشيب له الطفل الصغير... منذ أيام تركيا.. إلى أيام الإنجليز ، وشاهدت الثورات ، وشاركت فيها ، ورأيت المظاهرات ، وسرت فيها ، وكنت أنظر إلى العمر وهو يتقدم بي عاماً بعد عام ، وقوتي تهن يوماً بعد يوم ، والمؤامرة تتصاعد لحظة بعد لحظة...

وصمت العجوز بعض الوقت وهو يدير عينيه الكليلتين في الحاضرين الذين أدهشهم انه تكلم أخيراً..

واستطرد يقول بعد أن التقط أنفاسه :

– أني لن أتحرك من مكاني هذا قيد أنملة.. اما أن أموت هنا.. أو أن أحيا هنا.. ولن أرضى لنفسي –كما لا أرضي لكم– أن أتنقل من مكان إلى آخر من غير غاية ولا هدف...

وأراد نمر أن يعلق فقال بلطف:

– ولكن.. يا عم أبو رشدي...

فنهض العجوز بقوة لم تكن متوقعة منه، ورفع رأسه الذي كان منحنياً على الدوام، وبدا وكأن الشباب قد دب فيه فجأة، وصاح وهو يختطف الرشاش الصغير «تومي» المعلق إلى كتف نمر:

– دعوني.. ولا يكلمني منكم أحد.. أريد أن أموت هنا.. ولن أموت على قارعة طريق لا أدري أين يكون...

وبين أنظار الحاضرين المذهولين، توجه أبو رشدي إلى باب الشارع، وسرعان ما اختفى وراءه..

وصاحت النسوة:

– امسكوه.. امنعوه.. الوحوش.. سيقتلونه..

وقال نمر وهو جامد في مكانه:

– لن نستطيع إرجاعه.. وكل نفس تموت في الأرض التي قدرت لها...

وسارع نمر إلى النافذة ينظر منها، ليرى إلى أبو رشدي وقد حمل الرشاش الصغير بطريقة تدل على أنه ليس غريباً عنه...

كان أبو رشدي يسير بخطوات ثابتة، وكأنه شاب في العشرين، متجهاً نحو حاجز أقامه اليهود في نهاية الشارع على شكل كومة مرتفعة من الحجارة، وكان يقوم وراء الحاجز اثنان

أو ثلاثة من الإرهابيين اليهود ، لم يروا من أبو رشدي من وراء الحاجز سوى رأسه المرفوع ، وكتفيه المنتصبين ، فصاحوا به :

— عربي .. عربي .. روخ من هون ..

ولكنه لم يرد عليهم ، وواصل تقدمه إلى أن صار أمام الحاجز تماماً ، فضرب حجارته برجله بقوة ، فتدحرج بعضها ، وتراجع اليهود إلى الخلف ، وتناولوا أسلحتهم ليصوبوها إليه ، ولكنه كان أسبق منهم .. وبرشة واحدة من سلاحه أردى إثنين ، واستدار نحو الثالث الذي رمى بندقيته وأخلد إلى الفرار ، ولكن يهودياً آخر ، كان قابعاً وراء إحدى النوافذ العالية ، وجه إليه رصاصة أصابته في جبينه ، فسقط دون أن ينبس بكلمة واحدة ..

حدث ذلك كله في سرعة خاطفة ، لم يكد نمر معها يتابع ما جرى ، وفار الدم في عروقه عندما رأى القناص اليهودي وهو يطل من النافذة التي أطلق منها الرصاص على أبو رشدي ، فتناول بندقيته ، وسددها نحو القناص بإحكام ، وفي ثوان كان القناص يسقط من النافذة ليرتطم رأسه على الأرض بعنف ...

وزغردت النساء .. بطريقتهن العفوية التي تحتل جزءاً طبيعياً من تقاليد حياتهن ، فهن يزغردن في الفرح ، مثلما يزغردن في الحزن العميق ، ولقد فعلنها – هذه المرة – فرحاً بمصرع ثلاثة من الأعداء .. وحزناً على استشهاد ذلك الرجل العجوز الذي ما كان أحد يدري على أيّ فتى مقدام كان ينطوي اهابه الواهن ...

* * *

كانت كل وسائل النقل تتجه من القدس الجديدة إلى أريحا ... التي تبعد ثمانية وثلاثين كيلو متراً ...

سيارات من مختلف الأحجام ... صغيرة ، وكبيرة ، ولواري ، وعربات تجرها الخيول ، تتجه كلها نحو أريحا التي كانت أقرب المناطق المأمونة إلى أولئك النازحين البؤساء ، من

شيوخ ونساء وأطفال ، والذين لم يمض على نزوحهم من مدنهم وقراهم وأراضيهم سوى شهر وبعض الشهر ، وها هم - الآن - ينزحون مرة ثانية في حالة أشد بؤساً ، وأكثر قسوة ، فهم لا يغفلون عما يعنيه نزوحهم المتواصل هذا من ابتعاد عن الأرض ، والبيت ، والمأوى .. يقابله ابتعاد الأمل في العودة الوشيكة التي وعدوا بها ، والتي كانوا يمنون أنفسهم بها عندما نزحوا أول مرة ..

صف طويل طويل ، عريض عريض ، من قوافل النازحين تزحم الطرق الرئيسية والفرعية ما بين القدس وأريحا ، حاملة ما لا يقل عن مائتي ألف نفس بريئة ما جنت من ذنب ، ولا أتت من جريرة ، ولا كانت أكثر - ولا أقل - من ضحية للمؤامرة التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ... شعب بأكمله يخرج من أرضه بالقوة الوحشية ، والغدر ، والتسلل ، والإرهاب ..

وكانت أم ابراهيم قد وفقت ، بجهود الفتى الشهم نمر ، في الحصول على مقعدين في أحد « الباصات » المتجهة إلى أريحا ، واضطرت لدفع خمس ليرات ، أي خمسة جنيهات ، كاملة للحصول عليهما ، حيث جلست في مؤخرة « الباص » وولدها ابراهيم بجانبها ، والصندوق الخشبي ، الذي هو كل ما تملك من هذه الدنيا ، عند قدميها على أرض الحافلة ..

أما نمر ، فقد تخلف عن الركب ، وقال لأهل بلدته أنه سيلحق بهم بعد أن يطمئن إلى خروج آخر واحد منهم من القدس ...

وكانت سيارة « الباص » الكبيرة قد حملت أضعاف حمولتها العادية من البشر ، وأمتعتهم البائسة ، كما وجد كثيرون لأنفسهم أمكنة على ظهر السيارة التي راحت تتحامل على نفسها وهيكلها يصدر صريراً متواصلاً ، وكأنه أنين السيارة وهي تكاد تنوء بما تحمل ...

وكانت أم ابراهيم تجيل البصر فيما حولها من مظاهر البؤس النازح عن أرضه ، وهي لا تكاد تصدق ما ترى .. بل لا تكاد تصدق أن هذا الذي جرى قد وقع فعلاً ...

كانت أحياناً تحس بأنها واقعة تحت تأثير كابوس مروّع لا تلبث أن تفيق منه ... فلم يكن من السهل عليها أن تصدق أنها قد فقدت كل شيء : زوجها ، وبيتها ، وأرضها ، وبلدتها ، وأن تنزح مرتين خلال أقل من شهرين اثنين ، وتسير وسط هذه الصفوف الطويلة من أبناء وطنها ، بعضهم يركب سيارات من مختلف الأنواع ، وبعضهم يسير على الأقدام ، وكلهم قد هدّهم التعب ، والذهول والبؤس ، والخوف ، والضياع ...

وكان أشد ما يؤلمها ، ويؤلم كل من كانوا معها ، أو كانت معهم ، في هذا الموكب التعس ، أنها لم تكن تستطيع أن تتصوّر ماذا سيكون عليه أمرها إذا وصلت إلى أريحا... فكيف ستتمكن من العيش هناك؟.. وكيف ستجد مسكناً ، أو مأوى ، وسط هذه العشرات من الآلاف النازحة مثلها ، وكيف ستكون حياتها بعد ذلك.. هل تكون أريحا خاتمة المطاف ، أم أنها ستضطر للنزوح مرة ثالثة.. وإلى أين؟.. رباه.. كم يحيط بها الظلام الدامس رغم الشمس التي كانت ترسل أشعتها الحامية لتزيد أولئك البؤساء على بؤسهم بؤساً ، وعلى آلامهم آلاماً ، وعلى ضيقهم وضياعهم ، مزيداً من الضيق والضياع...

* * *

خلال أيام قليلة امتلأ كل شبر من أراضي أريحا وما يحيط بها بعشرات الآلاف من النازحين من المنطقة الوسطى من فلسطين...

ولم يكن هؤلاء كل من نزح وغادر أرضه ، مكرهاً ، من الشعب الذي تآمرت عليه قوى الشر في الدنيا كلها...

كانت هناك مئات أخرى من الآلاف ، نزحت إلى أقرب المناطق العربية خارج فلسطين...

فسكان المناطق الشمالية توجهوا إلى سورية ولبنان ، وسكان المناطق الجنوبية نزحوا إلى

الغرب ، إلى قطاع غزة الذي كان خارج حدود التقسيم ، والقلة القليلة بقيت في أراضيها ومساكنها ، وإن كانت قد فقدت هويتها الفلسطينية الطبيعية ، إذ بات عليها أن تعيش تحت الحكم الإسرائيلي . .

واستطاعت أم ابراهيم أن تجد لنفسها غرفة صغيرة ، كانت في الأصل كنّاً للدجاج ، في منزل قروي طيني في ظاهر المدينة ، واتفقت مع أصحابه على أن تدفع لهم ليرة كاملة ، أي جنيهاً ، كل شهر إذا ما قررت أن تقيم في أريحا مدة طويلة . . .

وما يدري أحد ، كيف استطاعت مدينة لا يزيد عدد سكانها عن عشرين ألف نسمة أن تستوعب مائتي ألف نسمة . . وربما كان لسهول أريحا الخصبة الواسعة ، وعيون مياهها العذبة ، ومحصولها المتميز من البرتقال والموز ، أثره في تأمين الحياة لتلك الأعداد الهائلة من البشر ، الذين ما كان يستطيع واحد منهم أن يرسم لنفسه خطة ، أو يلقي حتى مجرد نظرة على المستقبل ، فالموقف قد أفلت من أيدي الجميع ، والشائعات تفتك بنفوس الناس مثلما بدأت الأمراض وسوء التغذية تفتك بهم ، وما كان أحد يدري أين يتوقف النهم الصهيوني ، وعند أي حد ، وماذا أعدت لهم المؤامرة المرسومة ضدهم من مصير . . .

وهكذا مضت أيام ، ليست بالكثيرة ومأساة النزوح تتكامل صورتها بكل تفاصيلها المؤلمة والبشعة في آن واحد . . .

أما ابراهيم فقد كان غافلاً تماماً عن معنى كل ما يدور حوله ، وكان يتحاشى أن يتسبب في إغضاب أمه لأي سبب من الأسباب ، فقد كان ما يزال يحس بلهيب تلك اللطمة يؤلم روحه ، فكان يتحاشى أن يذكر أي شيء عن حياتهم الماضية ، ويتحاشى ، أكثر فأكثر ، أن يأتي على ذكر يوري وأبيه حايم وأخته راشيل . . .

كان ينتهز كل فرصة يختلي فيها بنفسه ليكشف عن ذراعه الأيسر ، ويحدق في باطنه متأملاً الوشم الأزرق الذي نقشته تلك الغجرية ، ونقشت مثله على باطن ذراع صديقه يوري . . .

وكان أشد ما يشغل باله أن الظروف لم تسمح له بأن يسأل «نمر» عن يوري وأهله... فهو لا يدري شيئاً عن مصيرهم، ومع أنه كان يتألم أعمق الألم إذ يتذكر أن يوري لم يرافقه في النزوح، إلا أنه كان يأمل في أن يعثر عليه بين تلك الجموع الحاشدة التي ملأت كل مكان في أريحا وما حولها...

كان – لطفولته وسذاجته – يعتقد أن يوري وأهله قد نزحوا مثلهم، فلقد قيل له ذلك في بيت حاييم، . انه لم يعد يتذكر بالضبط من الذي قال له أن يوري وأهله سوف يلحقون بهم فيما بعد، وابراهيم يشعر بأشد الشوق إلى صديقه العزيز... كما يشعر بشوق أكثر إلى أبيه، ولكن أباه – كما قالت له أمه – قد سافر إلى مكان بعيد.. أما يوري فهو – ولا شك – في مكان ما بين هذه الجموع التي افترشت الأرض، وأقام بعضها مساكن من الخشب، أو الصفيح، وبعضها كانت لديه خيام، فكيف يستطيع ابراهيم أن يجد يوري وأهله... كيف؟...

* * *

غابت الشمس، وبدأ الظلام يسدل أستاره على أريحا وما حولها..

وكانت أم ابراهيم قد وفقت في الحصول على رغيف من الخبز، وقطعة من الجبن، وبضع برتقالات، فعادت بها فرحة إلى مسكنها المتواضع، لتفاجأ بأن ابراهيم لم يكن هناك، رغم أنها أكدت عليه أن يبقى، وألا يغادر المكان مهما جرى إلا إذا سمحت له بذلك...

وسقط «الطعام» من يديها، وشعرت بيد من فولاذ تعتصر قلبها حتى كاد يتوقف عن الخفقان... أين ابراهيم؟... وإلى أين ذهب؟..

كيف ستجده؟..

وما الذي جعله يترك المكان رغم أمرها المشدّد إليه بالبقاء...

ودارت ببصرها حولها كالمجنونة ، تحاول أن تخترق به أطباق الظلام الذي بدأ يتكاثف ، علها تجد ولدها الصغير الذي غاب..

وبدون وعي صرخت :

- ابراهيم.. ابراهيم..

ولكن ، ما من مجيب..

ودارت بها الدنيا ، وأحست بأنها ستفقد حياتها إذا هي فقدت ولدها وأملها ورجلها وكل دنياها...

وخرجت مسرعة ، وراحت تجري وتجري وهي تصرخ :

- ابراهيم.. ابراهيم..

وكانت تنظر ، في جريها ، يميناً ويساراً ، علّها تجد ولدها بين الألوف التي كان معظمها قد أخلد إلى النوم ، إذ كان محظوراً عليهم إشعال أي ضوء في الليل..

ولم تكن أم ابراهيم وحدها هي التي تبحث عن ولدها الضائع.. فهناك كثيرون مثلها ، كانوا يتنقلون بين الجموع وهم ينادون :

- فاطمة.. جريس.. كمال.. أحمد.. نبيل...

ترى ، هل يمكن لأي رسام في الدنيا أن يبدع لوحة أكثر إيلاماً وبؤساً وتعاسة من هذه اللوحة الحية؟..

هل يستطيع كاتب.. أو شاعر.. أو موسيقي.. أن يترجم عذاباً إنسانياً إلى قطعة من النثر ، أو قصيدة من الشعر ، أو سيمفونية موسيقية ، كذلك العذاب الإنساني الذي شهدته أريحا وسهولها ووهادها؟...

قوم مشردون بلا خطيئة ولا جريرة..

أسر بأكملها، بعضها قتل، وبعضها فقد، وبعضها عاش ليكمل مسيرة العذاب... هؤلاء الصائحون في عتمة الليل على أحباء فقدوهم، كيف سيجدونهم.. وأين يجدونهم، والناس كيوم الحشر يعدّون من الأنفس مائتي ألف أو تزيد؟.. ومع أن أم ابراهيم كانت ضعيفة الأمل في العثور على ولدها، إلا أنها لم تكن تستطيع إلا أن تجري وتجري.. تبحث وتبحث.. تنادي وتنادي.. علماً منها بأنها كفيلة بأن تسقط أرضاً بلا حراك، إذا هي تحققت من أن ولدها قد ضاع منها نهائياً، ففقدت بذلك حياتها ذاتها.. وكل ما كانت تعيش من أجله...

وأخيراً سقطت...

سقطت مغمى عليها، بعد أن جرت وسارت وصرخت ونادت حتى أنهكت قواها تماماً، وما عاد بوسعها إلا أن تسقط وأن تفقد الوعي...

* * *

عندما فتحت عينيها، تلفتت حولها تريد أن تعرف أين هي..

رأت حولها عدداً من الأشخاص، يلتفون حول السرير الحديدي الخشن الذي كانت مسجاة عليه.. وشيئاً فشيئاً كانت المرئيات تتضح أمام عينيها، لتجد بين الذين التفوا حولها وجهاً أليفاً.. وحين أدارت عينيها إلى من بجانبه وجدت وجهاً أليفاً آخر...

الأول كان وجه نمر...

والثاني كان وجه ابراهيم...

وفجأة تذكرت كل شيء، وعادت إلى ذهنها أهوال الليلة الفائتة وهي تجري هنا وهناك باحثة عن ابراهيم، منادية عليه..

وشهقت شهقة قوية ، واستقامت في مثل لمح البصر في جلستها ، ثم مدت يديها الإثنتين ، تحمل بهما ابراهيم ، وتضمه إلى صدرها ، وتوسعه تقبيلاً ، وهي تبكي بكاء حاراً . . .

– أواه يا ابراهيم . . أواه يا ولدي . . أين كنت ؟ . . الحمد لله على سلامتك . .

ولم يجبها ابراهيم بشيء ، وإنما انهمرت دموعه على خديه يبكي في صمت ، ويحاول أن يضمها إليه بيديه الصغيرتين . .

ومسح نمر دموعاً نفرت من عينيه رغماً عنه ، وتمالك نفسه وهو يقول :

– بسيطة . . حصل خير . . لقد تاه الولد بين الجموع ولم يعرف كيف يعود إلى . . البيت . .

وعادت أم ابراهيم تضم ولدها إلى صدرها غير مصدقة بأنها قد عثرت عليه وقالت في لوعة أليمة :

– ولكن إلى أين ذهب . . إلى أين ذهب وأنا التي أكدت عليه ألا يغادر مكانه حتى أعود . . لقد خفت عليه من الضياع فتركته في . . في البيت . ، ورحت أبحث عن شيء من الطعام . .

ولم يكن أمام نمر إلا أن يعيد قوله :

– بسيطة . . حصل خير . . حصل خير . .

ونهضت المرأة ، ونزلت عن السرير ، وقبضت على يد ولدها بشدة ، ثم نظرت فيما حولها متسائلة عما جرى . . .

وتولى أحد الرجال الذين كانوا واقفين الشرح والإيضاح.. قال لها أنها الآن في أحد أقسام دائرة البلدية.. وأن الناس اعتادوا على أن يبحثوا عن المفقودين في هذا القسم، وأن يسلموا إليه الأطفال الضائعين.. وأنهم عثروا على ولدها وهو يسير على غير هدى بين جموع النازحين، وحين سألوه عمن يكون، وعجز عن الجواب، جاؤوا به إلى دار البلدية على أمل أن يأتي أهله للبحث عنه... وأنهم جاؤوا بها كذلك إلى هنا، عندما سقطت مغمى عليها، فأسعفوها، وتركوها تستريح من العناء الذي لاقته وهي تجول باحثة عن ولدها...

وأكمل نمر الحديث فقال:

– لقد جئت إلى أريحا هذا الصباح.. بحثت عنكما طويلاً، ثم دلوني على دار البلدية، فجئت إليها على أمل أن أتمكن من العثور عليكما، ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت ابراهيم مع الأطفال المفقودين الذين جيء بهم إلى هنا.. ولكنني لم أستطع أن أعرف منه شيئاً عن المكان الذي تقيمان فيه..

وتمتمت المرأة بعبارات الحمد لله إذ عثرت على ابراهيم ولقيت نمر، وشكرت الرجال القائمين على دار البلدية، وأمسكت بيد طفلها تريد أن تذهب به إلى المكان الذي تقيم فيه...

وقال نمر بشيء من التردد:

– هل.. هل ترغبين في أن أوصلك إلى بيتك؟..

فقالت له بمرارة:

– بيتي؟..

واستدرك نمر قائلاً:

– أعني.. المكان الذي تقيمان فيه.. من جهتي أنا أحضرت خيمة نصبتها في مكان قريب... سأستدل على مسكنك ليمكنني أن أقدم لك ما أستطيع من خدمات..

وأومأت المرأة شاكرة له هذا الفضل ، ثم ألقت السلام على الموجودين وغادر الثلاثة المكان ويدها تقبض على يد ابراهيم بشدة كأنما هي تخشى أن يفلت من يدها ويضيع عنها مرة أخرى . . .

* * *

– والآن . . ارو لي ماذا حدث بالأمس . . وإلى أين ذهبت . . ولماذا سببت لوالدتك كل ذلك الرعب والألم . .

ألقى نمر سؤاله هذا على ابراهيم الذي كان يجلس قبالته عند مدخل الخيمة ، إذ لم تشأ الأم أن تدب الذعر في نفس ولدها إذا ما سألته ، لا سيما وأنها تخشى على نفسها من أن يأخذ منها الغضب مرة أخرى ، فتضرب الولد اليتيم ، كما فعلت قبلاً عندما كانا في القدس . . لتندم بعد ذلك ندماً اليماً قاتلاً ما زال يمزق فؤادها كالسكاكين كلما تذكرت ذلك الحادث . . ولهذا طلبت من نمر أن يستدرج الطفل بصورة غير مباشرة ، ومن غير أن يسبب له السؤال أي انزعاج أو خوف . . .

وأطرق ابراهيم خجلاً ، ونمر يرقبه صامتاً ، ثم رفع رأسه وأداره فيما حوله ، كأنما ليطمئن إلى أن أمه غير قريبة منه ولما تأكد من ذلك ، نظر إلى نمر وأجابه على سؤاله بكل بساطة :

– كنت أبحث عن يوري . .

وصعق نمر ، وسأله وكأنه لا يصدق سمعه :

– كنت تبحث عن . . يوري ؟ . .

– أجل . .

– وما الذي جعلك تعتقد أنك ستجده هنا ؟ . .

– كل الناس جاؤوا إلى هنا . . وكان هو ، أو أبوه ، لا أذكر ، قد ذكر بأنهم سيلحقون بنا فيما بعد إلى القدس . . . ولكنهم لم يأتوا . . وحين جئنا إلى هذا المكان قلت في نفسي أنه لا

يمكن أن يتأخر يوري وأهله أكثر من ذلك ، فخرجت أبحث عنهم ولكنني لم أجد أحداً.. فأنت تعلم أن الناس كثيرون.. وعندما حاولت العودة إلى مسكننا ضللت الطريق...

كان نمر يصغي مذهولاً إلى حديث ابراهيم ، وقد آلمه أن الطفل كان يتحدث بجدية تامة ، وكأنه كان في مهمة عظيمة الشأن ، وأن إخفاقه في العثور على صديقه بين تلك العشرات من الآلاف قد أحزنه..

وحار نمر كيف يحدث ابراهيم عن جلية الأمر.. كيف يجعله يفهم أن يوري ليس هنا ، وتداعت إلى ذهنه صورة حاييم وعائلته وهم يحتلون بيت أبو ابراهيم ، دون أن يرف لهم جفن من حياء ، أو ينبض فيهم عرق من وفاء...

ووجد نمر نفسه يقول بصوت مسموع :

– هكذا إذن؟.. كنت تبحث عن يوري؟..

– أجل يا عمو نمر .. فهل رأيته؟..

– لا.. لم أره.. ولكن من يدري؟.. فقد تتاح لي فرصة هذا اللقاء يوماً ما إذا مدّ الله في عمري.. أو ألقى أباه على الأقل..

– ألم يأت مع هؤلاء الناس؟..

– لا...

– ومتى يأتي إذن؟..

– انه لن يأتي...

– لا.. لا تقل هذا..

– عجيب.. ما الذي يجعلك تتكلم بهذه الثقة؟..

وكشف ابراهيم عن ذراعه ، وأشار بيده الأخرى إلى الوشم وهو يقول :



– لقد تعاهدنا ، أنا وهو ، على أن نظل أصدقاء طوال حياتنا .. وهذا الوشم هو دليل ذلك العهد ..

وصرّ نمر بأسنانه من الغضب ، وحار كيف يستطيع أن يفهم طفلاً في السابعة أو الثامنة ، أن يوري لن يأتي ، لأنه عدوه ، وأن أي لقاء بينهما – إذا حدث – فهو لقاء بين قاتل ومقتول ، بصرف النظر عمن يكون قاتلاً ومن يكون مقتولاً ...

ولكنه وجد أن من واجبه ، على أية حال ، أن يضع البذرة اللازمة في ذهن الطفل ، ولسوف تنمو وتضرب جذوراً وتعطي أوراقاً وثماراً في يوم من الأيام ، فبهذه الطريقة نشّأ الصهيونيون أجيالهم ، وبهذه الطريقة زرعوا بذور الحقد القاتل في نفوس أبنائهم حتى تجردوا من كل شعور إنساني ، وباتوا وحوشاً تلغ في الدماء وكأنها تشرب كأساً من الماء ..

وتحدث نمر :

– اسمع يا ابراهيم .. أنت الآن صغير . ولست أدري ما إذا كنت سأوفق في أن أوضح لك ما أريد أن أقول .. يجب أن تفهم أن يوري ، وأباه ، وأمه ، وأخته ، وقومه جميعاً هم أعداؤك ، مثلما هم أعداؤنا .. لقد آويناهم ، وشاركناهم حياتنا ، وفتحنا لهم أبوابنا وكنا نأمل في أن نعيش معاً كفلسطينيين ، مسلمين ومسيحيين ويهوداً ، وأن يأخذ كل ذي حق حقه من غير أن يتجاوز على حقوق الآخرين ...

ولكن اليهود ، ويوري يهودي كما تعلم ، أبوا إلا أن يأخذوا كل شيء ظلماً وعدواناً ، وسخروا من أجل ذلك كل شياطين الأرض في الشرق والغرب .. وطردونا – نحن أصحاب الأرض – من أرضنا .. وأخرجونا من ديارنا .. وها نحن كما ترى .. بالأمس خرجنا من عين كارم إلى القدس .. وبعده خرجنا من القدس إلى أريحا .. وليس يعلم إلا الله أين نكون غداً .. فهل فهمت ؟ .. لقد أمرنا الله تعالى أن نرد العدوان بمثله ، وأن نُعد لعدونا ما استطعنا من قوة .. ولئن كنا قد هزمنا في هذه الجولة فالحرب جولات .. وهي بيننا وبينهم

سجال.. ولسوف يأتي اليوم الذي نستجمع فيه قوانا.. وننظم صفوفنا.. ونعود إلى أرضنا بقوة حقنا، وقوة ذراعنا.. هل فهمتني؟..

ولم ينبس ابراهيم ببنت شفة، ووجد نفسه -لأول مرة- يفهم ما لم يكن يفهمه، ويعرف أن هذا التشرد الذي يعيشونه إنما هو نتيجة لعدوان قوم يوري، وأنه -بالتالي- قد بات يكرهه.. يكرهه من نفس الأعماق التي أحبه بها من قبل..

ورفع عينيه إلى نمر، فشعر هذا برجفة تجتاح كيانه، فلقد كانت عينا ابراهيم تلمعان ببريق مخيف، ذكره بالحاج أبو ابراهيم -يرحمه الله- في غضبته، وأدرك نمر أن البذرة قد وجدت مكانها الطبيعي، وأنها سوف تنمو كما يأمل لها، لينشأ لفلسطين جيل العودة، مثلما نشأ لها -الآن- جيل النزوح...

وبكلمات بطيئة سأل ابراهيم:

- أين يوري الآن؟..

- آه.. إنك لم تخيب أملي فيك.. وبدأت تنظر إلى الأمور نظرة صحيحة.. يوري -يا بني- يسكن الآن بيتك.. ويعيش على أرضك وأرض أبيك وأجدادك.. وأنت، ها هنا، كما ترى.. ضائع.. مشرّد.. لا تدري ما يكون عليه يومك.. ولا تكاد تجد قوتك إلا بصعوبة...

وقبل أن يرد ابراهيم، الذي ثارت في نفسه مشاعر لم يكن يتوقعها من الغضب والحقد، اقتربت أمه منهما وقد استغربت أن تطول الجلسة بينهما إلى هذا الحد..

ولم يكد نظر ابراهيم يقع عليها حتى هبّ واقفاً، وأسرع إليها، وألقى بنفسه بين ذراعيها وهو يقول بصوت قاطع كحد السيف:

- أماه.. أنا أكره يوري.. وأكره قوم يوري..

وتنهدت الأم بارتياح شديد، وأحست بأن الحاجز الوهمي بينها وبينه، ذاك الذي كانت تشكله عاطفة ابراهيم نحو صديقه اليهودي قد زال، وأن ولدها قد وضع قدمه على الخطوة

الأولى من الأمل العظيم الذي كان يراودها وتراه مجسماً فيه..

وضمته إلى صدرها تقبله في شغف وهي تردد يتأثر:

- الحمد لله.. الحمد لله.. الآن عدت لي بقلبك كاملاً.. أحبه ويحبني من غير أن يفصل بيننا ذلك العدو الذي كنت تحسبه صديقاً...

ونظر ابراهيم إلى الوشم الذي طالما اعتز به، نظر إليه باشمئزاز، وقال بلهجة من رأى أفعى تلتف على ذراعه:

- أماه.. أريدك أن تزيلي لي هذا.. هذا الرسم..

وهزت الأم رأسها في أسف وهي تقول:

- فات الأوان يا ولدي، سيرافقك هذا الوشم طول حياتك، لأنه لا سبيل إلى إزالته.. ولئن كنت تعتبره من قبل رمزاً لصداقتك لمن لا يستحقها، فليكن منذ اليوم رمزاً لعداوتك لمن يستحقها..

* * *

مضى على أم ابراهيم وولدها من الزمن قرابة الأسبوعين، وهما في الجحر الذي سكناه مذ نزلا في أريحا، وكان نمر قد أقام خيمته على مبعدة بضع عشرات من الأمتار، فكان يقوم على أمور هذين المخلوقين البائسين، ويبذل جهده في تأمين الطعام لهما، والعناية بهما، وهو يشعر بأنه إنما يؤدي واجباً مفروضاً عليه...

غير أنه كان يغيب فجأة عن الأنظار يوماً أو يومين، ثم يعود فجأة كما غاب، دون أن يدري أحد أين كان إلا أم ابراهيم التي كان يحدثها باشتراكه في بعض العمليات الفدائية ضد العدو الذي بدأ يرسخ أقدامه بعد إعلان الهدنة، وكان ابراهيم يصغي إلى هذه الأحاديث، ونفسه تتوثب حماسة وفرحاً، ولقد هم أكثر من مرة أن يطلب من نمر أن يصحبه معه، لولا

أنه كان متأكداً من أنه لن يرضى ، لأن مثل هذه الأعمال إنما خلقت للرجال ، وهو ما زال ، بعد ، طفلاً .. وعليه أن يكبر بسرعة إذا أراد أن يصبح جديراً بأن يقاتل أعداء قومه وبلاده . . .

وكانت أم ابراهيم تلاحظ أن أعداد النازحين تتناقص باستمرار ، وبشكل ملحوظ ، فلم تهتم بذلك بادىء الأمر ، ثم خشيت أن تكون لهذا التناقص أسباب تهددها وولدها بالخطر ، فسألت بعض زميلاتها في النكبة عما يجري ، فأجبنها بأن أعداداً كبيرة من نازحي أريحا يتوجهون إلى «شرقي الأردن» عبر جسر اللنبي ، حيث فرص الأمان أكثر مما هي عليه الآن . . .

وفكرت أم ابراهيم في الأمر ، ووجدت بأن من الخير لها أن تنتقل هي أيضاً إلى هناك ، إذ قد تجد عملاً تعتاش منه مع ولدها ، كما أن هناك مجالاً أوسع لكي تدخل ولدها في إحدى المدارس ، لكي يستأنف تعليمه الذي قطعته الأحداث المروّعة التي مرت بهم . .

وشاورت نمر في الأمر ، فأيده ، ووعدها بأن يرافقها إلى عمّان ليحاول تأمين حياتها وحياة ولدها هناك قبل أن يقرر ما يراه بشأن مصيره هو . .

وهكذا ، دهش ابراهيم حين وجد والدته تجمع أشياءهما القليلة ، وتضعها في الصندوق الخشبي الصغير ، وحين سألها عن السبب قالت أنهما سينتقلان إلى مكان آخر . . . وطفرت الدموع من عيني الطفل قهراً وألماً ، وسألها بلهجة من بات يدرك ما يدور حوله :

– هل سننتقل إلى مكان آخر بعد أن انتقلنا من قبل مرتين؟ . .

وتوقفت الأم عما كانت فيه ، ونظرت إليه طويلاً ثم قالت :

– لست أدري يا ولدي كم مرة سوف ننزح من مكان إلى مكان . . ولكن تذكر . . أننا عند العودة سنعود من غير توقف ، ولن نضطر إلى التنقل كما نفعل الآن . .

وقلب ابراهيم ذراعه، ونظر إلى الوشم الذي فيه، وهو يحفر كلمات أمه في ذاكرته حفراً.. فالوشم قد بات -الآن- في نظره رمزاً للإنتقام، بعد أن كان رمزاً لصداقة جاد بها من غير تبصر على من لا يستحقها...

وانتبه من استغراقه على صوت أمه وهي تطلب منه أن يساعدها في حمل الصندوق إلى حيث توجد السيارات المتوجهة إلى عمان...

* * *

ومرة أخرى، عاد موكب البؤس إلى التحرك...

انه يبتعد، أكثر فأكثر، عن أرضه..

لقد تركها للغاصبين الذين اتبعوا في التهجير أساليب وحشية لم يسبق لها مثيل في التاريخ..

وبدأ اليأس في التسرب شيئاً فشيئاً إلى نفوس السائرين في ذلك الموكب الفاجع..

إن المسألة -قالوا لأنفسهم- ليست كما قيل لهم..

ليست مسألة أيام أو أسابيع يعودون بعدها إلى بيوتهم وأراضيهم ومدنهم وقراهم..

فالبيت الذي يتركه أصحابه، طائعين أو مرغمين، يحتله على الفور غرباء أتي بهم من شتى بلاد الأرض، وهم ممتلئون حقداً على قوم لم يسيئوا إليهم قط، وجشعاً لانتهاب الثروات المتروكة ووضع اليد عليها، وترك أصحابها الشرعيين للبؤس والضياع والتشرد..

يحدث هذا، وميثاق الأمم المتحدة لم يكد يجف مداده بعد، وهو الحافل بالعبارات المنمقة حول «حقوق الإنسان» و«حق تقرير المصير» و«حق الأمم والشعوب في التمتع بالحرية والاستقلال».. إلى غير ذلك من «الحقوق» التي حفل بها الميثاق فأين هي تلك الحقوق؟..

أين هي ، ومئات الآلاف من بني الإنسان يزحمون الطرق المؤدية إلى خارج بلادهم وأراضيهم ، وفيهم كثيرون ممن قاتلوا في صفوف جيوش «الحلفاء» الذين زعموا أيام الحرب العالمية الثانية ، أنهم إنما يقاتلون ضد الوحشية والبربرية والعدوان ثم إذا بهم ، الحلفاء أنفسهم ولا أحد سواهم ، يحكمون الطوق على شعب كان يعيش آمناً في بلده وأرضه ، ليهجر البلد ، ويترك الأرض ، ويهيم على وجهه تحت كل سماء .. ضائعاً .. تائهاً .. مشرداً .. من غير مأوى .. من غير أمل .. من غير مستقبل؟ ..

كانت أفكار نمر الجياشة بالغضب والسخط ، تدور في هذه الدوامة ، وهو يعتلي سطح أحد الباصات ، المتجهة إلى عمان عبر جسر اللنبي ، ويرى إلى تلك الصفوف الطويلة ، من أمامه ومن خلفه ، للنازحين الذين شردوا من أرضهم ...

وكان نمر يشعر بشيء من تأنيب الضمير ، وهو يرى أرض فلسطين تبعد عن ناظريه شيئاً فشيئاً ، إذ كان يرى أنه يجب أن يموت هناك ، في فلسطين ، وألا يسمح لأحد أن يجبره على النزوح ، وإذا ما استطاع العدو أن يمنعه من البقاء على أرضه حياً ، فهو - بكل تأكيد - لا يستطيع أن يمنعه من أن يموت فيها ، شهيداً يروي ترابها بدمائه ..

واستعر الغضب في نفس نمر أكثر مما كان ، وحدثته نفسه - عدة مرات - أن يقفز من الباص ، وأن يعود ، وأن يقاتل ، وأن يموت ، وما كان شيء في الدنيا يستطيع إثناءه عن تنفيذ هذا العزم ، لولا أنه كان يتذكر تلك الأرملة البائسة وولدها الصغير ، فهي قد وضعت آمالها فيه ، وهي - من ثم - تعتمد عليه في كل صغيرة وكبيرة منذ أن التقته في ذلك اليوم المشئوم الذي سقطت فيه «عين كارم» في أيدي الوحوش الغاصبين ...

وأدار نمر بصره فيما حوله ، ينظر إلى عشرات ، بل مئات ، السيارات من مختلف الأنواع والأحجام ، وقد راحت تقطع الطريق بأحمالها البائسة ، وهي محملة بالبشر ، والأمتعة ، بحيث تبذل مجهوداً واضحاً لتواصل سيرها بما حملت فوق طاقتها ... وكان منظراً مألوفاً أن تتعطل إحدى السيارات فجأة ، فتقف على جانب الطريق ، لينزل منها ركابها ليشاركوا في

إصلاحها ، أو دفعها ، أو تغيير إحدى عجلاتها ، أو محاولة التعلق بسيارات أخرى إذا ما يئسوا من إصلاحها..

وفي مرارة لا يطالها الوصف ، كان نمر يتمنى لو أن واحداً – واحداً فقط – من أولئك الرجال ، ذوي الياقات البيضاء ، الذين اتخذوا مقرراتهم بتشريد شعب كامل وهم في مكاتبهم المترفة ، وقاعات اجتماعاتهم المكيفة ، قد كان الآن هنا ، مع موكب النزوح هذا ، يعاني مثلما يعاني هؤلاء النازحون الأبرياء ، ويضيع وسط حشودهم متعلقاً بسيارة ، أو معتلياً ظهر حافلة ، أو محشوراً وسط تلك الحشود ، في هذا الحر الخانق ، والبؤس الذي ما بعده بؤس.. لعله – إذ ذاك – كان يربأ بنفسه أن يلوث يديه بتلك المؤامرة القذرة ، ولو كان وحشاً مفترساً...

ووجد نمر نفسه وقد شعر بتعب شديد من هذه الأفكار التي كانت تزيد من آلامه وتعاسته ويأسه، وتمنى لو أن الشمس الحارقة التي كانت تصليه ، كما سواه من النازحين ، بحرارتها الشديدة ، قد أصابته بالإغماء ، فأفقدته الوعي لكي يرتاح من أفكاره ولو بعض الوقت ، ليحاول – بعدها – أن يفكر فيما سيفعله عندما يصل إلى عمان.. ولكنه – ويا للأسف – ظل واعياً ، يتصبب عرقاً ويذوب إعياء ، والأفكار تغلي في ذهنه وقلبه وتفور ، إلى أن لاحت له مشارف المدينة التي يقصدونها...

* * *

وبأعجوبة ، أو ما يشبه الأعجوبة ، استطاع نمر أن يعثر على «مسكن» لأم ابراهيم وولدها في عمان...

كان هذا المسكن عبارة عن غرفة صغيرة ، متصلة بمغارة في قلب «جبل عمان» ، يبدو أنها تستخدم كمطبخ ، أما الغرفة نفسها فتتصل بحوش صغير ، يصعد إليه بدرج خشبي متداع ، وكان باب المسكن عبارة عن شرائح من الألواح الخشبية ، ليس لها سوى قفل عادي صغير..

وأدارت أم ابراهيم نظرها في المكان ، ليتداعى إلى ذهنها على الفور مسكنها الذي خلفته هناك..

أين هذا الذي تراه هنا ، من ذاك الذي خلفته هناك؟.. أين هذه المغارة من مسكنها الفسيح المبني من الاسمنت المسلح ، والمحاط بالشرفات المطلة على حديقة كبيرة ، تنبسط أمامها الحقول المزروعة بأشجار الزيتون..؟..

وأين هذا الدرج الخشبي المتهالك من رخام مسكنها الذي تركته هناك ، والمطبخ الفسيح ، من هذا التجويف الصخري ، والحمام الأنيق من حمام هذا المسكن الذي استعيض له عن الباب بستارة من قماش مرقع؟...

وتنهدت المرأة ، وهزت رأسها بعنف وكأنها تريد أن تطرد هذه المقارنات المؤلمة من ذهنها ، وجلست على أرض الحوش ، وبجانبها ابراهيم وهو متعلق بثوبها ، بينما كان نمر يستند إلى الحائط الخشبي الذي يفصل هذا المسكن عن المسكن المجاور..

ولم ينطق أحد منهم بكلمة واحدة.. فقد كان الموقف أقسى من أن يفيد معه أي كلام..

وأحست أم ابراهيم بقطرات من الدمع الساخن تنثال على خديها رغماً عنها ، فتتجمع عند أسفل ذقنها ، لتسقط من ثم على حجرها..

ولكنها لم تحاول –قط– أن توقفها ، ولا أن تمسحها..

ورأى نمر هذه الدموع ، وأحس بقلبه يتفطر أسى ، ولكنه ظل صامتاً لأنه لم يجد كلمة واحدة يعلق بها على ما يجري..

ولكن ابراهيم الصغير لاحظ هذه الدموع.. فأمسك بذقن أمه ، وأداره نحوه ليسألها بصوت واجف :

– أماه.. هل تبكين؟..

ولكنها لم تجب، وظلت الدموع تنهمر، صامتة كالموت، حارة كاللهب، لاذعة كشواظ من الجمر...

– أماه.. لماذا تبكين؟..

كرر ابراهيم سؤاله، ويده لا تزال تدير ذقن أمه نحوه، فهو رغم اعتياده على تقبل المتغيرات التي ظلت تواجههم منذ أن غادروا مسكنهم في عين كارم، فإنه لم يستطع أن يفهم تماماً سبب بكاء أمه الصامت، وعهده بالبكاء أن يكون مصحوباً بأنين حزين..

وتكلم نمر..

قال لها بهدوء:

– يا خالة أم ابراهيم.. هذا لا يجوز.. الولد لا ينقصه الحزن والأسى، فلا تزيديه على همه، ولا تحمليه أكثر مما يطيق..

ومسحت المرأة دموعها بطرف غطاء رأسها الأبيض، وهمست بصوت متهدج:

– غصباً عني..

– أنا أقدّر ذلك.. ولكن ما جرى قد جرى.. وعلينا أن نواجه الأمور بشجاعة، وأن نتدبر أمورنا بحكمة وتعقل...

– ماذا بإمكاننا أن نفعل؟..

– في ذهني أشياء كثيرة.. ولكنني عاجز عن تركيز تفكيري.. وعلينا أن نتعاون في التفكير..

– بارك الله فيك يا نمر.. لست أدري في الحقيقة ماذا كان بإمكاني أن أصنع لولاك..

– إنما العون من الله.. وما فعلت أكثر من الواجب..

- جزاك الله كل خير..

- إن أول ما يجب أن نوجه إليه عنايتنا هو مسألة مدرسة الولد.. يجب أن نعثر له على مكان في أية مدرسة..

- هذا ما يشغلني بالفعل..

- وسوف آتيك بما أستطيع من أدوات وأثاث للبيت..

- أثاث؟.. همست المرأة بمرارة وهي تتذكر أثاث بيتها الذي كان يبهر كل من يراه بجماله وأناقته وكثرته..

- فراش وأغطية ووسائد لك وللولد.. بعض أدوات المطبخ.. بضعة كراسي.. شيء ما تدبرين به أمورك إلى أن نعرف علام تستقر الأحوال..

- بارك الله فيك يا نمر.. افعل ما تراه..

* * *

لم تكن مدينة عمان -آنذاك- كما هي اليوم عمراناً وجمالاً وازدهاراً..

كانت عام ١٩٤٨، تخطو أولى خطواتها، فجبالها السبعة كانت شبه خالية، إلا من بيوت معظمها من الطين أو الخشب، قد أقيمت على المرتفعات، التي كانت تبدو، بالنسبة لسكان أسفل المدينة، بعيدة المزار، شاقة المرتقى، وكان البناء الحجري والإسمنتي في بداية انطلاقته في مناطق محدودة من المدينة التي كانت -كذلك- محدودة السكان...

وجاء النزوح الكبير، ينتظم عدة مئات من آلاف الخلائق، من أهل فلسطين، وبخاصة سكان منطقتها الوسطى، لينتشر هؤلاء النازحون بغير انتظام في كل مكان من مرتفعات المدينة، بعضهم استأجر ما استطاع استئجاره من تلك البيوت المتواضعة القائمة في

المرتفعات، وبعضهم أقام مسكنه من الخشب، أو الصفيح، أو علب الكرتون الكبيرة التي جعل منها أولئك النازحون جدراناً وسقوفاً يلجأون إليها..

كانت المأساة تتصاعد بقوة وعنف، والمشكلة - التي لا مثيل لها - تتبلور بصورة مؤلمة لإيجاد أماكن يعيش فيها النازحون...

النازحون؟..

كان ذلك لقبهم الذي يشار به إليهم بادىء الأمر، ولكن هذه الكلمة بدأت تختفي بالتدريج من الأفواه، لتحل محلها كلمة أكثر إيلاماً: اللاجئون...

ولم يكن يخفى على الكثيرين منهم، ومن سواهم، المغزى المروّع الذي يختفي وراء الفارق بين الكلمتين..

فكلمة «النازحين» كانت تومىء بأن ذلك الخروج من الأرض والبلد هو خروج مؤقت.. مجرد نزوح... يعودون بعده إلى أرضهم وبلدهم ومرابع الصبا والطفولة... أما كلمة «اللاجئين» فقد كانت توحي بمعنى رهيب.،. لا يستطيع معها أي منهم أن يقدّر مدة هدا اللجوء ولا مداه..

ولكن الكلمة المروّعة باتت، على كثرة الاستعمال، مألوفة رغم مغزاها الذي يقطع الصلة بالماضي، ويكثف الأستار على المستقبل.. ويجعل هذه الأنفس الضائعة، لا تدري عن حاضرها، ولا عن مستقبلها، شيئاً...

وكان نمر قد استطاع العثور على غرفة صغيرة مظلمة، في بيت يقع على مقربة بضع مئات من الأمتار من مسكن أم ابراهيم، فكان يسيراً عليه أن يمر عليها كل يوم تقريباً، ليأتيها بما يلزمها، وليؤمن لها الخبز - بعد مشقة - فلقد كانت معظم بيوت عمان تعدّ عجين خبزها بأيدي نسائها، ليرسلنه - من ثم - إلى الأفران لتُخبز، أما الأفران التي كانت تبيع الخبز

جاهزاً فكانت قليلة جداً ، ولكنها تكاثرت بسرعة مع اشتداد موجة الطلب على الخبز من مئات الآلاف من الأفواه الجائعة اللاجئة..

وكانت الصدمة التي آلمت أم ابراهيم أشد الإيلام أنها لم توفق – ولا وفق نمر – في إيجاد مكان للصغير ابراهيم في أية مدرسة من المدارس القليلة التي كانت توجد ، تلك الأيام ، في عمان...

وحارت ماذا تفعل ، لا سيما وأن الصغير نفسه قد سألها أكثر من مرة ، وببساطة تامة ، متى يذهب إلى المدرسة.. وهل ستكون مثل مدرسته تلك التي خلفها في عين كارم؟..

وكان جوابها ، كالعادة ، دموعاً ساخنة تجري في صمت على خديها ، وإطراقة أليمة يخيل معها للرائي أنها قد انفصلت عن واقعها إلى متاهات من الأفكار لا يعلمها إلا الله..

وكان الطفل قد بات شديد الحساسية تجاه هذه الدموع التي توجع قلبه الصغير حتى الأعماق..

ولقد عودته الأيام التي عاشها منذ النزوح عن عين كارم ، كيف يتذكر باستمرار ما يؤلم أمه ، وما يسيل تلك الدموع الصامتة على خديها ، بحيث يتحاشى – بعد ذلك – أن يقول كلمة تتسبب في تلك الدموع...

لقد كبر الطفل وهو لما يزل في العقد الأول من عمره الغض..

وبات لديه عقل يعمل ويفكر في صمت ، فيسجل معالم البؤس الذي يعيشان فيه ، ويقارن بينه وبين ما كانا عليه في أرضهم.. ويتحاشى أن يرد ذكر أبيه على لسانه.. وكذلك بلدته.. وكذلك كل من يمت إلى ذلك الماضي بصلة ، حتى ولو كان اليهودي «يوري» الذي بات يكرهه الآن أشد الكراهية ، ويحقد عليه أشد الحقد ، فالصورة قد تكاملت في ذهنه بكل تفاصيلها ، ولقد دفع هو – وأمه – ثمن هذه الصورة غالياً غالياً.. دفعه نزوحاً ،

وتنقلاً ، وتشرداً ، دون أن يعرف لذلك التشرد سبباً . . .

كان الطفل كثير الاختلاء بنفسه ، يركن إلى جانب من الغرفة المتصلة بالمغارة ، ويكشف كمه عن ذراعه الأيسر خلسة ، ويروح يتأمل في الوشم الذي قالت له أمه أنه لا سبيل إلى إزالته . . .

كان وشماً دقيقاً ، يتألف من نقاط كثيرة متقاربة ، تشكل في مجموعها رسم السمكة ، فلقد استخدمت تلك الغجرية ابرة دقيقة حين راحت تنقشه على ذراعه وذراع يوري ، لقد شعر – ذلك اليوم – بآلام هائلة احتملها بصبر ، لأنه كان يعتقد أنه إنما يحتمل تلك الآلام في سبيل صداقته للطفل اليهودي . . . وما علم – إلا بعد ذلك بقليل – أن آلام الوشم تلك كانت ، بالنسبة إليه ، بداية لآلام أكبر وأعظم ، هي هذه التي يعيشها في هذا المكان وهو الذي اعتاد الجري واللعب على امتداد الساحات الخضر في أرضه الأولى ، وبات عليه – الآن – أن يجلس هكذا ، يتأمل الوشم في استغراق ، ويرسم في ذهنه تفاصيل لقاء وهمي يتم بينه وبين يوري في يوم من مقبل الأيام . . .

لم يكن ابراهيم مهتماً بتخيل الطريقة التي سيتم بها لقاؤه مع يوري ، ولكنه كان شديد الاهتمام بدقائق الحوار الذي سوف يدور بينهما . .

– أنت سرقت أرضي . . . سيقول له . .

– أنت أخذت بيتي . . سيقول له . .

– أنت أخرجتني من بلدي . . سيقول له . .

– أنت غدّار . . وقاتل . . وناكر للجميل . . سيقول له . .

– أنت شرّدتني بغير خطيئة . . وبغير ذنب . . سيقول له . .

ويسترسل ابراهيم في ترتيب كلمات هذا الحوار ، يحذف كلمة ، ويضيف كلمة ، ويستبدل كلمة بكلمة . .

كان أشبه برسام حريص على أن تأتي اللوحة التي يرسمها دقيقة وافية ، بحيث لا يترك أتفه التفاصيل..

ويسترسل في تأمل الوشم..

ويسدر في وضع كلمات الحوار..

ويتذكر، ولا ينسى أبداً ، أنه –وامه ونمر وكل أهلِ بلده– قد شردوا بلا خطيئة ، وأن هذا الظلم لا يمكن –ولا يجوز– أن يستمر...

* * *

وسارت الأيام بطيئة متثاقلة..

وتلاشت من الأفواه أحاديث «العودة».. وكلمة «النزوح».. لتحل محلها عبارات اليأس وكلمة «اللجوء»...

وكان تدبير الحياة اليومية ، لا سيما الطعام ، هو الشغل الذي صرف الناس عما سواه ، فما عادوا يهتمون كثيراً أو قليلاً ، بما تنشره الصحف أو تذيعه الإذاعات.. ولا عادوا يكترثون بالتصريحات الحماسية اللاهبة التي يعلنها «الزعماء»... ولا عادت تشغلهم أخبار جلسات الأمم المتحدة ، ولا مجلس الأمن.. ولا حتى أنباء اجتماعات لجان الهدنة لترسيم «الحدود» على خطوط وقف إطلاق النار.. ولا أنباء المجازر الوحشية التي ظل الصهيونيون يرتكبونها بغية تهجير أكبر عدد ممكن من أهل فلسطين الشرعيين ، وتحذير الآخرين من مجرد التفكير في العودة إلى أراضيهم وأملاكهم وبيوتهم...

لقد استوى عندهم كل شيء.. الحق والباطل.. الأمل واليأس.. الأمس واليوم.. الماضي والمستقبل.. الليل والنهار.. كلها –كلها– باتت كلمات من غير مدلول ، لأن آلة الحياة الرهيبة – في سعيهم البائس – قد سحقت قلوبهم ، وأوجدت فيها تلك الحالة من عدم الاكتراث..

أما أم ابراهيم ، فقد كان بقاء ولدها بلا مدرسة يقلقها أشد القلق ، فهي تتذكر الآمال التي كانت تعقدها ، وزوجها الراحل ، على هذا الابن الوحيد ، وكيف كان حديث « مستقبل الولد » هو حديثهما المفضل الذي لا يملان أبداً من الخوض فيه باستمرار...

كان الأب حريصاً كل الحرص على أن يهيىء لولده أفضل فرص التعلم وأعلاها مستوى ، فما كان يقبل بأقل من الجامعة مستوى يصل إليه ابراهيم في تعليمه ، ورغم أنه كانت تفصلهم عن ذلك المستوى سنوات طوال ، إلا أن الأب كان يفكر ويخطط ، ويحاول المفاضلة بين الجامعات.. هل يرسله إلى الجامعة الأميركية في بيروت.. أم يرسله إلى جامعة دمشق.. أم يرسله إلى جامعة بغداد ، أم يرسله إلى إحدى جامعات مصر.. وهي الجامعات العربية التي كان الشباب العرب ، ومنهم الشباب الفلسطينيون ، يتوجهون إليها لإكمال دراساتهم العليا..

ولئن رحل أبو ابراهيم ، فإن أم ابراهيم لم تتخل عن هذا الهدف ، ولا هي نسيته وسط الظروف القاسية التي كانت تعيش فيها...

كانت تجلس في ركن من الغرفة الوحيدة في مسكنها الضيق ، لتفكر في هذا الأمر الذي لم يكن يشغلها سواه.. ولهذا كان شعورها بالصدمة عنيفاً عندما تبين لها أن من غير الممكن أن يستأنف ابراهيم دراسته الإبتدائية ، فكيف يصل –إذن– إلى الجامعة ويحقق أحلام أبويه؟..

وتواردت إلى ذهنها خواطر وحلول عديدة ، وفكرت في التوجه إلى بلد عربي آخر ، إلى سورية مثلاً ، علها تجد لولدها مكاناً في مدرسة.. ولكن من يضمن لها ذلك ، وماذا تصنع هناك بينما معظم أهل بلدتها معها هنا في عمان ، لا سيما نمر –جزاه الله خيراً– الذي كان يقوم على شئونها وشئون ولدها وكأنه مسئول عنهما ، مع أن شهامته وحدها هي الصلة التي تربطه بهما..

كان نمر قد وجد عملاً كميكانيكي في إحدى ورش إصلاح السيارات ، فهذا هو عمله الأساسي ، وكان يشاركها القلق والألم حول مستقبل «الولد» وضرورة إيجاد مكان له في أية مدرسة ، ولكن جميع الجهود التي بذلها في هذا السبيل قد باءت بالفشل...

وذات يوم جاء نمر وعلى وجهه معالم غريبة من المعاني المتناقضة ما بين اليأس والأمل...

قال لها وهو يجلس على الأرض تجاهها :

– عندي لك نبأ.. ما أدري إن كان لك أن تفرحي به أو أن تحزني..

فابتسمت بتلك المرارة التي أصبحت جزءاً طبيعياً من شعورها :

– ما عاد هناك شيء يحزنني أكثر مما أنا فيه.. ولا عاد شيء يفرحني بعد أن فقدت الغالي من الزوج والبيت والوطن ، فقل ما عندك ولا تخش عليّ...

– يقولون أن الأمم المتحدة قد أنشأت وكالة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين..

– لم أفهم.. ما معنى هذا؟..

– معناه هو اليأس والضياع.. معناه أن العودة إلى بلدنا وأرضنا لم تعد موضوعاً للبحث.. وأن الموضوع الوحيد الذي يشغل جماعة الأمم المتحدة الآن هو محاولة مساعدتنا على حياة التشرد التي نعيشها...

– أيضاً لم أفهم.. أرجوك يا نمر.. كلمني على قدر ما أستطيع أن أفهم..

– بدون تطويل.. أنشأت الأمم المتحدة وكالة أطلقت عليها اسم وكالة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين..

– إغاثة؟.. لاجئون؟..

همست أم ابراهيم بتلكما الكلمتين وفي قلبها من اللوعة ما يشبه جمراً يتقد بالنار.. واستطرد نمر في حديثه :

– يقولون أن هذه الوكالة سوف تقدم لنا المعونة.. طعاماً ومساكن ومدارس..

– مدارس؟..

هتفت المرأة باهتمام شديد، فقد وجدت أن في الأمر شيئاً يهمها..

– أجل.. هكذا يقولون.. وطبعاً لا يخفاك، يا أم ابراهيم، معنى هذا.. ان معناه، وبكل بساطة، أنهم يريدون إبقاءنا حيث نحن.. وأن العودة الموعودة إلى ديارنا ليست سوى حديث خرافة...

واسترسل نمر في شرح الموضوع،. قال أن المؤامرة قد تكاملت فصولها، وأن النزوح الذي أجبروا عليه لم يكن مؤقتاً كما قيل لهم إذ ذاك، وإنما هو لجوء إلى أجل غير مسمى.. وان إنشاء «وكالة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين» ليس له من معنى سوى إبقاء كل شيء على حاله، وأن العودة ليست واردة في حساب الذين تآمروا على الشعب الفلسطيني، وأن أي بصيص من أمل في الغد، أو المستقبل، قد بات حلماً بعيد المنال على كل من خرج من أرضه الفلسطينية... وأن عليها أن تتدبر أمرها على هذا الأساس...

وتساءلت أم ابراهيم:

– وماذا تريدني أن أصنع؟..

– في رأيي أن تستفيدي من هذه الفرصة.. صحيح أنها فرصة تعسةلا تقارن بأية حال ببلدنا وموطننا، إلا أن علينا أن نتكيف مع الظروف.. لقد تقرر وضع لوائح بأسماء النازحين.. أقصد اللاجئين الفلسطينيين.. بواسطة مخاتير القرى وأحياء المدن.. وبموجبها ستنشأ مخيمات نوضع فيها.. وتتولى الوكالة التي أنشئت الإشراف على شؤوننا..

– وستنشىء هذه الوكالة مدارس لأولادنا؟..

سألت أم ابراهيم باهتمام شديد...

– أجل...

- إذن.. أرجوك يا نمر أنْ تساعدني.. وأن تقدم اسمي واسم ولدي لهذه الوكالة التي تتحدث عنها.. علني أستطيع أن أؤمن لولدي مكاناً في مدرسة...

* * *

وهكذا انشغل النازحون - الذين باتوا «لاجئين» رسمياً في نظر الأمم المتحدة - بمواجهة الوضع الجديد الذي خلقه إنشاء «الوكالة» فقد كانوا جميعاً من الفقراء الذين عانوا أشد المعاناة للحفاظ على بقائهم منذ أن خرجوا من بيوتهم وديارهم في الأرض المغتصبة، ووجدوا في الوكالة الجديدة خيطاً رفيعاً من الأمل في أن يتمكنوا من الاستمرار في الحياة، ريثما يرى الذين أخذوا «القضية» على عواتقهم رأيهم، ويستقروا على الطريقة المثلى لإعادتهم إلى أرضهم...

وتحولت أماكن التجمعات التي أقام فيها اللاجئون إلى مخيمات تضم أعداداً هائلة منهم، بعضهم أقاموا في خيام مؤقتة، وبعضهم أقاموا في بيوت من الحجر والإسمنت أنشأتها الوكالة..

وتسارع اللاجئون إلى تسجيل أسمائهم لدى «المخاتير»، الذين كانوا يقدمون لوائح الأسماء للوكالة التي كانت تقدم المأوى، ويا له من مأوى، والغذاء، ويا له من غذاء، لمن أدرجت أسماؤهم في تلك اللوائح، واعتمدوا -رسمياً- لدى الأمم المتحدة كلاجئين فلسطينيين..

وبالجهود الجبارة التي بذلها نمر، حصلت أم ابراهيم وولدها على مأوى يتألف من حجرة ومطبخ وحوش، أنشىء، كسواه، بطريقة اعتباطية في مخيم «جبل الحسين».. وحين دخلت هذا المأوى، وأجالت بصرها فيه، حمدت الله في سرها، فهو -على أية حال- خير من لا شيء، كما أنه وفر عليها أجرة المأوى الذي كانت تقيم فيه...

وكان نمر يلاحظ – بارتياح تعس – كيف أن هذه المرأة الشجاعة قابلت ، وتقابل ، ما يصيبها من نتائج النزوح ، بجلد وصلابة ، غير عالم بما يدور في ذهنها من مقارنات تجريها باستمرار بين ما هي عليه الآن ، وبين ما كانت عليه منذ أشهر قليلة ، أشهر قليلة ليس غير ، كان زوجها قبلها إلى جانبها ، وكان لها بيتها وأرضها ومزرعتها ، ولكنها قد تعلمت – والزمن أقسى معلم – أن تكبت مشاعرها ، وتكتم آلامها ، فالبؤس عادة كما النعيم عادة ، ولئن كانت قد اعتادت النعيم من قبل ، فهي قد بدأت في الاعتياد على البؤس . . .

وكان هناك سبب آخر حدا بها إلى الحرص على كتمان مشاعرها وأحاسيسها ، وهو ولدها ابراهيم ، الذي كانت مشاعره متصلة بمشاعرها بذلك الرباط الروحي الخفي الذي يصل ما بين الأم وولدها . . يفرح إذا فرحت . . ويتألم إذا تألمت . . ويغضب إذا غضبت . . ويرضى إذا رضيت . .

واستطاع نمر – جزاه الله كل خير – أن يسجل « الولد » في المدرسة التي كانت عبارة عن خيام كبيرة ، نصبت بحيث يتسنى للطلبة الوصول إليها دون عناء . . .

أما المدرسون ، فكانوا خليطاً من الأساتذة المتخصصين ، ممن نزحوا مع النازحين وآخرين تعاقدت معهم الوكالة ، إلى جانب طلبة الفصول المتقدمة الذين تولوا تدريس طلبة الفصول الابتدائية . . .

المهم ، في نظر ام ابراهيم ، أن « الولد » لم يحرم من الدراسة ، وأن بوسعه أن يكملها وأن يواصل تعليمه إلى الجامعة ، كما كان أبواه يحلمان . . وكانت هذه الفكرة تمثل سعادة الدنيا كلها في نظر الأم البائسة . .

ومرة أخرى . . رأى ابراهيم أمه تبكي بدموعها الصامتة . .

كان ذلك يوم وقفت في صف طويل لتأخذ الحصة الشهرية المقررة ، من قبل الوكالة ، لكل لاجىء . .

وكانت حصة الشخص الواحد في الشهر هي : عشرة كيلوجرامات من الطحين ، وربع كيلو من السمن ، ونصف كيلو من السكر ، وربع كيلو من الرز ، وقطعة صابون واحدة . .

أجل . .

بهذه الكمية من المواد ، كان على أبناء النكبة أن يعيشوا ، وأن يقيموا أودهم . .

وحين حمل لها نمر حصتها وحصة ولدها إلى المأوى ، جلست أمامها ، وقد وضعت يدها على خدها ، وراحت دموعها تنثال بغزارة ، وجسدها يهتز ببكاء صامت . . فلقد اتجه ذهنها في الحال – كما اعتاد أن يتجه دائماً – إلى بيتها الذي خلفته هناك ، والذي يسكنه الغرباء الغاصبون . . .

لقد تركت في منزلها ذاك أضعاف أضعاف هذه الكمية الضئيلة ، في الغرفة الخاصة بالمؤونة ، والتي كانوا يسمونها «بيت المونة» حيث تكدست أكياس الطحين ، والرز ، والسكر ، وصفائح السمن ، والزيت ، وصناديق الصابون ، إلى جانب الخضار المجففة واللحوم المقددة . . .

الآن بات عليها أن تعيش على هذه الحفنة الضئيلة من الغذاء ، وأن تدبر حياتها وولدها على هذا الأساس . .

وإذ دخل ولدها حاملاً كتبه وكراريسه عائداً من المدرسة ، شعرت بأن كل ما في قلبها من هموم قد انزاح ، وأن في وسط هذا الظلام الذي تعيش فيه ، ضوءاً من أمل ، يتمثل في ولدها وفلذة كبدها ، وهو يكبر وينمو ، ويواصل تعليمه ، ويغدو رجلاً قادراً على أن يستعيد ، بقوة ساعده ، أرض أبيه وجده التي اغتصبت منهم ظلماً وعدواناً . . .

* * *

ومرت سنوات..

الحياة فيها واحدة رتيبة لا يتغير لها إيقاع. ولا يتبدل فيها شيء...

أم ابراهيم تتعهد ولدها بالرعاية والعناية والأمل..

وابراهيم ينتقل من فصل إلى فصل في نجاح حقق به حسن ظن أمه فيه...

أما نمر، فقد ترك عمله كميكانيكي، وعمل كسائق شاحنة ما بين عمان وبيروت حاملاً، في الذهاب والإياب أنواعاً مختلفة من الشحنات، وأنواعاً مختلفة من الأخبار...

كان نمر يحرص على أن يزور أم ابراهيم في كل مرة يعود فيها إلى عمان، منتظراً تفريغ شاحنته وملئها بشحنة أخرى مرسلة إلى دمشق أو بيروت...

وكان يتحدث إليها مطولاً بما لديه من أخبار عن «القضية».. مما يسمعه ويقرأه في رحلاته ولقاءاته وصحف المدن التي يمر بها...

وكان ابراهيم – وقد بات الآن شاباً في عنفوان الفتوة – يصغي إلى أحاديث نمر باهتمام، ويناقشه فيها، ويحاول أن يعرف منه خلفياتها وخفاياها.. فالطفل الذي خرج من بلده وأرضه شبه مغمض العينين، قد تفتحت عيناه وقلبه وروحه، وأصبح بوسعه أن يسمع وأن يفهم، أن يقرأ وأن يدرك، وصارت له آراؤه ونظرياته، وما كان يزعجه شيء قدر أن يرى إلى ذلك الوشم المشؤوم الذي نقشه – بصبيانية طائشة – على باطن ذراعه، رمزاً لصداقة موهومة لصديق موهوم، هو – في واقع الأمر – عدوّه، وعدو بلده وقومه...

وكان الحدث الذي هزّ الأسرة الصغيرة، أم ابراهيم وولدها، هو يوم جاءهم نمر بهدية عجيبة من بيروت...

كانت الهدية عبارة عن جهاز راديو، أكبر قليلاً من حجم الكف، ويعمل على بطاريات صغيرة، ولا يحتاج إلى سلك للكهرباء، وهو – مع ذلك – واضح الصوت، نقي النبرة، يمكن للسامع أن يصغي منه إلى جميع الإذاعات...

وتجمع الجيران حول هذه الأعجوبة ، يسمعون – غير مصدقين – مختلف الإذاعات ، وكل منهم يبدي دهشته واستغرابه وإعجابه ، بما وصل إليه العلم من إنجاز...

ووجدت أم ابراهيم ، وجيرانها ، في هذه الهدية تسلية يقضون معها ساعات طوالاً ، يصغون إلى الأخبار ، ويسمعون التعليقات والبرامج والأغاني ، ولاحظوا ، جميعاً ، ملاحظة غريبة بعض الشيء... فما يكاد يمر يوم إلا ويسمعون من هذا الراديو اسم فلسطين يتردد في جميع الإذاعات.. أخبار عن فلسطين ،. خطابات عن فلسطين.. تعليقات عن فلسطين.. أغان وأناشيد عن فلسطين.. فكان رد الفعل الطبيعي لديهم كل مرة يسمعون فيها اسم فلسطين ، هو نظرات حائرة ، بائسة ، يجيلونها في الجحور التي يعيشون فيها ، وألم قارص في الأحشاء التي ما عرفت سوى ذلك النزر اليسير من الطحين والرز والسكر مما توزعه عليهم الوكالة.. أما فيما عدا ذلك ، فكل شيء باق على حاله.. سنوات طويلة مضت – يكادون ينسون عددها – وهم في هذه المخيمات ، والعدو سادر في غيّه ، يواصل غاراته الوحشية ، ويرتكب مجازره الدموية ، ويعتدي كل يوم تقريباً ، من غير أن تفلح أية أغنية ولا أي تعليق ، ولا أي برنامج من ذاك الذي يذاع عن فلسطين في إيقافه عند حده...

وكان ابراهيم ، وقد غدا اليوم شاباً تفخر به أمه ، يردد هذه الأفكار ، بعبارات محتدمة بالغضب ، فقد أصبح يدرك الآن أبعاد المأساة كلها ، ويعرف لماذا عاش كل تلك السنوات في هذا المأوى الذي أعطتهم الوكالة إياه بديلاً عن بيتهم الكبير الذي كانت في ذاكرته ملامح منه ، فجاءت أحاديث أمه توضح تلك الملامح ، وتضيف إلى الصورة أدق التفاصيل... أصبح يعرف أنه ليس أكثر من ضحية لمؤامرة دولية كبرى ، وأن مأساته ومأساة شعبه لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، وأن الدوران في متاهات الحلول والمقترحات المطروحة ، ما هو إلا من قبيل إضاعة الوقت ، وأن ما قاله نمر مرة صحيح كل الصحة حين تمنى لو أن واحداً من أولئك الذين يتحدثون عن فلسطين من المهيمنين على الأمم المتحدة ، قد قضى ليلة واحدة فقط في واحد من المخيمات التي يعيش فيها هؤلاء المشردون بلا خطيئة ، فلربما تحرك فيه عرق من إنسانية يجعله يرى الحق كما يجب أن يرى.. ولعله – يستطرد نمر

قائلاً – يأكل لقمة واحدة من الطعام الذي تقدمه الوكالة ، فلربما رفّ في عينيه جفن من حياء ، يجعله يكف عما هو فيه من تقديم العون للعدو بلا حساب ، وتثبيت أقدامه في الأرض المغتصبة ، وتكريس وجوده على حساب مليونين من اللاجئين الذين شردوا تحت كل سماء . .

* * *

ومع أن أم ابراهيم كانت مقتنعة بما يقوله نمر ، وما يقوله ولدها ، والآخرون ، إلا أن همها كان محصوراً – كله – في ابراهيم ، تتابع دراسته باهتمام ، وترقبه وهو يجتاز الفصول الدراسية بفرح ، وتشعر بأنها لا تعيش عبثاً ، بل إنها تقترب من هدفها بالتدريج ، وأن ولدها قد بات قاب قوسين أو أدنى من أملها الكبير وهو أن يدخل الجامعة ، ليصبح طبيباً أو مهندساً أو محامياً . . .

وكان نمر قد ساعدها قبل سنوات على إيجاد عمل تعتاش منه ، وتضيف من مورده الضئيل شيئاً على ثروتها الصغيرة التي أعدتها لكي يكمل ولدها بها تعليمه . . .

فبعد أشهر قليلة من الإنتقال إلى المخيم ، لاحظت أم ابراهيم بقلق شديد – أنها قد اضطرت عدة مرات لأن تأخذ شيئاً مما تدخره ، لكي تشتري لولدها ملابس ، أو لكي تذيقه ، مرة كل عدة أشهر ، طعم الفواكه التي لم تكن واردة فيما تقدمه « الوكالة » من غذاء يسير . . .

وقلبت وجوه الأفكار كثيراً وهي تحاول أن تجد حلاً لهذه المشكلة ، ووجدت أن الحل الوحيد الممكن ، بالنسبة لها ، هو أن تعمل . . .

وهالتها الفكرة بادىء الأمر ، حين خطرت لها ، إذ لم يكن بوسعها – وهي التي كانت سيدة منزلها في عين كارم – أن تقوم بغير مثل هذا العمل . . وبعبارة أخرى – قالتها لنفسها بجرأة – أن تقوم على شئون بيت من البيوت ، تكنس وتمسح وتغسل وتطهو ، بصرف النظر عما يسمى هذا العمل في نظر الآخرين . . .

ووجدت نفسها تتردد لأكثر من سبب ، فهي – من جهة – تعتز بما كانته قبل النكبة ، وهي – من جهة أخرى – تخشى على ولدها من أن يسيء ذلك إلى مشاعره بعد أن بات شاباً يعي ويفهم.. وفوق هذا فهي لا تعرف أحداً تعمل عنده ، وتخجل – بل تموت من الخجل – إن هي طرقت أبواب الناس تسألهم إن كانوا في حاجة إلى... خادمة...

وتذكرت نمر ، فهو ولا ريب يعرف أحداً يمكنه أن يتوسط لديه لكي تعمل عنده ، كما يمكنها أيضاً أن تستشيره في الأمر كله وترى رأيه فيما اعتزمت..

ومضت تنتظر وصول نمر من إحدى رحلاته المعتادة ، بل ووجدت في نفسها لهفة على مجيئه جعلتها تسأل الآخرين عما إذا كانوا قد رأوه...

وإن هي إلا بضعة أيام حتى جاء نمر كالمعتاد ، زائراً ، وهو يحمل كيسين كبيرين من الورق ملأهما بالفواكه التي اشتراها للمرأة وابنها من بيروت..

وبعد أن جلس بعض الوقت ، واطمأن على أحوال أم ابراهيم وسأل ابراهيم عن دراسته ، نهض واقفاً يريد أن يغادر المكان ، ولكن أم ابراهيم أشارت إليه من طرف خفي بأن يبقى ، وأن لديها شيئاً تريد أن تسر به إليه ، فعاد إلى الجلوس وهو ينتظر – مع المرأة – أن يخلد ابراهيم إلى النوم ، كي يسمع منها ما تريد أن تقول..

ونام ابراهيم أخيراً ، والاثنان ينظران إليه ، ثم نهضت أم ابراهيم وهي تحمل حصيراً صغيراً فرشته في «الحوش» فجلست عليه ، وأشارت إلى نمر بأن يجلس على كرسي قصير كانت قد ابتاعته عندما سكنت في عمان لدى أول مرة جاءت فيها..

ودار الحديث بين الإثنين بصوت خافت..

قال نمر:

– خيراً إن شاء الله يا ام ابراهيم.. هل هناك شيء؟..

– أجل.. هناك موضوع أريد أن أستشيرك بشأنه وأن تساعدني فيه إذا وجدته مناسباً..

– إنني مصغ..

– لقد خطر لي.. خطر لي.. لست أدري كيف أبدأ الحديث.. خطر لي أنه قد يكون من المستحسن أن.. أعمل..

– تعملين؟.. لماذا؟..

– تكاليف الحياة ثقيلة يا نمر.. وما تقدمه الوكالة لا يكاد يسد الرمق.. وأنت تعلم أنه ليس لي في هذه الحياة من أمل سوى هذا الولد... أريده أن يكمل تعليمه حتى أعلى مراحله...

– آه... فهمت...

وأطرق نمر، وراح يعمل ذهنه بسرعة محاولاً أن يجد نوعاً من العمل يناسب هذه المرأة التي أبدت من ضروب الصبر والاحتمال ما لم يكن يتوقعه من امرأة مثلها عاشت، من قبل، عيشة هانئة رضية، وها هي الآن – بعد سنوات من النزوح – تطلب إليه بلسانها الذي اعتاد من قبل أن يأمر وينهى، أن يجد لها عملاً...

ما هو العمل الذي تستطيع امرأة مثلها أن تقوم به إلا إذا.. إلا إذا كان..

والتقت عيناه بعينيها، وكأنما كانت ترافق أفكاره في استرسالها، وارتسمت ابتسامة بائسة على شفتيها وقالت وكأنها تجيب على التساؤل الذي دار في خاطره:

– لم لا؟. أحسب أنه ليس أمامي سوى هذا العمل..

ولم تجد حاجة لأن توضح ما هو هذا العمل، ولا هو سألها، فهما متفاهمان ضمناً، ولا

داعي لزيادة الموقف حراجة بذكر الأشياء بأسمائها...

وقال لها بارتباك:

- إذا كنت تشكين من ضائقة.. فعندي بعض المال الذي ادخرته من عملي.. إنك تعرفين انني لا أصرف كثيراً.. ويمكنني أن أمدك بما تحتاجين إذا شئت..

- فيك الخير والبركة يا نمر.. لست أريد أن أثقل عليك أكثر مما فعلت.. ولولاك ما كان يعلم إلا الله ماذا كان يمكن أن يحدث لنا.. لقد كفيت ووفيت يا نمر.. جزاك الله كل خير.. إنني لا أريد منك سوى أن تجد لي عملاً.. هذا هو كل ما أريده.. وهو فضل آخر من أفضالك لا أنساه...

- أنت مصممة إذن؟..

- كل التصميم..

- إذن.. أمهليني بضعة أيام.. وسأرى ما يمكنني أن أفعل..

* * *

وهكذا بدأت أم ابراهيم تعمل..

لقد وجد لها نمر عملاً عند موظف مرموق في الجمرك يدعى «مختار أفندي».. لديه سيارة «فوكسهول» سوداء صغيرة، وله فيلا مؤلفة من دور واحد فيها أربع غرف واسعة، وكانت له زوجة وأربعة أولاد وأم عجوز...

وكانت أم ابراهيم حريصة على ألا يعرف ولدها نوعية العمل الذي تقوم به، فقد قالت له أنها وجدت عملاً كمربية لطفلة صغيرة، ولكن ابراهيم أبدى امتعاضه، فهو لا يرضى لأمه بأن تعمل لدى الناس ولو في عمل سهل كعمل المربية... ولكنها استطاعت إقناعه، بعد لأي، بأنه لا بد من ذلك، لأن لديها فسحة طويلة من الوقت، وتجد في هذا العمل متعة تخفف عنها وطأة الضجر..

وعبثاً حاول ابراهيم أن يعترض، فقد أصرت الأم، وبات عملها أمراً واقعاً تعيشه الأسرة الصغيرة..

وقسمت أم ابراهيم وقتها بين مسكنها ومنزل مختار أفندي، تعد لولدها فطوره قبل أن يذهب إلى المدرسة في وقت مبكر، ثم تجتاز المسافة الطويلة بين المخيم ومنزل مختار أفندي، سيراً على الأقدام، ملتفة بملاءتها السوداء، حتى إذا وصلت إلى منزل مخدومها، أقبلت على العمل، تغسل الصحون، وتكنس الأرض، وتمسحها، وترتب الأثاث، وتساعد زوجة مختار أفندي في الطهو، وتسقي مزروعات الحديقة الصغيرة المحيطة بالفيلا، وتمسح سيارة مختار أفندي وتعنى بالأولاد.. عمل متواصل لا يتوقف ولا يهدأ، من الصباح الباكر إلى العصر، تقبل عليه المرأة بكل همة ونشاط، لتحصل في نهاية الشهر على خمسة دنانير، وهو مبلغ ليس بالقليل في ذلك الوقت، إلى جانب ما تأخذه معها يومياً من الطعام الذي تصر زوجة مختار أفندي على تزويدها به.. وبذلك استطاع ولدها – وهذا هو المهم – أن يأكل كما يأكل الناس العاديون.. لحم.. خضار.. فواكه.. دجاج...

لقد كانت أم ابراهيم فخورة – بينها وبين نفسها – بما تعمل.. فأروع أنواع العمل هو، ولا ريب، ذاك الذي نقوم به في سبيل الآخرين، فهو الحسنة التي يتقبلها الله تعالى ويجزي عليها، فكيف إذا كان من أجل ولدها ورجل بيتها ابراهيم؟..

* * *

كانت ثاني مرة زغردت فيها أم ابراهيم منذ أن حلت بها النكبة هي يوم ظهرت «نتائج التوجيهي»، وتبين أن ولدها نجح في الامتحان..

لقد شعرت بأنها كسبت معركة.. وهان إزاء هذا النبأ كل ما عانت وتعاني من التعب والشقاء وشظف العيش.. فالولد قد بات على أبواب الجامعة.. أي أنه يقترب بسرعة من الهدف الذي من أجله تعيش...

ولعلنا نذكر أن المرة الأولى التي زغردت فيها ، كانت يوم أن قيل لها أن شاحنتها الصغيرة قد أسهمت ، بشكل ما ، في الجهاد ضد الغاصبين يوم وهبتها للمجاهدين بلا تردد أيام كانت تقيم في حي البقعة بالقدس...

وفيما عدا هاتين الزغرودتين ، فإن قلب المرأة التعسة كان يرقد تحت ركام من جليد اليأس ، والحزن والألم...

فالأخبار التي تأتيهم إلى المخيم ، لم يكن فيها شيء يدعو إلى التفاؤل أو الإرتياح... مزيد من الإعتداءات الإسرائيلية الوحشية.. وبعضها يتناول المخيمات الفلسطينية في المناطق غير المحتلة من فلسطين..

ومزيد من التفرق والتمزق في الصف العربي ، لألف سبب وسبب..

ومزيد من التخبط في السياسة العربية ذات التماس المباشر مع القضية..

ومزيد –بعد هذا كله– من اليأس ، والضياع ، والتشرد...

* * *

وذات يوم ، وكان ذلك بعد أسابيع قليلة من حصول ابراهيم على الشهادة الثانوية ، لاحظت أم ابراهيم أن ولدها ونمر يتحدثان بصوت خافت في اهتمام تارة ، وفي حدة تارة أخرى ، حتى إذا ما اقتربت منهما –عامدة– تحدثا بصورة عادية وكأنهما يخفيان شيئاً عنها..

وانتابها القلق.. وحاولت أن تخمن الأسباب التي تجعل الرجلين يتحدثان في أمر يخفيانه عنها.. ولكنها لم تستطع..

وحاولت أن تبحث مع الإثنين موضوع اختيار الجامعة المناسبة لابراهيم ، ومن ثم اختيار الكلية التي سيكمل تعليمه فيها.. ولكنها فوجئت بأن الإثنين زاهدان في مثل هذا الحديث.. ويريان أنه ما زال هناك وقت ما دامت العطلة الصيفية في بدايتها ، ولم يحن –بعد– موعد تقديم طلبات الإنتساب إلى الجامعات..

وبغريزة الأم الملهوفة ، أدركت أن هناك سراً لا تعرفه ، خاصة وأن ولدها صار يكثر من الحديث عن استمرار الظلم اللاحق بالشعب الفلسطيني ، واليأس من أن تستطيع السياسة العربية ، بأسلوبها القائم إذ ذاك ، أن تفعل شيئاً لوضع حد لمأساة هذا التشرد الذي ليس له مثيل..

وكانت الأم تقول له :

- ماذا نستطيع أن نفعل ، يا ولدي ، ونحن كما ترى؟.. لقد أعمى الجري وراء لقمة العيش قلوبنا.. فماذا نستطيع أن نفعل؟..

- نرفع رؤوسنا.. ونفتح عيوننا وقلوبنا.. و.. نقاوم..

- نقاوم؟.. نقاوم من؟..

- نقاوم الذين سلبونا أرضنا وبلادنا ومالنا.. وحياتنا...

- وكيف السبيل إلى ذلك وجيوش بأكملها قد عجزت عن ذلك؟.. هل نسيت ما حدث عندما اعتدى الإسرائيليون والإنجليز والفرنسيون عام ١٩٥٦؟...

- ليس معنى هذا أن نخلد إلى الخدر والاستسلام.. المهم أن نقاوم.. أن نرفع صوتنا.. أن يعرف العالم أن هناك شعباً بأكمله قد شرد بلا خطيئة ولا ذنب..

- كلامك هذا مخيف يا ولدي.. لا شأن لنا بهذا.. ليس عليك أنت سوى أن تواصل دراستك... هذا ما يهمني...

- وماذا أصنع بالشهادة إذا أنا لم أعمل بها في بلدي؟.. وهل نظل طول حياتنا على ما نحن عليه؟ لا... لا يا أماه.. عندما يرتفع نداء الوطن تصمت الأنانية والفردية والمصالح الشخصية..

- إنك تقلقني بهذا الكلام.. فماذا تقصد منه؟..

ووجد ابراهيم أنه قد استرسل في الحديث أكثر مما ينبغي ، فتضاحك ، وغير الموضوع بلباقة . . .

ولكنه جاءأمه بعد أيام ليخبرها بأنه سيغيب عنها بعض الوقت . .

وضربت الأم صدرها في خوف وتساءلت :

– لماذا ؟ . . وإلى أين ستذهب ؟ . .

– ما بك يا أماه ؟ . . لم انزعجت هكذا ؟ . .

– قل لي بسرعة . . إلى أين ستذهب . . وكم ستغيب ؟ . . ولماذا ؟ . .

– سأذهب إلى القدس . . .

– القدس ؟ . . وما تصنع فيها ؟ . .

– أريد أن أراها . . لقد سمعت عنها كثيراً . . هناك بعض الزملاء الذين يريدون الذهاب إليها فأبديت لهم رغبتي في مرافقتهم . .

وغامت عينا المرأة وهي تسمع كلمة « القدس » ، فلقد أعادت إليها ذكريات أيام سلفت ، كانت فيها سيدة بيتها ومزرعتها ، وكان زوجها معها وحياتها تسير سيرها الطبيعي . .

تلك الأيام ، حدثت أم ابراهيم نفسها وهي تعود بذاكرتها إلى الوراء ، كانت زيارة القدس جزءاً من الحياة اليومية لأهالي « عين كارم » ، يذهبون إليها ويعودون منها في أي وقت ، وكان أبو ابراهيم يذهب أحياناً ويعود في اليوم الواحد عدة مرات وفق احتياجات حياتهم ، وكانت هي ترافق زوجها إما للتبضع أو لزيارة الأقارب والصديقات المقيمين ، أو الذين كانو مقيمين بالأصح ، في حي البقعة وغيره ، وكان كل شيء ، إذ ذاك ، على ما يرام ، أما اليوم . . .

وتدحرجت دمعة ساخنة على خدها وهي تصل بأفكارها إلى الواقع المرير الذي تعيش فيه ، فلاحظ ابراهيم ذلك وتملكه الأسى فهتف بها جزعاً :

– أماه .. ما بك ؟ .. انني لن أغيب كثيراً .. إنه يوم أو يومان على الأكثر .. وأعود إليك بإذن الله ..

ومسحت الأم دمعتها ، وتنهدت بحرقة ، ونظرت إلى ولدها نظرة تائهة وهي تقول في وجوم :

– كان بودي أن نذهب معاً .. ولكنني لا أستطيع للأسف .. فأنا مرتبطة بعملي هنا .. القدس ؟ .. آه يا ولدي كم أشتاق إليها .. إنها لا تبعد كثيراً عن بلدتنا عين كارم .. كنت أذهب إليها أنا وأبوك كثيراً .. كثيراً جداً في تلك الأيام ..

كانت الأم تقول هذه الكلمات ونظرتها تلك تدل على أنها كانت تخاطب نفسها ، وتستعيد ذكرياتها وتفكر في أيامها السعيدة السالفة ..

وقال لها ولدها متضاحكاً :

– إننا مجموعة من زملاء الدراسة .. سنذهب كلنا معاً .. وإذا شئت ذهبنا مرة أخرى ، أنت وأنا ، بعد أن أكون قد عرفت المدينة وتعرفت إليها جيداً ..

واغتصبت الأم ابتسامة وهي تهمس :

– تروح وترجع بالسلامة يا ولدي ...

ومع أنها اطمأنت بعد أن أوضح لها ولدها سبب غيابه عنها ، إلا أن القلق عاد يغزو قلبها بشدة عندما أراد ولدها أن يودعها قبل سفره ، إذ ضمها إلى صدره بقوة ، وأمطر وجهها بالقبلات الحارة ، وحين ابتعد عنها عاد مرة أخرى يعانقها ويقبلها ، وكأنه يودعها إلى غير لقاء ، فتمسكت به بيديها الإثنتين ، وقالت له في لوعة بصوت مبحوح من الخوف والقلق :

– ابراهيم .. يا ولدي .. قل لي .. ماذا هناك ؟ ..

– ليس هناك شيء.. لا شيء إلا الخير إن شاء الله.. ولكنك تعلمين.. إن هذه أول مرة نفترق فيها عن بعضنا فعزّ عليّ هذا الفراق ولو ليوم واحد..

ووجدت الأم في هذه الكلمات ما طمأنها، فعادت تقبل ولدها وهي تقول له:

– تروح وترجع بالسلامة يا ولدي.. انتبه لنفسك جيداً..

* * *

منذ أحداث العام ١٩٤٨، عام النزوح والنكبة، كان شريط الحدود الذي يفصل بين الأراضي التي اغتصبها اليهود، والأراضي التي بقيت في أيدي العرب، متداخلاً ومتشابكاً بشكل يصعب معه التمييز بين الجانب المحتل والجانب الآخر من شريط الحدود..

وكانت علامات الحدود المصطنعة مقامة كيفما اتفق، إذ لم يهتم أحد من الجانبين بتحديدها بدقة، ولكل منهما أسبابه الخاصة..

الجانب العربي كان يرى هذه الحدود شيئاً مؤقتاً، وأن الأرض الفلسطينية لا تلبث أن تتحرر من نير الإحتلال وتعود، كما كانت، وحدة متكاملة كما كانت منذ أقدم الأزمان...

والجانب الإسرائيلي كان يتهيأ للوثوب على الضفة الغربية تحقيقاً لمخططاته التوسعية العدوانية ويعد لجولة جديدة، بعد أن أخفقت جولة عام ١٩٥٦ في تحقيق أغراضها، فكان يجد في تداخل الحدود، وعدم تحديدها، وسيلة للتسلل إلى الأراضي غير المحتلة، يضرب هنا، ويعتدي هناك، ويوجه أعماله العدوانية حسبما وضع من مخططات توسعية...

ولقد أوجد هذا الوضع مجالاً للإتصال ما بين الأرض المحتلة والأخرى غير المحتلة، وكان من أسهل الأمور على أي من المقيمين في هذه المنطقة أو تلك، أن يمر عبر الحدود –التي يزيد طولها عن ستمائة كيلومتر– من غير أن يشعر به العدو...

ومع استمرار الظلم الذي وقع بالشعب الفلسطيني ، وانتشار فكرة «المقاومة» بمعناها الواسع في عقول المشردين بلا خطيئة ، لا سيما الشباب منهم ، بات الإتصال الخفي بين جزئي الأرض المغتصبة أكثر نشاطاً ، وأبعد أهدافاً ... إذ كان هناك شبه اتفاق بين أبناء الشعب الذي شطر إلى سكان ضفة شرقية وأخرى غربية ، على ضرورة إشعار العدو بأن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر ، وأنه لا يجوز له – لهذا العدو – أن ينام على حرير الطمأنينة إلى أن مؤامرته قد نجحت ، وأن الأرض التي اغتصبها كانت لقمة سائغة يستطيع أن يبتلعها بسهولة ...

ومع أنه لم يكن هناك رابطة أو تنظيم معين بين أصحاب هذه الأفكار ، إلا أنها ، بحد ذاتها ، كانت تجد تجاوباً تلقائياً فيما بينهم إذا ما تحدث أحدهم فيها ...

كانوا يرون – ويشعرون – بأن عليهم ، هم أنفسهم ، أن يأخذوا قضيتهم على عواتقهم ، وأن يهزوا كيان العدو ، وأن يقولوا له بأنهم موجودون ، لا كمخلوقات يائسة تعيش في المخيمات ، وإنما كنفوس جياشة تستطيع أن تقاوم ، أن تقاتل ، أن تستشهد ، أن تقدم القافلة تلو القافلة من الشهداء حتى يستعاد الوطن المغصوب أو يهلك الشعب كله ...

وكانت لنمر ، على ضآلة تعليمه ، وقلة ثقافته ، نظرية تستحق التأمل ، كثيراً ما كان يرددها أمام أصدقائه في كل مجلس يرد فيه ذكر فلسطين ، ..

كان يقول أن الإسرائيليين يدعون ، بل ويباهون ، بأنهم أكثر خبرة ومعرفة بالنفسية العربية ، فكانوا يقولون للعالم «دعوا العرب لنا ... نحن نعرف نفسياتهم ... ونعرف كيف نتعامل معهم ... انهم لن يلبثوا أن يستسلموا للأمر الواقع الذي نفرضه نحن» ...

وكان نمر يعلق على الرأي الفلسطيني هذا ، بأنه لا يجهل ، ولا ينكر ، أن الإسرائيليين يعتمدون كثيراً في تحركاتهم على البحث والدراسة والتخطيط والمعلومات ، ولكنه يعتبر أنهم قد وقعوا في الخطأ الذي سيقضي عليهم يوماً ما ، باعتقادهم أن الأمة العربية ، والشعب الفلسطيني ، يمكن أن يظلا على ما هما عليه إلى الأبد ...

ويشرح نمر «نظريته» قائلاً :

— ان بين الإسرائيليين ، ولا ريب ، أساتذة كباراً ، قد تخصصوا في التاريخ العربي والإسلامي ، ودرسوا كل فتراته وتجاربه وأحداثه ، ولو وعى هؤلاء دروس هذا التاريخ جيداً ، لتبينوا – بكل بساطة – أن أمتنا يمكن أن تخلد إلى الضعف فترة قد تطول أو تقصر ، ولكن لا بد ، لا بد ، وأن تعقب هذه الإغفاءة صحوة . . . وهذه الصحوة تكون عادة عاتية عارمة ، ما يدري أحد متى تحدث ، ولا كيف تحدث ، ولا أين تحدث ، ولكنها – دائماً – تحدث ، وسوف تحدث بكل تأكيد ، ولئن كان الإسرائيليون يحسبون أن ما نحن فيه الآن دائم إلى الأبد ، فهذا – أقول وأعيد القول – هو الخطأ المميت الذي سوف يقتلهم في يوم من الأيام . . .

ولعل نمر قد أراد أن يقرن قوله بالفعل ، حين انخرط في سلك جماعة فدائية صغيرة ، عزمت على أن تنبه العدو إلى أن الفلسطينيين ما زالوا موجودين ، وأنهم لم يموتوا ، وأن جيل ما بعد النكبة هو أشد ضراوة في حقده وعزمه على الثأر واستعادة الحق ، من جيل النكبة نفسه ، فهذا الجيل ، وهو كله شبان في مقتبل العمر ، قد فتح عيونه على المأساة وقد بلغت ذروتها ، إذ ولد في خيمة ، أو جحر من الإسمنت البارد ، وتغذى باليسير الغث من الطعام الذي كانت تقدمه الوكالة ، وسمع ممن هم أكبر منه سناً أهوال ما عانى شعبه منذ أن اتخذت المؤامرة على فلسطين مسارها العنيف الذي أدى إلى إجبار أكثر من مليون ونصف المليون من الأنفس على هجر أراضيهم وبلادهم بالقوة . .

ولقد نقل نمر أفكاره هذه إلى ابراهيم ، لتجد تجاوباً فورياً منه ، وكأنما كان ابراهيم يفكر في نفس ما كان يفكر فيه نمر ، وحين استمزجه نمر حول مدى استعداده للمشاركة في عمليات فدائية ضد العدو ، أجاب ابراهيم بالموافقة من غير تردد ، بل لقد بات يلح على نمر سائلاً عن موعد البدء بهذه العمليات ، فكان نمر يستمهله ، ويشير عليه بالتريث والانتظار ، لأن الأمور يجب أن تدرس ، والمعلومات يجب أن تستكمل ، والعمليات يجب – على ضوء ذلك – أن تنجح . . .

وكان من أسهل الأمور على نمر أن يتسلل إلى الأرض المحتلة عدة مرات ، متنكراً في ملابس مزارع عربي ، وأن يتصل بمن كان يعرفهم من الناس فيما حول القدس من القرى ، وان يحصل منهم على ما شاء من معلومات ، فلقد كان العرب الذين ظلوا في اراضيهم يعيشون –وهم اصحاب البلد والارض– مواطنين من الدرجة الثالثة في الدولة الإسرائيلية . ذلك ان مواطني الدرجة الاولى –حسب التصنيف السائد في الارض المحتلة– هم اليهود الاوربيون ، ويليهم اليهود الشرقيون ، الذين هم مواطنون من الدرجة الثانية ، اما العرب فهم مواطنون من الدرجة الثالثة...

وكانت رغبة نمر ان تكون ضربته الاولى في بلدته «عين كارم» بالذات ، إذ لم تكن تفارق خياله . طوال هذه السنوات . صورة الغاصبين وهم يحتلون بلدته التي ابيد معظم رجالها ، وكان هو نفسه احد القلائل الذين نجوا من تلك الإبادة...

وكان لخبرته التامة بالطرق والمسالك في المناطق الغربية من القدس ، اثرها في سرعة استكماله لترتيباته . حين عبر الحدود عدة مرات إلى الأرض المحتلة ، في مناطق غير محروسة من اي من الجانبين ، واعد خطته إعدادا محكما ، وكان هدفه محطة ضخمة ، تمد عددا من القرى والمستوطنات بالكهرباء...

وقبل ان يودع ابراهيم والدته ذلك الوداع الذي أثار ريبها وقلقها ، كان قد اجتمع إلى نمر . الذي ابلغه بموعد تنفيذ العملية ، وخطوطها الرئيسية ، وزوده بالتعليمات الأولية التي يتوجب عليه ان يستوعبها ، وان يعمل بها ، لكي يتما عمليتهما بنجاح...

وكان فرح ابراهيم شديدا عندما ابلغه نمر ان «العملية» سوف تتم قرب عين كارم ، بلدته ومسقط راسه . ووعده بان يريه البلدة من اقرب نقطة ممكنة ، علّه يتذكرها ، ويتذكر سنواته القلائل الاولى فيها...

في اليوم المحدد ، كان ابراهيم يركب إحدى سيارات « الباص » المتوجهة إلى القدس ، وبجانبه يجلس نمر بكل هدوء ، وكأنه يقوم برحلة عادية ما بين عمان والقدس ، كما اعتاد الكثيرون أن يفعلوا ، أما بالنسبة لابراهيم فكانت تلك أول مرة يتوجه فيها إلى القدس ، بعد النكبة فكان كثير الاهتمام بما يرى خلال الطريق ، محاولاً أن يعرف اسم كل بلدة ، وكل قرية ، وكل معلم ، من المعالم التي يمرون بها ، وكان نمر يجيبه على أسئلته متذكراً ، مع كل جواب ، شيئاً من الماضي الذي كان ، والذي لا يزال يذكره بأدق تفاصيله...

ووصل بهم « الباص » أخيراً إلى القدس ، بعد حوالي ثلاث ساعات ، تخللتها وقفات عديدة ، ما بين صعود ركاب ونزول آخرين...

وسار الرجلان إلى أحد المطاعم الشعبية الرخيصة ، حيث تناولا شيئاً من الطعام ، وطلبا بعد ذلك فنجانين من القهوة ، وفي داخل ابراهيم أسئلة كثيرة كان يود أن يلقيها على زميله ، ولكن نظرة محذرة ، صامتة ، أرسلها نمر جعلت الشاب يمتنع على السؤال ، وهو يتحرق شوقاً لمعرفة ما سوف يحدث بعد ذلك...

وإذ انتهى الإثنان من احتساء القهوة ، دفع نمر الحساب ، ثم سار بابراهيم مخترقاً شوارع ضيقة ، ذات أرض حجرية ، وقد ساد صمت تام بينهما ، حتى ليكاد الرائي إليهما يظن أنهما لا يعرفان بعضهما...

وفي حارة ضيقة من المدينة ، توقف نمر أمام أحد المنازل ، وقرع الباب ذا المطرقة الحديدية ، ومضت دقيقة أو اثنتان قبل أن يفتح الباب ويظهر وراءه شاب يرتدي قميصاً مفتوح الصدر ، وبنطالاً مجعداً يدل على أنه قد عاد تواً من عمله..

ولم يكد الشاب ير القادمين حتى أفسح لهما الطريق من غير أن ينطق بكلمة واحدة وكأنه كان يتوقع قدومهما ، ولم يكد يغلق الباب ، حتى تكلم نمر أخيراً فقال للشاب وهو يصافحه :

– هذا هو ابراهيم.. الذي حدثتك عنه..

– أهلاً وسهلاً...

رحب الشاب بابراهيم وهو يصافحه بقوة ويردف قائلاً:

– اسمي سليمان... ولست أدري ما إذا كان الأخ نمر قد حدثك عني..

وابتسم ابراهيم وهو يجيب:

– انه لم ينطق بكلمة واحدة منذ أن وصلنا إلى القدس..

وابتسم سليمان ولم يجب بشيء، وإنما تقدمهما إلى غرفة صغيرة تقع على يمين الداخل إلى فسحة واسعة، في المنزل، وفي وسط هذه الفسحة نافورة من الرخام، وحولها أنواع متعددة من نباتات الزينة التي وضعت في أوعية كبيرة...

وجلس ابراهيم ونمر على مقعد طويل في صدر الغرفة، بينما جذب سليمان كرسياً وجلس تجاههما، وقد اكتست ملامحه جدية مفاجئة تختلف عن المظهر المرح الذي استقبلهما به...

ومع أنه لم يكن معهم أحد في الغرفة، بل في المنزل، فإن الحديث قد دار بينهما بخفوت، وبعبارات قصيرة حاسمة..

– لقد أوصلنا «العفش» إلى المكان المقصود.. وسوف تجدون بطرس في انتظاركما، إنني لم أحدد له يوماً معيناً.. قلت له أنكما ستصلان خلال هذا الأسبوع..

ونهض سليمان إلى رف صغير، تناول منه مجلداً يضم أعداد إحدى المجلات القديمة، وتصفحه بسرعة، ثم تناول من بين صفحاته ورقة مطوية، نشرها أمام الإثنين، وراح يشرح الرسم الذي فيها:

– هذا هو طريق القدس – رام الله، وهنا.. أنظر جيداً يا أخ نمر.. في هذه النقطة.. عند شجرة التين العجوز التي تعرفها.. هنا تستطيعان أن تخترقا الحدود دون أن يراكما أحد..

لا يوجد سوى دورية إسرائيلية تمر على شريط الحدود في هذه المنطقة.. إنها مؤلفة من سيارة جيب واحدة فيها أربعة جنود.. لقد راقبتها مدة طويلة، إنها تمر في حوالي الساعة العاشرة ليلاً.. والظلام يبدأ بالانتشار منذ السابعة.. أي أن أمامكما ثلاث ساعات وهي كافية جداً للوصول إلى بيت بطرس...

وكان نمر يصغي بانتباه، ويهمهم همهمة الفهم والموافقة لأنه يعرف هذه الأمكنة كما يعرف كف يده... فلم يكن بحاجة إلى الاستفسار عن أي شيء...

وصمت سليمان بعد أن أفضى بما عنده، وتكلم نمر متسائلاً ببطء:

- و«العفش»... هل.. هل هو كاف..

وضحك سليمان ضحكة هادئة وهو يقول:

- انه كاف لنسف عشر محطات للكهرباء على الأقل.. اطمئن من هذه الناحية..

- والحراسة على المحطة؟..

- عادية جداً.. حارس واحد ليس غير.. يجلس في «كشك» عند الباب.. والمحطة محاطة بسور عال من الأسلاك.. ولا يوجد في داخلها سوى مهندس واحد..

والتفت نمر إلى ابراهيم وسأله وكأنه يسأل نداً:

- هل لديك أسئلة يا ابراهيم..

واحمر وجه ابراهيم، فهو -في الواقع- لم يكد يفهم سوى جانب يسير من الحوار الذي دار بين الإثنين، فقال بتردد:

- لا أعتقد.. أنا على كل حال تحت قيادتك.. افعل ما تكلفني به...

- سوف أشرح لك كل شيء أثناء الطريق..

وتدخل سليمان في الحديث متسائلاً :

- عفواً.. ولكن، هل الأخ ابراهيم مدرب على.. على مثل هذه الأشياء؟..

وقبل أن يجيب نمر، قال ابراهيم :

- من ناحية إطلاق النار.. واستخدام المسدس تستطيع أن تطمئن يا أخ سليمان... والأخ نمر يشهد لي.. أليس كذلك يا نمر؟...

فأجاب نمر باسماً :

- أجل.. إنني أشهد لك.. لقد تدرب جيداً على إطلاق النار.. ولا خوف عليه من هذه الناحية..

وتنهد سليمان بارتياح، ثم خرج إلى الفسحة القائمة وسط المنزل، وأزاح إحدى الصفائح المزروعة بالنبات، وقلبها على جانبها، ثم سحب من أسفلها المفتوح لفافة من القماش، وضعها على الأرض ثم أعاد الصفيحة كما كانت، وعاد إلى الغرفة حاملاً اللفافة ثم وضعها أمامهما، وفك عقدتها، ثم فرد قماشها ليخرج منه مسدسين صغيرين ومعهما بضع علب من المعدن تحتويان على كمية من الرصاص...

* * *

عندما أرخى الظلام سدوله على المدينة، كان منظر القرويين الإثنين اللذين كانا يغذان السير إلى ظاهر البلدة، منظراً عادياً لم يستلفت انتباه أحد، حتى وهما يحملان سلتين من القصب، ويسيران في اتجاه الطريق الذي يصل ما بين القدس ورام الله..

ولو أن امرءاً ما نظر إليهما، لحسب أنهما من أولئك القرويين الذي يؤمون المدينة في النهار، ويغادرونها في الليل عائدين إلى قراهم، وأن الحديث الذي كان يبدو أنهما منهمكان فيه، لا يخرج عن أحاديث القرويين المعتادة في مثل هذه الحالات، حول الأسعار،

والمحصول، ومشكلات الزراعة والري، ومسائل الأقارب والأهل والأصدقاء...

ولكن مَخْبَر ذلكما القرويين، وهما من نعرف حق المعرفة، كان مختلفاً تماماً عن مظهرهما..

كان نمر، بأعصابه الفولاذية التي علمته الأيام والتجارب كيف يسيطر عليها سيطرة تامة، يتحدث إلى ابراهيم حديث القائد إلى الجندي، كان يعيد عليه -للمرة العاشرة ربما- تفاصيل الخطة البسيطة التي هما الآن بسبيل تنفيذها، وكان يستخدم التعابير الغامضة، ذات الدلالة، في حديثه ذاك.. «فالعفش» هو المواد الناسفة التي سوف يزودهما بها زميلهم بطرس عندما يصلان إليه في بيته الواقع بعد شجرة التين التي تعتبر إحدى نقاط الحدود المصطنعة التي أقيمت بين شطري الأرض المغتصبة، و«الجماعة» هي دورية العدو التي اعتادت -كما قال سليمان- أن تذرع شريط الحدود ذهاباً وإياباً في كثير من التكاسل واللامبالاة، إذ كان كل شيء هادئاً على الحدود، وكان العدو مطمئناً إلى أن الشعب الذي طرده من أرضه غدراً وعدواناً قد استكان للأمر الواقع، لا سيما وأن الحوادث «التخريبية» كانت قليلة جداً -حتى ذلك الحين- بصورة لا تدعو إلى أي قلق..

وكان ابراهيم يصغي إلى كلام نمر بانتباه شديد، وهو يحاول أن يحفر كل كلمة يسمعها في ذاكرته، لكي يتصرف في الوقت المناسب وفق الخطة الموضوعة...

ولقد دهش ابراهيم، فيما بعد، كيف لم يفكر بأمه، ولا بمستقبل دراسته، ولا بأي شيء آخر، سوى هذه المهمة التي يسيران إليها... ولم تكن تخامره ذرة واحدة من الخوف، بل لم يفكر على الإطلاق في النتيجة فيما لو فاجأتهم الدورية العدوة في غير موعدها المعتاد، كان قلقاً -فقط- أن يحدث شيء يتسبب في فشل العملية وإخفاقها، أما فيما عدا ذلك، فقد كان هذا الشاب كتلة من العزم والتصميم والإقدام..

وانتبه ابراهيم من خواطره على صوت نمر وهو يقول له بصوته الخافت الواضح:

- إنني أعتبر هذه العملية بدائية جداً... بل وبسيطة وساذجة... انها تختلف كثيراً

عن العمليات الحقيقية التي أحلم بها.. محطة كهرباء؟... ماذا تعني محطة الكهرباء؟... لا شيء تقريباً.. انهم لا يلبثون أن يصلحوها أو ينشئوا غيرها، أنا أعرف هذا سلفاً.. وأحلم بعمليات ضخمة... عمليات جبارة.. تهز الأعداء حتى أعماقهم.. وتؤذيهم في مواجعهم.. وتنشر أخبارها في المنطقة كلها... ولكن الوقت لم يحن بعد.. نحن الآن قلة.. ونحتاج إلى أشياء كثيرة.. إلى تنظيم... وإلى مال.. وإلى خطط.. وإلى تدريب.. وهذا كله سوف يحدث بإذن الله.. أما عمليتنا اليوم فهي مجرد دغدغة بسيطة للعدو، تقول له باللغة التي يفهمها: نحن هنا..

ولم يعلق ابراهيم بشيء، فهذه الآراء هي نفسها ما كان يجول بخاطره، وقد كان يعتبر العملية البسيطة التي يتجهان إليها الآن مجرد بداية.. أو تدريب عملي.. وأن في ذهنه مثل ما في ذهن نمر من أفكار حول «العمليات الجبارة» التي تنال من العدو حتى الصميم...

وبدت، أخيراً، شجرة التين العجوز بأغصانها الوارفة، وجذعها الضخم، فلمعت عينا نمر وقال بصوت خافت:

– هذه هي الشجرة.. من هنا نخترق ما يسمونه حدوداً بين هذه الأرض وشطرها المحتل...

وأجال نمر بصره فيما حوله، فلم ير ما يريب، فالظلام قد خيم تماماً على المكان، وشجرة التين تبدو كشبح أسود ذي ألف ذراع وذراع... ولا أثر لأي مخلوق، ولا وجود لأي صوت...

وبخطوة عريضة، كان نمر ينتقل إلى ما وراء الشجرة، ووراءه ابراهيم، فهمس نمر بلهجة مرحة:

– الآن دخلنا في الجد يا صديقي.. أنت الآن على الأرض التي اغتصبت منك.. ومتى تقدمنا أكثر، استطعت أن ترى بيتك وبيت أهلك في عين كارم بالعين المجردة...

وارتجف الشاب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وهو يستمع إلى كلام نمر ، فها هو . . ها هو ابراهيم الذي خرج من هذه الأرض طفلاً صغيراً ، مطروداً ، مهجراً ، نازحاً ، لا يكاد يعرف عما كان يدور حوله شيئاً . . ها هو ابراهيم نفسه يعود الآن شاباً قوياً ، فتياً ، قد عزم على أن يقول للعدو كلمات قلائل ، وأن يفهمه بأنه ما زال حياً ، لم يمت ، وما زال أمل العودة يمور في قلبه الفتي كمثل بحر هائج . . .

وأحس ابراهيم وكأن الوشم الأزرق الذي رافقه منذ ذلك اليوم ، قد بات جمراً متقداً ، يلهب باطن ذراعه ، ويهيب به أن يتقدم ، وأن يضرب ، وأن ينتقم . . .

وبعد ساعة أو بعض ساعة كان الرجلان يطرقان باب بيت « بطرس » ويختفيان داخله بسرعة ، ومن غير أن يشعر بذلك أحد خارج البيت . . .

* * *

واستطاع ابراهيم أن يرى وجه بطرس على ضوء المصباح الكهربائي اليدوي الذي أضاءه بعد أن أسدل الستائر على النوافذ ، وجلس الثلاثة على أرض الغرفة وكان أغرب ما لاحظه ابراهيم أن مضيفهما – الذي كان في انتظارهما – يتصرف ويتحدث بصورة طبيعية ليس فيها أي أثر للخوف أو القلق . . .

وبعد أن قدم نمر زميله إلى بطرس ، حدق هذا في الشاب محاولاً أن يستشف من ملامحه شيئاً ، إذ بدا له أنه أصغر سناً من أن يقوم بمثل هذه المخاطرة ، ولكن رباطة جأش ابراهيم ، ومشاركته في الحديث بصورة تدل على أنه قد تدرب على مثل هذه الأعمال جعلت بطرس يشعر بالاطمئنان إليه لدرجة أنه كان يوجه الحديث إليه وكأنه سيقوم وحده بالمهمة . . .

وقال بطرس بهدوء :

– الوقت مناسب تماماً . . وسيارة الدورية ستمر بعد دقائق باتجاه القدس . . . ولم يطرأ أي تغيير على نظام الحراسة في المحطة . . .

وسلط نور مصباحه اليدوي على الخارطة التي أخذها نمر من سليمان ، وراح يعيد شرح نفس المعلومات عن الموقع .. والحراسة ... والمهندس الوحيد الموجود داخل المبنى ، وأقصر الطرق إلى مكان العملية ، وبعد أن اطمأن الجميع إلى أن كل شيء على ما يرام ، أطفأ بطرس مصباحه وهو يقول بصوت خافت :

– العفش .. جاهز .. وهو مخبأ بعناية في سقيفة البيت ... ستأخذانه بعد أن تمر سيارة الدورية ...

ولم يكد يكمل جملته حتى سمع الثلاثة هدير محرك «الجيب» الذي تمتطيه الدورية ، فقال بطرس بتوفز :

– ها هم .. انهم لن يلبثوا أن يبتعدوا خلال دقائق ...

وكان هدير السيارة يرتفع كلما اقتربت من المكان ، وفي الوقت الذي كان الثلاثة ينتظرون فيه أن يخفت الهدير بابتعاد السيارة ، كان الصوت يتصاعد بصورة دبت القلق في نفوسهم ..

وعبّر نمر عن هذا القلق بقوله وهو يتناول مسدسه من أسفل سلته :

– يبدو أنهم يقتربون من هنا ...

– غير معقول ..

قال بطرس ذلك وقفز نحو إحدى النوافذ وأزاح الستارة بحذر ثم التفت إلى زميليه قائلاً لهما بصوت متوتر :

– صدقت .. ان السيارة تتجه نحو هذا البيت ...

وارتفع هدير المحرك أكثر فأكثر، وأضاء داخل البيت –من خلال الستائر– نور كشافات السيارة ثم لم يلبث المحرك أن توقف ، وسمع صوت حركة ، ثم صوت طرق على الباب ...

وتناول ابراهيم مسدسه ، هو الآخر ، وهو يرتجف ، فقد شعر بأن الموقف أقوى منه ، وأنه وإن كان متحرقاً فعلاً للقاء بالعدو والاشتباك معه ، فالأمر ليس بالبساطة التي كان يتصورها . . .

وهمس بطرس بصوت متعجل :

– لا تخافا . . تعاليا معي . .

وجمع الرجال أشياءهم المبعثرة ، وصعد ابراهيم ، ومن ورائه نمر ، إلى سقيفة المنزل ، في الوقت الذي كان طرق الباب يتكرر بقوة أكثر . . .

وتوجه بطرس بهدوء تام إلى الباب ليفتحه وهو يقول بصوت مرتفع :

– من بالباب ؟ . . .

وهمس نمر لابراهيم بصوت خافت :

– امسك أعصابك يا ولدي . . وإياك أن تتصرف بشيء دون أن تراني فعلت مثله . . . أنظر إليّ وافعل مثلما أفعل . . .

وأومأ ابراهيم برأسه بالإيجاب ، رغم علمه بأن الظلام يحول دون رؤية نمر لإيماءته ، ولكن الموقف كان أقسى على الشاب من أن يجيب بالكلام ، فهذه أول تجربة من نوعها بالنسبة له ، وهو عازم على أن يخوضها حتى النهاية ، حتى ولو انتابه الخوف وسرى دمه بارداً ، بل مثلجاً ، في عروقه . . .

وأصغى الإثنان ، فسمعا كلاماً بالعبرية يتبادله بطرس مع القادمين ، ثم صوت حركة ذهاباً وإياباً ، ثم ساد الصمت ، وبعده عاد صوت الحركة مرة أخرى ، ثم ارتفع صوت هدير محرك السيارة ، وأضاءت كشافاتها المكان مرة أخرى ، ثم انطلقت ، وما لبث صوتها أن غاب تدريجياً حتى تلاشى . . .

وخيم على البيت صمت ثقيل . . .

وتساءل نمر في سرّه عما جرى، وهل اعتقل رجال الدورية بطرس؟... ولماذا لم يقوموا بتفتيش البيت إذن كما هي العادة؟..

وهمس ابراهيم متسائلاً:

- أين بطرس؟..

وابتسم نمر في الظلام وهمس بلهجة مرحة:

- وما ادراني؟.. علمي علمك.. إننا في سقيفة واحدة كما ترى..

وصمت ابراهيم، إذ شعر بسخافة تساؤله...

ومرت بضع دقائق، والصمت يزداد ثقلاً ووطأة على البيت كله، وعاد ابراهيم يسأل هامساً:

- ألا نتبين ما جرى؟..

- قلت لك امسك أعصابك.. ولا تتحرك..

وعاد الإثنان إلى الصمت، بينما أصبحت أعصابهما كالوتر المشدود، ويداهما على زنادي مسدسيهما، وهما يحدقان في مدخل السقيفة، كأنما يتوقعان أن يظهر منه أحد...

وشهق ابراهيم رغماً عنه، عندما رأى شبح رأس يرتفع من مدخل السقيفة، ولكنه ما لبث أن شعر بالارتياح الشديد حينما سمع صوت بطرس يهمس:

- هيه.. كيف الحال..

وسأله نمر هامساً:

- ماذا هناك؟..

- لا شيء.. تستطيعان أن تهبطا...

وتنفس نمر وابراهيم الصعداء، وهبطا من السقيفة، وقال ابراهيم بسذاجة:

- ياه... لقد تصلبت أطرافي وكأنني قد مكثت في السقيفة ألف عام...

وضحك بطرس وهو يقول:

- هذا طبيعي... ليس هناك أقسى من الزمن عندما يمر ببطء وتثاقل...

وسأله نمر باهتمام:

- إنك لم تقل لنا.. ماذا هناك؟..

- لقد أجبتك.. لا شيء.. الجماعة كانوا يريدون ماء لسيارتهم فأعطيتهم ما يريدون... هذا هو كل شيء...

فقال ابراهيم معلقاً:

- لقد حسبت، بادىء الأمر، أنهم جاؤوا في أثرنا...

وبهدوء حاسم كحد السيف قال له بطرس:

- وهل تظن أنهم كانوا سيخرجون من هنا أحياء؟.. لقد كانوا أربعة.. وليس أيسر من التخلص منهم،. على كل حال دعونا منهم.. انهم الآن في طريقهم إلى القدس.. وقد أصبح طريقنا إلى محطة الكهرباء آمناً...

قال هذا، وصعد بنشاط إلى السقيفة، ومكث فيها بضع دقائق، ثم نزل وهو يحمل كيساً متوسطاً من الخيش وضعه على الأرض أمام الرجلين، وراح يخرج ما فيه وهو يتكلم بلهجة مرحة:

- بضاعة من أحسن صنف.. عفش ممتاز.. نستطيع إذا أردنا أن ننسف بها مستعمرة اسرائيلية بمن فيها... لقد بذلنا جهداً عظيماً حتى تمكنا من الحصول عليها...

وأضاء مصباحه الكهربائي، وسلطه على «البضاعة»، فرأى ابراهيم كمية من «المتفجرات البلاستيكية»، وقد أعدت على شكل رزم، ومع إحدى هذه الرزم ساعة

توقيت ، وربطة من الأسلاك التي تستخدم في التفجير...

وأعاد نمر هذه الأشياء إلى الكيس ، ثم نهض وحمله على كتفه ، وقال لابراهيم باقتضاب :

- هيا بنا...

وتقدمهما بطرس نحو الباب ، ثم قال قبل أن يفتحه :

- كم كان بودي لو أنني رافقتكما في هذه المهمة.. لولا أنكم لا حاجة لكم بي.. وإن وجودي هنا أكثر فائدة من الذهاب.. على أية حال.. هذه مجرد دفعة صغيرة... صغيرة جداً على الحساب... ندفعها الليلة للعدو ، لقاء ما سلّفنا من العدوان والغدر والتهجير... وإنني لعلى ثقة بأن يوماً ما ، قريباً أو بعيداً ، سوف يأتي فيشارك شعبنا كله في الكفاح... من داخل الأرض المحتلة وخارجها على السواء...

وعانق بطرس زميليه وهو يقول بصوت مختنق من التأثر :

- الله معكما.. إنني بانتظار صوت الموسيقى التي ستعزفانها.. لن يغمض لي جفن قبل أن أسمعه..

وخرج الإثنان ، ونمر يحمل الكيس وعادا يجدان في السير نحو المحطة التي تمد تلك المنطقة بالكهرباء ، والتي إنما جاءا من أجلها ، ولكي يحيلاها أثراً بعد عين أو يموتا دون ذلك...

وبعد مسيرة حوالي الساعة ، بدت المحطة في عتمة الليل ، وقد ارتفعت مداخنها الشاهقة التي كان ينبعث منها صفير متواصل طرب له نمر ، فهو كفيل بإخفاء صوت تحركهما ، وكذا صوت رصاصهما إذا ما اضطرا إلى ذلك...

وأقعى نمر على الأرض وهو يجذب ابراهيم نحوه ، وقال له :

- هل ترى تلك البيوت المضاءة هناك؟... إنها أرضك وأرضي وأرض أبناء بلدتنا عين كارم...

ونظر ابراهيم، وشعر بالدماء تغلي في عروقه، فلقد تخيل أن وراء تلك الأبواب المغلقة، وتحت تلك الأنوار المضاءة قوماً يعيشون سعداء في أرض ليست لهم، وبيوت لا تخصهم، بينما يعيش أبناء الأرض والبيوت في المخيمات منذ عقدين من السنين...

وكأنما كان نمر يقرأ أفكاره، فقد قال بهدوء:

– أنظر حولك.. كل هذه القرى ببيوتها المضاءة، وحياة الدعة والاطمئنان التي تبدو عليها.. كلها قد اغتصبت منا.. بعد أن هجّرونا بالقوة.. وبالتآمر...

ولم يطل توقف الإثنين، فأمامهما مهمة يجب أن ينجزاها، فعادا للنهوض، وواصلا السير بخفة وسرعة، وصوت هدير محركات محطة الكهرباء يزداد في أذنيهما ارتفاعاً وهما يقتربان منها إلى أن أصبحا على مقربة بضع عشرات من الأمتار منها...

كانت المحطة مسوّرة بشبكة من الأسلاك المرتفعة، وقد قام في مدخلها «كشك» صغير، يبدو في داخله ضوء قوي...

وهمس نمر بتعليماته الأخيرة لابراهيم، ثم انطلق وحده، ومسدسه في يده، وابراهيم واجف القلب...

ووصل نمر إلى الكشك، وأطل من نافذته الصغيرة، فرأى الحارس جالساً يغالب النوم وهو يقرأ جريدة، وأجال نمر عينيه في أرجاء المكان حتى إذا اطمأن إلى عدم وجود أشخاص آخرين، سار بكل هدوء إلى باب «الكشك» ثم...

ثم وقع الحدث بسرعة يصعب على النظر أن يتابعها...

في ثوان كان كل شيء قد انتهى..

فقد فتح نمر الباب فجأة، فرفع الحارس الإسرائيلي رأسه، ونظر إليه في رعب، وقد

شلّت المفاجأة حركته ، وقبل أن يفيق من ذهوله ، كانت رصاصة نمر تنطلق من مسدسه المزود بكاتم للصوت ، فانكفأ الحارس على وجهه في الحال ، ومن غير أن تصدر عنه نأمة واحدة . . .

وخرج نمر من الكشك ، وأشار إلى ابراهيم الذي كان يراه بوضوح في النور الذي كان ينبعث من باب الكشك المفتوح ، فحمل الكيس وجرى بكل قوته إلى أن أصبح عند الكشك ، ورأى نمر وهو يفتح الباب الحديدي الكبير بمفتاح أخذه من غرفة الحارس ، وتسلل الاثنان من ثم إلى الداخل وراحا يعملان بسرعة . . .

وخلال أقل من ربع ساعة كان الاثنان قد وضعا المواد الناسفة في المواقع التي سبق تحديدها على الخارطة ، وضبط نمر ساعة التوقيت بحيث يتم الانفجار بعد ساعة . . .

ثم التقى الاثنان ، واتجها إلى الباب ليمرقا منه في مثل سرعة البرق ، ثم ليطلقا ساقيهما للريح دون توقف . . .

وكان ابراهيم وهو يجري ، يشعر وكأن قواه كلها قد تجمعت في ساقيه ، فهو لا يكاد يصدق ما حدث . . ولا يكاد يتصور أنه شارك في عملية فدائية بهذه الطريقة التي تبدو وكأنها مشهد من أحد الأفلام السينمائية التي تعتمد على المبالغة والإثارة . .

وكان نمر يطلب إليه أن يواصل الجري ، وألا ينظر وراءه أبداً ، وهما يتجهان نحو شريط « الحدود » من أقرب نقطة ، وفي اللحظة التي وضعا فيها أقدامهما على الجانب غير المحتل من الأرض ، ومضت في السماء ومضة هائلة من النور ، أعقبتها سلسلة متتابعة من الإنفجارات ، ثم ساد الظلام المنطقة كلها ، وصرخ ابراهيم بفرح جنوني وهو ما يزال يجري :

– الله أكبر . . لقد نجحنا . . لقد نجحنا . . .

وفي ذلك البيت الصغير القائم قرب شجرة التين العجوز ، كان بطرس مستلقياً في فراشه

مفتوح العينين ، وهو يصيخ الصمت بقلق وانفعال ، وحين تناهى إليه صوت الانفجارات تنهد بارتياح ، واستدار على جنبه ، واستغرق في نوم عميق...

* * *

لم يكن ممكناً أن يخطر ببال أحد ، أن هذا الكهل والشاب الذي يرافقه ، قد كان لهما أدنى علاقة بالحادث الذي وقع على مقربة من القدس ، والذي أحال محطة الكهرباء الضخمة أثراً بعد عين..

كان الاثنان يركبان الباص ، بعد أن باتا ليلتهما في منزل سليمان ، فاستعادا ثيابهما العادية ، وأعادا له السلاح والملابس القروية ، ثم خرجا في ساعة مبكرة من اليوم التالي ليستقلا الباص المتجه إلى عمان...

ولم يتدخل الاثنان ، قط ، في الحديث الذي كان يدور على ألسنة الركاب حول الحادث الذي وصلت أنباؤه بسرعة إلى القدس ، والذي هزّ السلطات الإسرائيلية على ما يبدو ، إذ شوهدت سياراتهم المصفحة والناقلة للجنود وهي تتحرك هنا وهناك على طول الحدود الفاصلة ما بين المنطقة المحتلة والمنطقة الأخرى ، وكان واضحاً أن العدو قد فوجىء بهذا الحادث تماماً ، فجن جنونه ، وراح يعيد النظر في أساليبه التي يتبعها في حراسة الحدود التي اصطنعها -هو نفسه- بمثل هذه الأساليب...

وكان نمر يشعر ، بارتياح شديد ، فقد حقق شيئاً مما كان يدور في ذهنه ، فخرج بذلك -كما قال لنفسه - من حيز الأقوال إلى حيز الأفعال... ومع أن من المؤكد أن العدو لن يسكت على هذه الضربة التي أصابته على غير توقع ، إلا أن المهم -في رأي نمر- أن شيئاً ما قد حدث ، وأن الاطمئنان الذي عاشه الغاصبون في أرض ليست لهم ، وفي بيوت اغتصبوها من أصحابها ، يجب أن يوضع له حد ، وأن يقال لهم أن الشعب الذي شرّدوه بلا ذنب ولا خطيئة ما زال موجوداً ، وأنه سيظل كابوساً يجثم على صدورهم ، فيروعهم في

يقظتهم ومنامهم ، ويحيل حياتهم إلى مثل الحياة التي فرضوها على الشعب الفلسطيني...

أما ابراهيم ، فكان ينظر ساهماً من نافذة «الباص» وهو يطوي الأرض متجهاً إلى عمان ، ويستعيد في ذهنه أحداث اليومين الماضيين ساعة فساعة ، بل دقيقة بدقيقة ، فيحس أن متغيرات عميقة قد حدثت في شخصيته وتفكيره ، فمع أنه أحس بالخوف ، وكاد أن يرى «الموت» رأي العين ، إلا أنه على استعداد لأن يعيد ما فعله مرة أخرى ، وبإتقان أكثر ، وشجاعة أكبر... وكانت النشوة تجتاح كيانه كلما تذكر منظر الانفجار الهائل ، ثم الظلام التام الذي خيم على المنطقة ، نتيجة لانقطاع التيار الكهربائي ، وراح يتخيل ، بلذة وحشية ، كيف تصرف الغاصبون عندها ، وبم كانوا يشعرون وهم يتساءلون عما جرى...

وأدار ابراهيم وجهه ببطء ، ناظراً إلى نمر ، فرأى هذا ينظر إليه مثل نظرته ، وتلاعبت ابتسامتان على شفاههما ، كانت هي الحديث الوحيد الذي دار بينهما منذ أن ركبا «الباص» في القدس ، وإلى أن وصلا - أخيراً - إلى عمان...

* * *

عندما وقع نظر أم ابراهيم على ولدها ، وهو يدخل المسكن ، اتسعت عيناها دهشة ، وخوفاً ، فلقد هالتها تلك النظرة القاسية التي تطل من عينيه ، وكأنه أسد قد انتهى لتوه من التهام فريسته ، فبرقت عيناه بذلك البريق الوحشي الذي يدب الذعر في نفس رائيه...

وقف ابراهيم أمامها صامتاً ، بعد أن ألقى عليها السلام ، وكأنه ينتظر منها أن تبادره هي بالكلام...

وهتفت المرأة بعد أن زال عنها روع المفاجأة :

- ابراهيم.. ولدي.. الحمد لله على السلامة...

وأقبلت عليه تعانقه بشوق ، فبادلها عناقها ، وشدّد الضغط على ذراعيها وكأنه لا يصدق أنه يراها أمامه.. ثم تقدم بضع خطوات ، وجلس على الأرض ، وأسند ظهره إلى

الجدار، ومدّ إحدى ساقيه، وألقى برأسه إلى الوراء وكأنه يريد أن يستريح من تعب عظيم...

وقالت الأم بقلب واجف:

– ماذا بك يا ولدي.. هل حدث شيء..

وهز ابراهيم رأسه نفياً بحركة خفيفة، فاقتربت الأم منه، وجلست إلى جانبه وقالت له بلهفة شديدة:

– أين كنت؟..

ولم يجب الشاب..

– أقول لك.. أين كنت؟..

وظل الشاب على صمته..

– هل ذهبت إلى القدس؟..

ولم ينبس الابن بكلمة واحدة..

– ابراهيم.. لا تفقدني عقلي.. سأخرج إلى الساحة وأظل أصرخ وأولول حتى أموت إذا لم تتكلم..

وأدار نحوها عينيه المتعبتين وراح ينظر إليها ثم تكلم:

– ليس هناك شيء.. كله خير والحمد لله... ذهبت إلى القدس..

ونظرت إليه في لهفة تنتظر بقية حديثه، ولكن الشاب عاد إلى الصمت..

– ابراهيم.. تكلم.. إنك توشك أن تقتلني..

ودبت الحياة فجأة في الجسد المتعب، واعتدل في جلسته، وأمسك بيدي والدته بكلتا يديه وراح يتكلم بحماسة:

- اسمعي يا أماه.. ليس عندي الآن وقت للدراسة..

- وما شأن الدراسة فيما نحن فيه؟.. إنني أسألك عما فعلت في القدس..

- أتريدين أن تعلمي حقاً؟..

- ماذا أريد إذن غير ذلك؟..

- اعلمي إذن أنني كنت.. كنت في عين كارم...

وصعقت المرأة أو كادت، وقالت بصوت مختنق:

- عين.. كارم.. ولكنها..

- محتلة.. أليس هذا ما تريدين أن تقوليه؟... أجل محتلة.. ومع ذلك فقد ذهبت إليها... ورأيتها...

ووضعت الأم رأسها بين كفيها، وكأنها تريد أن تمنعه من الانفجار..

واستطرد الابن يقول بانفعال:

- ذهبت مع أحد الأشخاص.. لن أقول لك اسمه.. ذهبنا لنسمع العدو صوتنا... وأننا لن نتخلى عن هدف العودة إلى أرضنا.. وأننا لن نتركه يهنأ فيها... هل سمعتني يا أماه؟..

وزادت الأم ضغطها على رأسها بكفيها، وقد تحجرت عيناها في ذهول شديد، وفتحت فمها عدة مرات، تحاول أن تتكلم، ولكن الكلام احتبس في حلقها، فما لبثت أن أغمضت عينيها، وتداعت متهاوية على الأرض في إغماءة...

* * *

قال نمر بصوت خافت وهو يجلس على الأرض في حوش مسكن ابراهيم وأمه:

- هل قلت لها شيئاً؟...

– تقريباً.. لم أقل لها التفاصيل وإنما ذكرت لها أنني ذهبت إلى عين كارم، وأنني رأيتها... وألمحت إلى الغاية من الذهاب إلى هناك.. وأظنها فهمت مدلوله... فلم تجب بشيء وإنما غابت عن وعيها.. وحين مسحت وجهها بالماء البارد أفاقت، ولكنها ظلت على صمتها... واتجهت إلى فراشها واستغرقت في النوم دون أن تخاطبني بكلمة واحدة...

– هذا طبيعي.. كنت أتوقعه...

– يؤلمني جداً أن تغضب أمي مني.. أو أن يخيب أملها فيّ من ناحية الدراسة.. ولكن ماذا أفعل؟... لقد سرت في هذا الطريق لأنني وجدت فيه شفاء من القلق الدائم الذي كنت أعيش فيه...

– مهما يكن من الأمر أرى أن تنتسب للجامعة، وأن تحقق أمل والدتك فيك...

– والواجب؟..

– تستطيع أن تساهم في بعض العمليات بين الحين والآخر.. فنحن، حتى الآن، ما زلنا نفتقر إلى تنظيم يجمعنا...

– فكرة معقولة...

– يمكنك أن تنتسب إلى أية كلية من الكليات وبهذا تطمئن الوالدة أولاً، وتعمل على ضمان مستقبلك أيضاً.. فلا تنس أن عدونا إنما تغلب علينا بالعلم بعد الغدر..

– أليست هناك عمليات جديدة؟..

– حالياً لا.. لقد جن جنون العدو من حادثة نسف محطة الكهرباء.. لقد اعترفت بها كل الصحف العبرية التي صدرت في اليوم التالي.. وإن كانت قد نسبتها إلى الحجة التقليدية وهي حدوث تماس كهربائي... ولكنك تلمس بين سطور ما نشر عن الحادث غضباً وحقداً عظيمين.. وطبيعي أن السلطات الأمنية الإسرائيلية تعرف سبب الحادث.. ولهذا فهي سوف تضاعف من إجراءاتها... لقد وفقنا في العملية دون أية خسائر بسبب عنصر

المفاجأة... ولذا فعلينا أن نخلد إلى السكينة بضعة أسابيع ندرس خلالها عملية أخرى دراسة وافية...

* * *

في اليوم التالي لم تذهب أم ابراهيم إلى عملها عند مختار أفندي، فقد هزّتها أنباء الأمس وهدّت قواها حتى أحست بالمرض يتسلل إلى جسمها، وزاد قلقها عندما نادت على ابراهيم عدة مرات فلم يجبها مما دلها على أنه غادر المسكن.. وراحت الهواجس تفترس أفكارها إذ خشيت أن يكون قد ذهب مرة أخرى في عملية مماثلة... وحارت كيف تستطيع البحث عنه، والعثور عليه، ولكنها لم تلبث أن شعرت باطمئنان غامر، حين رأته يعود إلى المسكن حاملاً تحت ابطه ملفاً...

وجلس إلى جانبها بعد أن قبل جبينها، وتمنى لها أن تكون أحسن حالاً، ثم سلمها الملف وهو يقول باسماً:

– هأنا، يا ستي، أحقق مطلبك... لقد انتسبت اليوم إلى الجامعة، وقدمت أوراقي وآمل أن أتبلغ بالقبول... لقد اخترت كلية الحقوق.. هل يلائمك هذا؟...

– الحمد لله.. الحمد لله يا ولدي على أنْ هداك.. إنك لا تدري كم آلمني ما حدثتني عنه بالأمس، لقد وجدت أن الآمال التي بنيتها عليك قد انهارت كلها، فضلاً عن أن الطريق الذي سرت فيه يجعلني أموت كل يوم ألف مرة قلقاً عليك كلما ذهبت في مثل هذه الرحلة...

– اطمئني يا أماه... سوف أقوم بواجبي نحوك ونحو وطني ونحو نفسي في آن واحد.. المهم ألا تشغلي بالك من هذه الناحية أبداً...

ثم استطرد وكأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه:

– بالمناسبة.. لقد عرضت عليّ الوكالة أن أعمل مدرساً عندها.. والراتب جيد جداً.. إنه أعلى من الرواتب التي تدفعها الحكومة... وقد أجبت بالقبول...

– ولكنني كنت أفضل أن تنصرف إلى دراستك وحدها...

– لن تعيقني الجامعة عن العمل... لأنني لا أريدك أن تعملي بعد الآن لا عند مختار أفندي ولا عند غيره...

– كما تشاء يا ولدي...

* * *

ومرت سنوات أخرى، كانت أمور سكان المخيمات خلالها كما هي، لم تتحسن، إن لم تزد سوءاً، فقد بدأت تظهر من قبل «الوكالة» نغمة ضعف الميزانية، ونقص الأموال، وتزايد المصروفات، مما أدى تلقائياً إلى تخفيض المخصصات الهزيلة التي كانت تعطى للاجئين، وأبدلت الوكالة اسمها من «وكالة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين» إلى «وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين»، فقد أفتى بعضهم بأن كلمة «إغاثة» غير صحيحة من الناحية اللغوية وأن الكلمة الصحيحة هي «الغوث» كأن الذين قضوا سبع عشرة سنة، حتى الآن، في المخيمات، لا همّ لهم إلا «تصحيح» اسم الوكالة الدولية، مع أن المهم هو «تصحيح» الوضع البائس الذي يعيشون فيه، بتنفيذ القرارات الكثيرة التي اتخذتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن، بإعادة أهل فلسطين إلى أرضهم وبلادهم، ورد أموالهم وأملاكهم المغتصبة إليهم...

* * *

عام ١٩٦٧م...

عام الحدث المروّع الذي وقع في الخامس من حزيران، والذي أدى إلى استيلاء العدو على فلسطين بأكملها، وعلى صحراء سيناء حتى الضفة الشرقية للقنال، وعلى مرتفعات الجولان السورية...

كان وقع الحدث على الأمة العربية كمثل وقع الصاعقة المميتة ، بدأ فجأة ، وانتهى فجأة ، وكانت نتيجته بضع مئات أخرى من آلاف اللاجئين الذين هُجّروا من الضفة الغربية بنفس الأسلوب الذي هجروا به قبلاً من مختلف أراضي فلسطين...

واستقبلت المخيمات لاجئين جدداً ، وأقيمت مخيمات جديدة ، وتصاعد اليأس في دنيا العرب بصورة قضت على الآمال التي ظلت تساور اللاجئين الأوائل بالعودة... وهكذا تضاعفت المشكلة وتفاقمت ، وباتت الغالبية العظمى من أهل فلسطين خارج بلدهم ، في الوقت الذي كان الأمل فيه – مع بداية أحداث حزيران عام ١٩٦٧م – يتصاعد في أن تكون تلك الحرب بداية النهاية لتشرد المشردين ، ونزوح اللاجئين ، وأن تكون هي العودة الموعودة التي طالما ارتقبها اللاجئون سبع عشرة سنة متواصلة...

لقد بلغت الغطرسة الإسرائيلية وقتها قمة وقاحتها وتبجحها ، وبدت إسرائيل في نظر العالم وكأنها الدولة التي لا تقهر ، ونسجت الدعايات الصهيونية حول الجندي الإسرائيلي أكاذيب من الأساطير صوّرته وكأنه الجندي الذي لا يغلب... مع أن واقع الأمور كان – ويا للأسف – أنه لم تقع حرب أصلاً حتى يقال أن الجندي الإسرائيلي لا يقهر... وكل الذي جرى ليس أكثر من سوء تصرف ، وسوء قيادة ، وسوء تقدير ، أدت – مجتمعة – إلى تلك النتيجة الفاجعة...

وفي وسط الظلام الدامس الذي لف الأمة العربية كلها إثر فاجعة حزيران ، بدا بصيص من نور ، استقطب اهتمام العرب جميعاً... فلقد ظهر «الفدائيون الفلسطينيون» كقوة جريئة لا تعترف باليأس ، ولا تقبل الهزيمة ، وتحاول أن تثبت أن الروح ما زالت تدب في جسد الأمة العربية ، وأن فيها رجالاً قد عاهدوا الله ثم شعوبهم على أن يواصلوا القتال بأية صورة ، وفي أي مكان ، وبأي سلاح...

وصارت أخبار الفدائيين الفلسطينيين تحتل الصفحات الأولى من الصحف العربية كلها ، وصارت أنباء عملياتهم الجريئة داخل الأراضي المحتلة تهز مشاعر الإعتزاز والفخر في

نفوس العرب... وبدا وكأن هذه الظاهرة هي عنوان رفض الاستسلام لليأس، والإخلاد إلى السكينة...

وباتت العمليات الفدائية داخل الأرض المحتلة، مصدر إزعاج فعلي للسلطات الإسرائيلية، هزّت كثيراً من صورة انتصارها المزعوم في حزيران ١٩٦٧م وجعلتها تدبر عملية إرهابية تهدف إلى القضاء على معسكرات الفدائيين التي كانت من قبل مجرد مخيمات...

وبطبيعة الحال، كان لنمر وابراهيم نصيب في بعض تلك العمليات، وبما يتناسب مع ظروف وإمكانات كل منهما...

* * *

كان مخيم «الكرامة» - الذي أخذ اسمه من اسم القرية التي يقوم فيها - هو أحد المخيمات الكثيرة التي أفرزتها كارثة النزوح، والذي أقام فيه عدد من أبناء النكبة، في الخيام والمساكن المقامة كيفما اتفق، يعانون حر الصيف وبرد الشتاء، ويعيشون كما عاشوا منذ بداية أحداث العام ١٩٤٨ المروّعة... فلقد مرت السنون تلو السنين... وكل شيء باق على حاله، والعودة الموعودة قد باتت أبعد من أن يطالها حتى خيال مجنّح...

ومع ظهور النشاط الفدائي، وبروز منظمات فدائية فلسطينية، وازدياد عملياتها داخل الأراضي المحتلة، رأى العدو - كعادته - أن يوجه ضربة صاعقة إلى أقرب هذه المخيمات إلى حدود الأرض المحتلة الجديدة، فكان أن اختار مخيم «الكرامة» بالذات ليوجه ضربته تلك...

وكان أشد ما يغيظ العدو، أنه لم يكن يستطيع تمييز «الفدائي» من «المزارع» في مخيم الكرامة، فالجميع يرتدون ملابسهم العادية التقليدية، وكان هذا مقصوداً من قبل الفلسطينيين، إذ كانت «حركتهم»، في بداية نشاطها، ومعظم أعمالها سرية، فكان

«المزارع» الذي يرى وهو يحرث الأرض ويزرعها، ويجمع محصولها، هو نفسه «الفدائي» الذي يحمل السلاح، والمواد المتفجرة، ويتسلل إلى عمق الأراضي المحتلة، ليقول للعدو كلمة تكون أحياناً على شكل عبوة ناسفة في أماكن تجمع اليهود، أو صاروخ على مصنع، أو قنبلة على مستوطنة اسرائيلية... وهكذا...

ومع أوائل شهر آذار (مارس) من العام ١٩٦٨م، أي بعد بضعة أشهر من كارثة حزيران، سرت في صفوف الفلسطينيين، في جميع المخيمات القائمة في الأردن، رسالة خفية...

- «العدو يحضر ضربة صاعقة لمخيم الكرامة»...

كان مبعوثو رجال مخيم الكرامة، ينقلون هذه الرسالة إلى مختلف المخيمات الأخرى، وتكون نتيجتها، اتجاه جماعي من الشباب، والقادرين على حمل السلاح، نحو مخيم الكرامة، يتركون معه أعمالهم ودراستهم، وأهلهم، وعيالهم، ويذهبون إلى مكان المعركة المرتقبة...

وحمل نمر إلى ابراهيم الرسالة ذاتها، في همس سريع، واستيقظت في ابراهيم روح القتال والمواجهة مع العدو، فأبدى رغبته في التوجه إلى مخيم الكرامة في الحال...

وإذ همّ بالنهوض من أرض «الحوش» إلى الغرفة الوحيدة في المسكن، حيث كانت أمه مشغولة بترقيع بعض ملابسها وملابس ولدها، رفع ابراهيم رأسه، فوجد الأم واقفة عند الباب، وقد أسندت إحدى يديها إليه، وراحت تحدق في الإثنين صامتة...

وبهت ابراهيم، وارتبك نمر...

وقالت الأم بصوت هادىء، قد ذهبت الأيام والبؤس بكثير من قوته:

- فيم تتحدثان؟...

فأدار نمر وجهه متحاشياً أن تلتقي عيناه بعينيها ، بينما اقترب منها ابراهيم وتناول يدها ، وجذبها برفق قائلاً :

– تعالي يا أماه واجلسي...

واستجابت الأم... وقد حافظت نظراتها على ذلك الجمود والسهوم اللذين رافقاها منذ أن غادرت بيتها وأرضها ، وفقدت زوجها ورجلها...

وتبادل ابراهيم مع نمر نظرة سريعة ، ثم تحدث الشاب بانفعال :

– أماه.. إنني لم أعتد على أن أخفي عليك شيئاً.. وأقول لك بصراحة أن الأخ نمر قد جاء يبلغني بأن اليهود يعدون عدواناً جديداً...

وقالت الأم بلهجة من اعتاد مثل هذه الأنباء :

– عدوان جديد؟.. وهل بقي مكان لم يعتدوا عليه بعد؟..

وشعر نمر بالارتياح ، وبدا له أن إقناعها بالموافقة لن يكون عسيراً... فوجد الجرأة على أن يقول لها :

– يا خالة أم ابراهيم.. أنت تعلمين أن شعبنا قد نفض عنه غبار اليأس.. وأزاح مشاعر الذل والاستكانة.. وأنه قد نهض من كبوته... يريد أن يثبت حقه وأن يعلن للعالم صوته...

وهزت المرأة رأسها دون أن تتكلم...

واستطرد نمر :

– واليوم ، تناهى إلينا نبأ موثوق بأن العدو يحضّر لضربة عسكرية قوية يريد توجيهها إلى مخيم « الكرامة » ظناً منه بأنه منطلق قوات الفدائيين الذين طالما قاموا بعملياتهم الجريئة داخل الأراضي المحتلة...

وعلقت المرأة ببطء :

– تعني أنه يريد أن يكتم لنا هذا الصوت الوحيد الذي ارتفع بعد سنوات البؤس واليأس؟..

وردّ نمر بحماسة :

– هو ذاك يا خالة.. ولهذا تريننا نحشد قوانا.. ونجمع شبابنا ورجالنا كيلا يأخذنا العدو غدراً كما هي عادته...

وأطرقت المرأة صامتة.. وراح الإثنان يرقبانها بلهفة شديدة ، كأنما هما ينتظران حكماً حاسماً يصدر منها ، فاما موافقة وتأييد.. واما رفض وإباء..

وطال إطراق المرأة وتفكيرها ، ثم رفعت رأسها ، ونظرت إلى نمر وسألته :

– وتريد أن تأخذ ابراهيم؟..

– إننا نحشد كل قوة ممكنة يا خالة..

وأدارت الأم عينيها نحو ولدها ، وقالت له بصوت ثابت :

– وماذا تنتظر يا ولدي؟..

وذهل الإثنان ، فما كانا يتوقعان منها هذا الجواب ، وهي التي نذرت حياتها من أجل ولدها ، والتي ظلت ترقب تقدمه في دراسته الجامعية عاماً بعد عام ، تنتظر اليوم الذي يحصل فيه على « الشهادة الكبيرة » ، لكي يحقق أملها وهدف حياتها.. وها هي الآن تحث ولدها بنفسها على أن يذهب إلى المعركة المرتقبة ، دون أن يرف لها جفن ، أو يهتز لها صوت...

وقال نمر بتأثر:

– الله الله يا خالة أم ابراهيم... بمثلك نعتز ، وببركة مثلك ننتصر.. إنني لأتذكر الآن تلك المرأة المسلمة العظيمة التي استشهد أولادها الأربعة فحمدت الله الذي أسبغ عليهم هذا الشرف ورجت أن يجمعها بهم في مستقر رحمته...

فقال ابراهيم معلقاً :

– تقصد الخنساء؟..

– أجل.. أجل.. إنها الخنساء...

وارتمى ابراهيم على والدته، يضمها إليه بقوة، ويقبل جبينها بحرارة، وتمسكت به الأم تتحسس جسده وهو بين ذراعيها، وكأنما هي تودعه الوداع الأخير، أو كأنها تراه للمرة الأولى، شاباً في عنفوان الفتوة، ورجلاً في قمة الرجولة، ولعلها كانت تتساءل كيف نما هذا الجسد بعد أن كان غضاً، وكيف قوي هذا الابن وقد حملته جنيناً، وأرضعته وليداً، وكان في نظرها، دائماً وأبداً، طفلها الحبيب الذي ضحت من أجله بكل شيء..

وشعرت بقطرات ساخنة من دموع ولدها تتساقط على خدها الملتصق بخده، فقطبت جبينها وقالت بلهجة حازمة:

– تبكي؟.. وهل يجوز للرجل أن يبكي؟.. إنك ذاهب إلى معركة.. والمقاتل لا يبكي يا ولدي..

وعاد ابراهيم يضمها إليه، وفي قلبه توجس مخيف، يخشى معه ألا يراها مرة أخرى، ولكنه وجد في شجاعتها – التي فاقت شجاعته – ما دب الحماسة في قلبه، فنهض ومعه نمر، وودعاها مرة أخرى، ثم غابا عن نظرها...

وظلت المرأة واقفة، بعد أن خرج الرجلان، ثم ذهبت مسرعة إلى فراشها وألقت بنفسها عليه، وهي تبكي وتبكي...

* * *

لئن كان العدو يفاخر دائماً بقوة «استخباراته»، وغزارة معلوماته، فلعل من المؤكد أنه عندما دفع بقواته إلى «الكرامة» لم يكن يدري شيئاً عن حقيقة ما دبر له...

كان العدو قد خسر المعركة قبل أن يبدأها، بعد أن فقد عنصر المفاجأة – على غير علم منه – وكان يظنها مجرد نزهة يقوم بها غدراً، كتلك التي قام بها من قبل، منذ قيام الكيان الإسرائيلي وحتى تلك اللحظة...

كان الغدر، والطعن في الظلام، والتسلل، والضربة المفاجئة، من السمات المميزة للأسلوب الإسرائيلي في القتال، وما عرف عن الإسرائيليين -إلا فيما ندر- أنهم قد مارسوا أسلوب المواجهة والقتال وجهاً لوجه...

ومع الخيوط الأولى للفجر، كانت بضع عشرات من الدبابات الإسرائيلية، ووراءها آلاف من جنود المشاة، تجتاز الجسور القائمة على نهر الأردن لتلتف حول مخيم الكرامة، وتنزل به ضربتها المقررة...

كانت الخطة الإسرائيلية تقضي -على ما يبدو- بإنزال قوة من المظليين عند سفوح جبال السلط، لتهاجم المخيم من الخلف، بينما تطبق القوات المدرعة والآلية عليه من الأمام..

وألقت الطائرات الإسرائيلية بأحمالها من المظليين في المكان المحدد.. ولكن أمر هؤلاء انتهى في اللحظة التي وطئت فيها أقدامهم الأرض...

لقد أبيدوا عن آخرهم، عندما فوجئوا بالنيران تنصب عليهم من كل جانب، لتحيلهم، في وقت قصير، إلى أشلاء مبعثرة، ولم ينج منهم أحد...

ومع اقتراب القوات المدرعة من المخيم، فوجئت بنيران مدفعية الجيش الأردني الثقيلة تنصب عليهم من الخطوط الخلفية، فتدمر دباباتهم، وتمزق صفوفهم، وتحيل معركتهم إلى فوضى ما عادوا يستطيعون معها تقدماً إلى الأمام ولا تراجعاً إلى الخلف...

هكذا دارت المعركة، من الفجر إلى بعيد العصر، ضارية، مريرة، التقى فيها الجانبان لأول مرة وجهاً لوجه، منذ هزيمة حزيران، وكان اللقاء بين مقاتلي الشعب المشرد، ومقاتلي العدو الغاصب، لقاء دموياً بكل ما في الكلمة من معنى..



وانتشرت الدبابات المحطمة ، والمجنزرات المحترقة ، والسيارات المهشمة إلى جانب المئات من الجثث ، وراح العدو يتراجع بغير انتظام ، لدرجة جعلت بعض جنوده يلقون بأنفسهم في النهر ليجرفهم تياره القوي...

لقد كانت معركة « الكرامة » معركة كرامة حقاً...

ومن الثابت أن العدو لم يستطع أن يحقق فيها النجاح الذي كان يتوقعه ، فراح يجمع من يراه في طريقه من « المزارعين » ليحملهم إلى خطوطه الخلفية لاستجوابهم في محاولة لتحديد حجم هذه الظاهرة الجديدة.. ظاهرة « المقاومة الفلسطينية » التي بدت فتية شابة ، في الوقت الذي كان يظن العدو معه أنه قد نفض يديه نهائياً من كل مقاومة عربية ، بعد انتصاره الموهوم في حرب حزيران...

ومع انجلاء غبار المعركة ، وانسحاب العدو من أرضها ، راح المقاتلون المنتصرون يتفقدون ميدانها..

وكان أكثر ما أدهشهم ، مشهد سائقي الدبابات وقد شدوا إلى مقاود دباباتهم بالسلاسل لمنعهم من الهرب ، وحين أصابتهم نيران المدفعية الأردنية وصواريخ المقاومة ، قتلوا في دباباتهم ، واستحالت جثثهم إلى سواد متفحم...

وكان نمر يتنقل هنا وهناك باحثاً عن ابراهيم ، فالهول الذي شهدته أرض « الكرامة » منذ الفجر إلى تلك الساعة ، جعله يتصور أن من الصعب أن يكون ابراهيم قد نجا منه ، لا سيا وأن ظروف المعركة قد اقتضت ابتعادهما عن بعضهما منذ أن وصلا إلى المخيم...

وراح نمر يحدق في الجثث المتناثرة ، واجف القلب ، وهو يدعو الله ألا يجد ابراهيم بين أصحابها ، ويتنقل في أرجاء ميدان المعركة...

وما كان أشد سعادته حين سمع صوت ابراهيم يناديه على مبعدة ، فقد كان — هو

الآخر- يبحث عنه، ويحاول أن يطمئن عليه، ويدعو الله ألا يكون قد أصيب أو أسر في هذه المعركة الضارية..

وتعانق الرجلان بقوة، وقد تمزقت ملابسهما، وعلا الغبار وجهيهما...

وقال نمر بصوت متهدج:

- ابراهيم.. الحمد لله.. الحمد لله على نجاتك يا ولدي..

وعادا يتعانقان مرة أخرى في تأثر...

وكان على المقاتلين، بعد انتهاء المعركة، أن يعيدوا تنظيم صفوفهم، وأن يزيلوا آثار المعركة الضارية، وأن يتحسبوا لعملية أخرى قد يقوم بها العدو...

وسيق خمسة من الأسرى الإسرائيليين إلى إحدى المغاور القائمة في الجبل، تمهيداً لاستجوابهم والمساومة عليهم لاستعادة أسرى المقاتلين.

* * *

كانت الروح المعنوية في مخيم الكرامة في أوج قوتها وارتفاعها، فهذه أول مواجهة حقيقية بين أصحاب الأرض الفلسطينية الشرعيين وغاصبيها المعتدين... كما أنها أول مواجهة تتم بين «المقاتل العربي» الذي أصيبت سمعته في الصميم إثر أحداث حزيران، والمقاتل الإسرائيلي الذي صوّرته الدعاية الاسرائيلية على أنه القوة القاهرة التي لا تغلب...

لقد بدا المقاتل الإسرائيلي، خلال هذه المعركة على حقيقته، فهو لا يحارب إلا من وراء دروع الدبابات، وتحت مظلة جوية، وبدعم من قوة نارية كثيفة، إلى جانب الغدر والمباغتة...

ولقد عودته انتصاراته السهلة في الماضي على أن يستهين بالمقاتل العربي ، غير منتبه إلى أنه إنما انتصر في الحرب الأولى بدعم من القوى العالمية التي سخرت مجلس الأمن لصالحه عندما كان إلى الهزيمة قاب قوسين أو أدنى ، وفي الحرب الثانية كان محمياً بقوى دولتين كبيرتين ، انجلترا وفرنسة ، وفي الثالثة كان يدين إلى حالة التمزق المصطنعة التي سادت معظم أرجاء الوطن العربي ، إلى جانب ظروف أخرى ليس بينها –ولا ريب– عجز المقاتل العربي ، أو القدرة الأسطورية المزعومة للمقاتل الإسرائيلي...

لقد رأى الإسرائيليون في معركة الكرامة ما لا يمكن لإسرائيلي أن يفعله..

رأوا المقاتل الفلسطيني يحيط خصره بالحزام الناسف ، ويلقي بنفسه تحت دبابات العدو لتدهسه ، ولينفجر الحزام ويحيل دبابة العدو إلى أشلاء متناثرة...

ورأوه يقاتلهم بالسلاح الأبيض ، وهو يدفع عن موقعه عدوانهم ، ويحارب على امتداد جبهة طولها يزيد عن العشرين كيلومتراً...

كان المقاتلون وهم يخلدون إلى الراحة بعد عناء ذلك اليوم الطويل يتحدثون بذلك ، وهم في نشوة الانتصار ، وعنفوان الظفر ، ويستمدون مما حققوه من أمجاد عزيمة تجعلهم أشد قدرة ومضاء على مواجهة العدو في معارك مقبلة...

أما الأسرى ، فقد كانوا في حالة من الهلع لا توصف ، فهم قد نشأوا على الكراهية الشرسة ، والحقد الأعمى ، فحسبوا أن هذه هي السمة الطبيعية للمقاتلين ، ولقد سبق لهم أن رأوا ، ومارسوا بأنفسهم ، أساليب التنكيل والتعذيب الوحشية فيمن يقع بين أيديهم من المقاتلين العرب ، فتوقعوا أن يلقوا المصير نفسه ، وأن يعاملهم آسروهم كما كانوا يعاملون ، هم ، أسراهم...

كانت المغارة التي سيق إليها الأسرى ، تجويفاً طبيعياً عميقاً في قلب الجبل ، قد أعده سكان المخيم ليكون صالحاً للسكن ووجدوا أنه أفضل مكان يضعون فيه أسراهم تلك الليلة ، ليصار إلى استجوابهم وتقرير مصيرهم في اليوم التالي..

ولسبب ما، لعلنا نعرفه فيما بعد، عهد إلى ابراهيم بحراسة الأسرى تلك الليلة، فكان عليه أن يسهر على مراقبتهم، وسلاحه تحت يده، ومعه تعليمات واضحة وصريحة: أن يطلق النار بلا تردد على من يحاول الهرب منهم...

كانت المغارة مضاءة بمصابيح كهربائية قوية، تجعل مراقبة الأسرى وحراستهم مهمة سهلة، فهم لا يستطيعون أن يأتوا بحركة واحدة دون أن يراهم..

ولم يكن يبدو على الأسرى أنهم يفكرون في الفرار بأية حال... فنظراتهم الزائغة، وقواهم الخائرة، وحالة الرعب الواضحة المرتسمة على وجوههم تدل على أن الهرب لم يكن وارداً في ذهن أي منهم...

ودخل ابراهيم المغارة، وأجال بصره في جنود العدو الذين التقى بهم، مقاتلاً وحارساً، لأول مرة في حياته ذلك اليوم...

كانت عيون الأسرى معلقة فيه، تنظر إليه في ذعر، كالشاة وهي تنظر إلى جزارها، وتتركز على الرشاش الخفيف الذي كان يحمله...

وأشار لهم ابراهيم أن بوسعهم أن يناموا، ودهش حين سمع أحدهم يقول له باللغة العربية بلهجة توسل:

– أرجوك.. لا تقتلنا.. إننا لسنا سوى جنود ننفذ الأوامر..

ونظر إليه ابراهيم بدهشة، فهو لم يكن يتوقع أن يجد بين هؤلاء الشباب من يتكلم العربية بتلك الطلاقة...

وابتسم ابراهيم بمرارة، ورد على الإسرائيلي الأسير:

– هل تحسبون أن الناس كلهم مثلكم؟... تستطيعون أن تناموا بكل اطمئنان.. وثقوا أنني لن أنالكم بسوء...

ويبدو أن ذلك الجندي كان هو الوحيد الذي يتقن العربية بين رفاقه ، إذ التفت إليهم ، ونقل إليهم ما قاله ابراهيم بالعبرية ، فبدا الإرتياح على وجوههم في الحال ، وقال ابراهيم للجندي :

– الكلام ممنوع ... قل هذا لزملائك .. ولا أريد أن أسمع بعد ذلك كلمة واحدة ...

وخاطب الجندي زملاءه بما قاله ابراهيم ، فهزوا رؤوسهم طائعين ، ثم استلقوا وقد نال منهم التعب والخوف كل منال ...

ونظر ابراهيم إلى ذلك الأسير، الذي وضع يديه تحت رأسه واستلقى على ظهره ، وأحس بأن الأرض قد مادت به أو كادت ...

بدا عليه ذهول عميق .. فراح يحدق في الجندي بقوة ..

وفتح فمه يريد أن يتكلم ، ولكن الكلمات احتبست في حلقه ..

ولاحظ الجندي ذلك ، وعاد الذعر يتملكه من جديد ..

وتزايد ذعره حين أمسك ابراهيم رشاشه في حالة تهيوء ، وهو يقول له :

– أنت ... أرني ذراعك اليسرى .. ولا تتحرك من مكانك ..

واستقام الجندي ، ومد ذراعه اليسرى التي كانت ترتجف من الخوف ..

وهمس ابراهيم بذهول :

– رباه .. هل هذا ممكن ...

لقد رأى على ذراع الجندي الاسرائيلي الأسير وشماً ، يمثل سمكة ، هي صورة طبق الأصل عن السمكة الموشومة على ذراعه ...

وعاد يخاطب نفسه بذهول :

– رباه .. هل هذا ممكن ...

واجتاحت كيانه هزّة عاتية... وأحس بطنين هائل، متصاعد، يوقر أذنيه حتى ليكاد يصاب بالصمم...

وشعر بمثل الدوار يأخذه، ويهزه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين...

ورأى في مثل ومض البرق شريطاً مروّعاً من الذكريات يمر أمام عينيه:

طفلان صغيران، من عمرين متقاربين يتنزهان في ظاهر عين كارم...

الطفلان يجريان، ويلعبان، وقد تعالت ضحكاتهما...

انهما يقفان أمام غدير صاف، تبدو من خلال مائه أسماك صغيرة تروح وتجيء في اطمئنان..

انهما يحاولان اصطياد بعض تلك الأسماك بأيديهما... إلى أن يوفق كل منهما بواحدة..

أحدهما يشفق على السمكة وهي تنتفض في يديه بعد أن أخرجها من الماء، فيعيدها إليه..

ثانيهما يسحق السمكة بين اصبعيه بلذة وحشية حتى تبرز أحشاؤها...

غجرية تمر...

أحدهما يقترح على الآخر أن يسجلا صداقتهما الدائمة على ذراعيهما في صورة وشم متماثل...

الغجرية تنقش على ذراع كل منهما رسم سمكة صغيرة...

ثم...

أهوال النزوح.. يعانيها أحدهما مع أمه بعد أن فقد أباه...

من عين كارم إلى القدس...

من القدس إلى أريحا...

من أريحا إلى عمان..

من مغارة في أحد جبال عمان، إلى جحر في مخيم...

عشرون سنة كاملة مرت... ذاق فيها النازح كل ما يمكن أن يخطر على البال من الجوع.. والفقر.. والبرد.. والحر.. والضياع.. والآلام..

أمه عملت خادمة في بيوت الآخرين لتقيم اوده، وهي التي كانت سيدة بيتها ومزرعها، ومن كرام السيدات في موطنها..

وهو.. الذي عانى كل ما عاناه، والذي كان أشده وأقساه ذلك الوشم الذي كان يحرق ذراعه كالجمر المتقد على أمل لقاء.. لقاء واحد ليس غير.. مع ذاك الذي سكن بيته، واستولى على ماله، واحتل مكانه.. وعاش وأراد للآخر -دوماً- أن يموت...

ثوان معدودات ليس غير.. مر فيها هذا الشريط من الأحداث في خاطر ابراهيم وهو يرى إلى الوشم المماثل لوشمه، على ذراع الأسير الإسرائيلي الأشعث الذي كان ينظر إليه في رعب لا يمكن تصويره أو تصوره...

وأخيراً تكلم ابراهيم، أو بالأصح حاول أن يتكلم بادىء الأمر، ولكن الكلمات احتبست في حلقه، فهو لم يكن -في واقع الأمر- يتصور أن من المحتمل، حقاً، أن يرى يوري بعد تلك السنوات الطوال... ولولا ذلك الوشم الذي رآه على ذراعه ما كان له أن يعرفه.. فلقد تركه وهما طفلان صغيران، وها هما الآن -كلاهما- في عنفوان الشباب..

وتنحنح ابراهيم عدة مرات، قبل أن يتكلم بثبات:

- هل عرفتني؟..

قالها بهدوء شديد، وهو ينظر إلى يوري بإمعان..

ونظر يوري إليه، ولم يبد عليه أنه قد عرفه...

وكرر ابراهيم سؤاله:



– هل عرفتني؟..

وأجاب يوري بصوت مرتجف:

– أنت منهم.. من الإرهابيين.. أقصد.. من المخربين.. أقصد.. من.. من العرب...

وأرخى جفنيه في خوف ثم استطرد:

– آسف.. انهم يصفونكم هكذا عندنا.. في اسرائيل..

– إرهابيون.. مخربون؟.. هه.. ماذا أيضاً؟.. أترانا نحن الذين فتكنا بالأبرياء من سكان دير ياسين؟.. أم ترانا نحن الذين ارتكبنا مذبحة قبية.. أم لعلنا نحن الذين طردنا أهل فلسطين من أرضهم وبلادهم واغتصبناها منهم جهاراً نهارا، ثم طاردناهم حتى في مخيمات البؤس والشظف التي يعيشون فيها؟...

ولم يجب يوري بشيء..

وقال ابراهيم:

– إنني أسألك هل عرفتني أنا؟.. أنا بالذات.. ألم يسبق لك أن رأيتني؟..

وتأمله يوري، ثم هز رأسه يميناً ويساراً بالنفي..

– قل لي إذن.. ما هذا الوشم الذي على ذراعك؟...

– انه... انه ذكرى قديمة.. قديمة جداً.. مرت عليها سنوات كثيرة...

– قديمة؟.. لعلك نسيتها...

– كانت عبث طفولة...

– آه.. عبث طفولة.. كان على صاحبك أن يدرك أنك تنظر إليها على أنها عبث طفولة.. بينما اعتبرها هو رمز صداقة دائمة مدى الحياة..

واتسعت عينا يوري دهشة وذهولاً وتساءل :

– وما.. وما أدراك؟..

وصرّ ابراهيم على أسنانه ، وقال بأسف :

– يا لك من غبي.. أنظر..

وكشف ذراعه اليسرى بحركة سريعة من غير أن يترك رشاشه من يده الأخرى ، وأدار باطن ذراعه نحو عدوه الأسير :

– أنظر.. وقل لي.. ماذا ترى؟..

وصعق يوري ، فقد رأى على ذراع العربي الواقف أمامه وشماً يماثل الوشم الذي نقش على ذراعه ، وعندها – عندها فقط على ما يبدو – بدأت الأمور تتضح أمام عينيه ، وصرخ بلهجة بدا فيها الفرح واضحاً :

– ابراهيم.. ابراهيم.. هذا غير معقول.. آه.. كم أنا سعيد برؤيتك...

وبدا على اليهودي وكأنه يهم بالنهوض ليعانق صديق طفولته ، ولكن ابراهيم أمسك رشاشه بحركة تهديد ، وقال له بلهجة آمرة :

– مكانك.. إياك أن تتحرك..

وجمد الإسرائيلي في مكانه ، ولكن معالم السرور ظلت مرتسمة على وجهه ، ولعله حسب أن صديق طفولته ، ابراهيم ، لن يحجم عن مساعدته وهو في حالة تلك...

وقال يوري بحماسة :

– أرأيت؟.. لقد كان اقتراحك إذ ذاك في محله.. لو لم ننقش هذا الوشم على ذراعينا لكان عسيراً علينا أن نعرف بعضنا الآن.. إنني سعيد.. سعيد بلقائك..

– ولم يا ترى؟..

- لم؟.. كيف.. السنا أصدقاء الطفولة...

- أصدقاء الطفولة؟.. ربما.. لاني كنت إذ ذاك ساذجا لا افهم..

- ماذا تعي؟..

- ان ما أقصده واضح كل الوضوح.. إنني أرى الأشياء جيدا الآن يا ابن حاييم.. إن علاقتنا.. أنا وانت.. وعلاقة أبي بأبيك.. وعلاقة بلدتنا «عين كارم»، بجارتها الإسرائيلية المسماة «بيتا كارم»... هذه الأنواع العديدة من العلاقات.. كان لها عندنا معنى يختلف عن معناها عندكم.. واعتقد، بل أثق، أننا لو صارحنا أنفسنا ورأيناكم على حقيقتكم لكنت الآن في بيتي الذي احتللته أنت ولكنت أنت في مكان آخر بعيد... بعيد جداً عن فلسطين...

وقلب الأسير الإسرائيلي يديه ببراءة مصطنعة وقال:

- وما شأننا نحن بهذه الأمور؟.. إنها أمور سياسية لا دخل لنا فيها.. يكفي أن نحتفل، أنت وأنا، بلقائنا بعد هذه السنوات الطوال من البعد والفراق...

- نحتفل؟.. لقد احتفلنا اليوم كما تعلم بهذا اللقاء.. إن صوت المدافع والرشاشات لم يتوقف إلا منذ ساعات قليلة.. فهل تريد احتفالاً أعظم من هذا الاحتفال؟..

- ابراهيم.. مرة أخرى أقول لك.. هذه أمور تخص الآخرين من قومي وقومك.. المهم أننا قد التقينا بعد فراق دام زمناً طويلا.. وعلينا أن..

وقاطعه ابراهيم قائلاً:

- ولماذا كان ذلك الفراق يا ترى؟..

- إنها تلك الأحداث التي تعرفها..

- أجل.. تلك الأحداث التي أعرفها حق المعرفة.. لأني عشتها.. عشتها تشرداً.. وتنقلاً من مكان إلى آخر.. عشتها جوعاً وفاقة.. وانتظاراً لأن تتكرم وكالة الإغاثة عليّ وعلى شعبي بما لا يغني ولا يسمن من الغذاء.. ألا قل يا يوري.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟..

– لقد قلت لك.. إنها الأوامر.. فأنا، كما ترى، مجند في جيش الدفاع الإسرائيلي..

– جيش الدفاع؟.. رباه ما أضخم هذه الأكذوبة.. الدفاع ضد من؟..

– إن دولتنا تعيش وسط أخطار عظيمة.. هذا شيء معروف..

– ومن الذي صنع هذه الأخطار وتسبب فيها؟..

– انكم معشر العرب، تكرهوننا...

– نكرهكم؟.. انك لم تقل التعبير المناسب يا ابن حاييم.. ومع هذا فإنني أسألك... لماذا نكرهكم؟.. هل قالوا لك، عندكم، لماذا؟..

– لقد خضتم ضدنا ثلاث حروب في أقل من عشرين سنة و...

– خضنا ضدكم؟.. هل نسيت، على ما أرى، أن حروبكم كانت عدواناً منكم علينا... لتأخذوا ما لا تملكون... وتستولوا على بلدنا وأرضنا وتشردونا من غير ذنب ولا جريرة؟.. أنسيت يا ترى، أننا قد آويناكم.. وأدخلناكم بلادنا... وعاملناكم كفلسطينيين.. وأبيتم إلا أن تقولوا أنكم إسرائيليون؟... هل تذكر، يا ابن حاييم، نقاشي معك تلك الأيام، حين قلت لك أنك فلسطيني وقلت أنت أنك إسرائيلي..

– إن اسرائيل هي أرض ميعادنا...

– من قال ذلك؟.. وإلى أي حق استندتم؟.. اتراك تصدق تلك الأكاذيب التي يرددها زعماؤكم؟.. إنني لا أريد أن ألقي عليك محاضرة في التاريخ.. ولكنني أقول لك باختصار أننا، نحن العرب، أقمنا في فلسطين ألفين من السنين.. ولم يزد مجموع مدة إقامتكم فيها، معشر اليهود، عن سبعين سنة متقطعة.. ليس غير..

– ابراهيم.. انك تذهب بعيداً في حديثك.. نحن.. أعني أنت وأنا.. لا شأن لنا بذلك.. اننا صديقان قديمان.. هذا كل ما يهمني.. ولعلك تبعد عني هذا السلاح الذي تشهره عليّ...

– سلاحي؟.. لا.. لا يا يوري.. إنني لن ألقي سلاحي.. ولن أبعده عنك.. ولا عن قومك إلى أن تثوبوا إلى رشدكم.. وتعرفوا الحق وتعترفوا به...

– أنت إذن لن تساعدني؟..

– فيم تريدني أن أساعدك؟..

– انك لا ترضى لصديقك القديم أن يظل كما هو الآن.. هل يرضيك أن تراني في هذه الحالة وهذا الوشم الذي نقشناه على ذراعينا يدل على صداقتنا الدائمة؟.. لقد خيبت أملي يا ابراهيم.. فلقد استبشرت خيراً عندما تعرفنا على بعضنا.. وقلت في نفسي إنك لن تلبث أن تساعدني... وتنقذني.. فنحن صديقان.. بل إن ذهني اتجه إلى أختي راشيل.. فقلت في نفسي أنها سوف تكون في منتهى السعادة عندما تعلم بأن صديقنا القديم ابراهيم قد فك أساري..

– أختك راشيل؟.. حقاً.. أين هي الآن؟..

– انها مجندة في جيش الدفاع الإسرائيلي مثلي..

– مجندة؟.. وتحمل السلاح؟.. هه؟.. هل تبينت الآن من أنتم؟.. أنتم مجموعة من القتلة، يستوي في ذلك رجالكم ونساؤكم... وإذا كان يهمك أن تدخل السعادة في نفس أختك حين تقول لها أنني قد ساعدتك على الهرب.. فأنا، أيضاً، يهمني أن أدخل السعادة في نفس أمي حين أقول لها أنني قد ساهمت في المعركة التي أُسِرت ورفاقك فيها.. وأنني قمت على حراستكم كيلا تهربوا...

وبدت على وجه الأسير الإسرائيلي خيبة أمل واضحة، فلقد ظن –على ما يبدو– أن مخاطبة هذا «العربي» بالعاطفة يمكن أن تؤثر فيه –إذ قيل له في الأرض المحتلة أن العرب قوم عاطفيون– ففوجىء بهذه الصلابة، والاصرار على الموقف، فتبدد أمله، وعاد الذعر يتملكه من جديد..

واستطرد ابراهيم في كلامه:

– انك لا تدري يا يوري كم أنا سعيد فعلاً بهذا اللقاء.. ولكن على طريقتي أنا وليس على طريقتك أنت.. انك لا تصدق انني ظللت أحلم بهذا اللقاء، معك أنت بالذات، سنوات وسنوات... وأتخيل ما سوف يدور بيننا من حديث.. لكي أروي لك الأهوال التي عشتها أنا وشعبي، بينما أنتم تغتصبون بلدنا.. ولا تكتفون بذلك.. بل وتطاردوننا بالعدوان في كل مكان...

ونهض يوري واقفاً، ومد يديه نحو صديقه القديم وكأنه يستعطفه، فنهض ابراهيم بدوره وقد أحكم الإمساك بسلاحه متهيئاً لإطلاق النار في أية لحظة..

وقال يوري بلهجة توسل:

– ابراهيم.. إنني لا أصدق ما أراه.. لا أصدق أنك تشهر السلاح في وجهي..

– سيظل سلاحي وسلاح شعبي كله مشهراً في وجهك ووجه قومك إلى أن يعود الحق إلى نصابه..

وتقدم يوري خطوة وهو يقول بصوت متهدج:

– ابراهيم.. أرجوك.. ساعدني.. إن وجودي أو عدمه سواء.. ولكن بوسعك أن تنقذ حياتي..

– كأني بك تطلب مني أن أخون قضيتي.. وشعبي.. وآمالي..

– ابراهيم..

– مكانك..

– ابراهيم..

– مكانك.. خطوة أخرى وأطلق الرصاص..

ومع أن الإسرائيلي قد لمس في لهجة ابراهيم صلابة وتصميماً واضحين، فإنه واصل التقدم ببطء وهو يمد ذراعيه بحركة تمثيلية مستعطفة، حتى باتت المسافة بين الاثنين لا تزيد عن خطوات ثلاث..

ووضع يوري يديه على صدره وكأنه يريد أن يؤكد كل كلمة يقولها :

– إنني ما زلت متمسكاً بصداقتنا القديمة رغم كل ما قلت...

– لقد فات الأوان.. فات الأوان كثيراً يا ابن حاييم..

وفي مثل لمح البصر، لمع في يد يوري خنجر قصير، كان يخفيه تحت إبطه برباط ووثب على ابراهيم يريد أن يطعنه به، ولكن حركة واحدة من أصبع ابراهيم كانت كافية لأن ينطلق سيل من الرصاص مزق الإسرائيلي تمزيقاً، وجعل رفاقه ينهضون مذعورين..

وارتسم الذهول الشديد على وجه يوري وهو يتهاوى على الأرض، والدم ينبثق من جسمه، وكأنه لم يكن يتوقع هذه النتيجة، وقال بصوت مختنق :

– قتلتني.. قتلتني.. يا.. ابراهيم..

ورد ابراهيم ببطء وهو يحدق في الإسرائيلي الغارق في دمائه :

– وأنت.. ماذا كنت تريد أن تصنع بي ومعك هذا الخنجر؟..

وراح ابراهيم ينقل بصره بين سلاحه، وبين القتيل، كأنما لا يصدق ما جرى، بينما كانت عيون الأسرى الآخرين معلقة على فوهة السلاح في ذعر هائل..

وانتبه من استغراقته تلك على أصوات بعض زملائه من المقاتلين، الذين جاؤوا يستطلعون ما جرى، فوقفوا ينظرون بدهشة إلى ابراهيم الذي تسمرت نظراته على صديقه القديم، صريعاً، ويده تقبض بقوة على الخنجر...

وأجاب ابراهيم على تساؤلاتهم باقتضاب :

– حاول أن يقتلني بهذا الخنجر الذي كان يخفيه...

ومر بأصابعه على جبينه في إعياء واستطرد :

– إنني خارج لأستنشق بعض الهواء..

* * *

وسار ابراهيم وهو ينقل خطواته ببطء، وسلاحه في يده، ثم جلس في مكان قصي من المخيم، وذهنه يضج بالأفكار، والذكريات.. ما بين ذاك الذي حدث قبل لحظات، وبين الأحداث البعيدة التي ما زال يذكرها، منذ طفولته، بأدق تفاصيلها...

وتناهى إليه وقع خطوات تقترب منه في عتمة الليل، وصوت نمر وهو يقول:

– ابراهيم.. أنت هنا؟..

ولم يجب، بل ظل ساهماً يفكر...

وجلس نمر إلى جانبه متسائلاً:

– ماذا جرى؟.. كيف أطلقت النار على ذلك الإسرائيلي؟...

– حاول أن يقتلني.. كان يخفي خنجراً، لعلكم لم تنتبهوا إليه عندما فتشم الأسرى...

– أحسنت إذن إذ بادرته بإطلاق نارك عليه قبل أن يصل إليك..

وحاول نمر أن يرى أسارير ابراهيم الذي كان قد أحنى رأسه في وجوم، وشعر بأن عليه أن يقول شيئاً آخر، عله يذهب بالروع الذي ظن أنه قد أخذ بابراهيم بعد ذلك الحادث، فقال:

– هذه هي طبيعة الأمور.. فلا تنزعج.. نحن في حالة حرب دائمة مع العدو... ولو لم تقتله لقتلك بكل تأكيد..

وظل ابراهيم صامتاً..

– ابراهيم.. أنت مقاتل.. ولا يجوز لك أن تحمّل الأمور أكثر مما تحتمل.. انه قتال متكافىء... وجهاً لوجه.. فأنت لم تغدر بذلك الإسرائيلي... وقتلته دفاعاً عن نفسك..

وزفر ابراهيم زفرة حرّى، وقال بصوت خافت:

– هل عرفت من هو؟...

– من تقصد؟..

– ذلك الإسرائيلي القتيل..

– لا.. كيف لي أن أعرفه؟..

– بالعكس.. إنك تعرفه... وأنا أيضاً أعرفه جيداً..

– ماذا تعني؟..

والتفت ابراهيم نحو نمر وأجابه:

– لقد كان القتيل هو يوري... ابن ذلك الرجل.. حاييم...

وذهل نمر، وهتف بدهشة:

– غير معقول.. أتتكلم جاداً؟.. كيف عرفته؟.. هل تبادلت معه الحديث؟..

– تبادلت معه حديثاً طويلاً.. بعد أن عرفته...

– ولكن كيف عرفته.. كيف؟..

ورد ابراهيم بمرارة:

– اتراك نسيت، يا نمر، أن على ذراعي وذراعه وشماً يمثل رسماً واحداً؟..

– ... حقاً.. الآن فهمت...

وصمت نمر، وقد فهم كل شيء، يفكر مثلما كان ابراهيم يفكر، وهزّ رأسه وهو يقول:

– يا لله.. كم تجري في الدنيا من أحداث تفوق الخيال.. من كان يتوقع أن تلتقي بذلك الشاب اليهودي بعد كل تلك السنوات؟..

– آه لو تعلم كم تمنيت هذا اللقاء وصبوت إليه.. كنت أشعر بأن محبتي السابقة لهذا المخلوق خطأ يجب أن يصحح... ولقد قيض الله لي هذا اللقاء.. ولكنني لم أكن أتوقع، في الحقيقة، أن يكون مصرعه على يدي..

– تقول أنه حاول أن يقتلك..

– أجل.. تصوّر.. لقد حاول أن يؤثر علي، بادىء الأمر، بحديث معسول، عن صداقتنا المزعومة، فأرادني أن أسهل له الهرب.. وحين أبيت، فوجئت به يحاول قتلي بذلك الخنجر..

– إنني لم أر، ولم أسمع، عن شعب جبل على الغدر مثل هؤلاء الناس... ولعله أدرك حين رددته برصاصك أننا، معشر الفلسطينيين، قد بتنا أكثر وعياً من أن تخدعنا أساليبهم الغادرة.. لقد أحسنت عملاً يا ابراهيم.. أحسنت..

وقال ابراهيم بصوت خافت، وكأنه يخاطب نفسه:

– لو نظرت إليه بعد مصرعه لرأيت في ذراعه اليمنى خنجراً.. وعلى ذراعه اليسرى وشماً... وما بين هذا الوشم وذاك الخنجر تستطيع أن تلخص حياتي كلها... حياة مشرد بلا خطيئة، قد عرف طريقه، وعرف قضيته، وعزم على أن يستعيد حقه كاملاً، أو يموت دونه..

وصمت الإثنان... فما عاد لديهما – في هذا المقام – شيء يقال.. وراحا يحدقان في اتجاه الأرض المغتصبة، بينما تناهت إليهم من بعيد أصوات أهازيج أبطال «الكرامة» وهم يحتفلون بانتصارهم الكبير...

للمؤلف

- الجيولوجيا الاقتصادية
- المعادلة الحرجة .
- نظرات علمية حول غزو الفضاء .
- اليد السفلى – مجموعة قصصية .

تحت الطبع :

- الأطباق الطائرة : حقيقة أم خيال .
- فتاة من حائل – رواية سعودية .



المطابع الأهلية للأوفست
الرياض . شارع عمر بن الخطاب
ص . ب ٢٩٥٧ - ت ٢٧٥٤٦